

TIGHT BINDING BOOK

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190294

UNIVERSAL
LIBRARY

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ٨٩٢٥٤٢

Accession No 12-07

Author (مكتوبه) - م - ج

Title النظرية (الجزء الثالث)

This book should be returned on or before the date last marked below.

النظائر

بقلم المرحوم
مُصطفى لطفى النفلوطي

الجزء الثالث

الطبعة الخامسة

أول أغسطس سنة ١٩٢٦

« حقوق الطبع محفوظة »

يطلب من مكتبة الهلال بشارع النجيلة بمصر

المطبعة الرحمانية بمصر
لصاحبها مؤلفه موسى شريف

البيان

أعرف أديباً من أفضل الادباء في هذا البلد المضطلعين
 باللغة وفنونها ، الحافظين للكثير المتسع من منظومها
 ومنشورها ، إلا أنه لا يكتب كلمة في صحيفة ، ولا ينشر
 في الناس كتاباً ، إلا أعجم كتابته وأبهمها ، وتعمل فيها عملاً
 يأخذ على القارئ عقله وفهمه ، فلا يدري أى سبيل يأخذ
 بين مسالكها وشعابها ، وكنت أحسبها غريزة من غرائزه
 الغالبة عليه ، الآخذة من نفسه مأخذ الطبيعة الثابتة ،
 والملكة الراسخة ، فلا سبيل له الى التخلص منها ، والنزوع
 عنها ، حتى اطلعت له عند بعض أصدقائه على كتاب صغير
 كان قد أرسله اليه في بعض الشؤون الخاصة وكتبه بتلك
 اللغة السهلة البسيطة التي يسمونها اللغة العادية ، فأعجبت
 بأسلوبه في كتابه هذا إعجاباً كثيراً ، ورأيت أذنان

ماقرأت له في حياتي من كتب ورسائل ، وعلمت أن الرجل فصيح بفطرته ، قادر على الابانة عن أغراضه ومراميه ، كأفضل مايقدر مقتدره على ذلك ، إلا أنه يتكلف الركة والتعقيد في كتابته تكلفاً ، ويأخذ نفسه بهما أخذاً ، ولو أنه أرسل نفسه على سجيتهما فكتب جميع رسائله ومؤلفاته بتلك اللغة الجميلة العذبة التي كتب بها كتابه هذا لكان من أعظم الكتب شأناً ، وأكثرهم نفعاً ، وأرفعهم صوتاً في عالم الكتابة والأدب ، ولكن هكذا قدر له أن يقضى بنفسه على نفسه

وقرأت منذ أيام لأحد الشعراء المتكلفين ديوان شعر فلم أفهم منه غير خطبته النثرية ولم يعجبني فيه سواها ، وما أحسبها أفلتت من يده ، ولا جاءت على هذه الصورة من الجودة والحسن إلا لأنه أغفل العناية بها ، والتدقيق في وضعها ، فأرسلها عفو الخاطر إرسال من يعلم أنه إنما يستأنس من الاجادة في الشعر ، لاعن البراعة في النثر ، وأز

الناس سيغتفرون له ضعف الكاتب ، أمام قوة الشاعر ، غير عالم أنه كاتب من أفصح الكتاب وأبينهم ، ولو شاء لكان شاعراً من أقدر الشعراء وأفضلهم ، وأنه ما أحسن الإحيث ظن الاساءة ، ولا أساء إلا حيث ظن الاحسان

ووالله لا أدري ما الذى يستفيد هؤلاء الادباء من سلوكهم هذا المسلك الوعر الخشن فى أساليبهم الكتابية والشعرية ، وتكلف الاغراب والتعقيد فيها ، وهم يعلمون أنهم إنما يكتبون للناس لئلا أنفسهم ، وان الناس خصوصاً فى هذا العصر عصر المدنية والعمل ، والحركة والنشاط ، أضنّ بأنفسهم وبأوقاتهم من أن يقفوا الوقفات الطوال أمام بيت من الشعر يعالجون فهمه ، أو سطر من النثر يعانون كسر صخور ألفاظه عن معانيه ، ولم لا يؤثر أحدهم إن كان يكتب للمنفعة العامة أن يستكثر من سواد المنتفعين بعلمه وفضله ، أو للشهرة والذكر ، أن ينتشر له ما يريد من ذلك بين جميع طبقات الأمة عامتها

وخاصتها ، علمائها وجهلائها ، وهل الشعرُ والكتابة
إلا أحاديث سائرة يحادث بها الشعراء والكتابُ الناسَ
ليُفضوا إليهم بخواطر أفكارهم ، وسوانح آرائهم ، وخلجات
نفوسهم ، وهل يعنى المتحدثُ في حديثه شئاً سوى أن
يعيَ عنه الناسُ ما يقول ، وأن يجد بين يديه سامعاً مصغيّاً ،
ومقبلاً محتفلاً ، وأى فرق بين أن يجلس الرجل الى جمع
من أصدقائه ليقص عليهم بعض القصص ، أو يفضي إليهم
ببعض الآراء ، فيتلطف في تفهيمهم ، وإيصال معانيه الى
نفوسهم . ويفتنّ في اجتذاب ميولهم وعواطفهم ، وبين أن
يجلس الى مكتبه ليبعث إليهم بهذه الأحاديث نفسها من
طريق القلم ، ولم لا يعنيه في الأخرى ما يعنيه في الأولى
ليس البيان ميداناً يتبارى فيه اللغويون والحفاظ أيهم
أكثر مادة في اللغة ، وأوسع اطلاعاً على مفرداتها
وتراكيبها ، وأقدر على استظهار نواذرها وشواذها ،
ومترادفها ومتواردها ، ولا متحفاً لصور الأساليب ،

وأَنواع التراكيب، ولا مخزناً لآمال المجازات والاستعارات،
 وحَقائب الشواهد والأمثال، فتلك أشياء خارجة عن
 موضوع البيان وجوهره، إنما يُعنى بها المؤلفون
 والمدونون وأصحاب القواميس والمعاجم وواضعو كتب
 المترادفات ومصنفو فقه اللغة وتاريخ أدبها، أما البيان فهو
 تصوير المعنى القائم في النفس تصويراً صادقاً يُمثله في ذهن
 السامع كأنه يراه ويلمسه لا يزيد على ذلك شيئاً، فإن عجز
 الشاعر أو الكاتب مهما كبر عقله وغزر علمه واحتفل ذهنه
 عن أن يصل بسامعه إلى هذه الغاية، فهو ان شئت أعلم
 العلماء، أو أفضل الفضلاء، أو أذكى الأذكياء، ولكنه
 ليس بالشاعر ولا بالكاتب

ما أشبه الجمود اللغوي في هذه البيئة العربية بالجمود
 الديني، وما أشبه نتيجة الأول بنتيجة الآخر

لم يزل علماء الدين يتشددون فيه ويتنطعون، ويقتطون
 من هضبته السماء صخوراً صماء يضعونها عقبة في سبيل

المدنية والحضارة حتى صيروه عبثاً ثقيلاً على كواهل الناس وعواقبهم ، فله الكثير منهم ، وبرّموا به ، واخذوا يطلبون لأنفسهم الحياة الطيبة من طريق غير طريقه ، ولو أنهم لانوا به مع الزمان وصروفه ، وتمشوا بأوامره ونواهيه مع شؤون المجتمع وأحواله ، لاستطاع الناس أن يجمعوا بين الأخذ بأسباب دينهم ، والأخذ بأسباب دنياهم

ولم يزل جماعة اللغويين وعبدة الألفاظ والصور يتشدّدون في اللغة ويتحدّقون ، ويتشبثون بالأساليب القديمة والتراكيب الوحشية ، ويغالون في محادثاتها واحتذائها ، ويأبون على الناس إلا أن يجمدوا معهم حيث جمدوا ، وينزلوا على حكمهم فيما أرادوا ، ويحاسبون الكاتين والناطقين حساباً شديداً على الكلمة الغريبة والمعنى المبتكر ، ويقىمون المناحات السوداء على كل تشبيه لم تعرفه العرب ، وكل خيال لم يمر بأذهانهم ، حتى ملّهم الناس وملّوا اللغة معهم ، فتمردوا عليهم ، وخلعوا طاعتهم ،

وطلبوا لأنفسهم الحرية اللغوية التامة في جميع مواقعهم وعلائقهم ، فسقطوا في اللغة العامية في أحاديثهم ، وشبه العامية في كتاباتهم ، وكادت تنقطع الصلة بين الأمة ولغتها ، لولا أن تداركها الله برحمته ، فقيض لها هذا الفريق العامل المستنير من شعراء العصر وكتابه الذين عرفوا سر البيان وأدركوا كنهه ، فاتخذوا لأنفسهم في مناحيهم الشعرية والكتابية أسلوباً وسطاً معتدلاً جمعوا فيه بين المحافظة على اللغة وأوضاعها وأساليبها ، وبين تمثيل روح العصر وتصوير صورة الحياة ، ولولا هم لبقيت اللغة في أيدي الجامدين فماتت ، أو غلبت عليها العامية فاستحالت



قال لي أحد الأدباء المتكلمين في معرض الاعتذار عن نفسه وقد عتبت عليه في هذا المنهج الخشن الوعر الذي يهجه في أسلوبه : أنت تعلم أن الناس في هذا البلد قد ألفوا

من طريق خطأ الحس أن ينظروا بعين الاجلال والاعظام
إلى كل أسلوب شعري أو كتابي معقد غامض ، وإن
تفهمت معانيه وهانت أغراضه ، وبعين الازدراء والاحتقار
إلى الأساليب السهلة البسيطة ، وإن اشتملت على أشرف
الأغراض وأبرع المعاني ، أى أنهم لا يرون السهولة
والانسجام حتى يتوهموا التفاهة والسفولة ، ولا يرون
الركاكة والمعاذلة حتى يظنوا الخدق والبراعة وسمو المعاني
وشرفها ، وهى حالة طبيعية فى جميع النفوس البشرية أن
تزدريّ المبدول لها ، وتستسنى قيمة الممنوع عنها ، وليس
هذا شأنهم مع أدباء العصر الحاضر فحسب ، بل مع أدباء كل
عصر وجيل ، فهم يسمون البحترى وأبا نواس والشريف
الرضى ، وأمثالهم شعراء الألفاظ ، ويسمون المتنبي والمعرى
وابن الرومى وأشباههم شعراء المعاني ، وليس بين الأولين
والآخرين فرق فى جودة المعاني وشرفها إلا أن الأولين
أمطروها على الناس وبعثروها تحت أقدامهم فهانت عليهم ،

وضن بها الآخرون ووعروا سبيلها فعظمت في أعينهم ،
وجلّت في صدورهم ، قال ولقد عرضت السلعتين في سوق
الأدب فكتبت أتعنه المعاني وأدونها في أخشن الأساليب
وأوعرها فنفتت في تلك السوق نفاقاً عظيماً ، وكثر المعجبون
بها والمكبرون لها ، وكتبت أشرف المعاني وأبرعها في ألطف
الأساليب وأعذبها فما أبة لها إلا القليل من الناس ، وربما لم
يأبه لها أحد ، فلم أر بداً من أن أنتهج لنفسي في الكتابة الخطة
التي أعلم أنها أجدر بي وأجدي على

فعميت لرأيه هذا عجباً شديداً وقلت له أمّا هذا
الذي تذكره فاني لا أعرفه إلا لفئة قليلة من القراء فاسدة
الذوق لا يعبأ بها عابى ، وليس هذا رأى جمهور المتأدين ،
بل ولا رأى العامة من أبناء هذه اللغة ، وهب أن الأمر
كما تقول ، فالأدب ليس سلعة من السلع التجارية لا هم
لصاحبها سوى أن يحتال لنفاقها في سوقها ، إنما الأدب فن
شريف يجب أن يخلص له المتأدون بأداء حقه والقيام على

خدمته إخلاص غيرهم من المشتغلين ببقية الفنون لفنونهم ،
والأدباء هم قادة الجماهير وزعمائهم ، فلا يجمل بهم أن ينقادوا
للجماهير وينزلوا على حكمهم في جهالاتهم وفساد تصوراتهم ،
ولم أزل به حتى أذعن للرأى الذى رأيت له ، فحمدت الله
على ذلك



ليس من الرأى ولا من المعقول أن ينظم الشعراء
الشعر ويكتب الكتاب الرسائل فى هذا العصر عصر
الحضارة والمدنية وبين هذا الجمهور الذى لا يعرف أكثر
من العامة إلا قليلا باللغة التى كان ينظم بها امرؤ القيس
وطرفة والقطامى والخطفى ورؤبة والمعجاح ويكتب بها
الحجاج وزيد وعبد الملك بن مروان والجاحظ والمعرى
فى عصور العريية الاولى ، فليس عصرنا كمصرهم ، ولا
جمهورنا كجمهورهم ، وأحسب لو أنهم نُشروا اليوم من
أجداثهم لما كان لهم بُدٌّ من أن ينزلوا إلى عالمنا الذى نعيش

فيه ليخاطبوننا بما نفهم أو يعودوا الى مراقدهم من حيث جاءوا
ليست الاساليب اللغوية ديناً يجب أن تتمسك به
ونحرص عليه حرص النفس على الحياة ، إنما هي أداة للفهم
وطريق إليه ، لا تزيد على ذلك ولا تنقص شيئاً

يجب أن نحافظ على اللغة باتباع قوانينها والتمسك
بأوضاعها ومميزاتها الخاصة بها ، ثم نكون أحراراً بعد ذلك
في التصور والتخيل واختيار الاسلوب الذي نريد

يجب أن يشف اللفظ عن المعنى شفاف الكأس
الصافية عن الشراب حتى لا يرى الراى بين يديه سوى
عقل الكاتب ونفس الشاعر ، وحتى لا يكون للمادة اللفظية
شأن عنده أكثر مما يكون للمرأة من الشأن في تمثيل
الصور والمخائل

يجب أن يتمثل المعنى في ذهن المتكلم قبل أن يتمثل
اللفظ ، حتى إذا حسن الاول أفاض على الثانى جماله ورونقه ،
فاللفظ لا يجمل حتى يجمل المعنى ، بل لا مفهوم للفظ الجميل
إلا المعنى الجميل

لو لم يكن للفصاحة قانون يرجع اليه من يريد معرفتها
ومقياس تقاس عليه لوجب أن يكون قانونها العقلي أن
يترك القائل في نفس السامع الاثر الذي يريده ، فان عجز
عن ذلك فلا أقل من أن يصور له المعنى القائم في نفسه، فان لم
يكن هذا ولا ذاك فاحتراف أية حرفة من الحرف مهما
صغر قدرها ، واتضع شأنها ، أعود بالنفع على الامة وأجدي
عليها من حرفة القلم

لا يبك شاعرٌ بعد اليوم ولا كاتبٌ سقوط حظه
في الامة ، ولا يقضى حياته ناعياً عليها جهلها وقصورها
كلما رآها منقبضة عنه غير حافلة به ولا مصفية اليه ،
فالامة قد ارتقت واستنارت ، وأصبحت طماحة متطلعة ،
لا يقنعها من قلم الشاعر أن يرنّ على صفحة القرطاس دون
أن يطربها ويملك عواطفها ، ولا من قلم الكاتب أن يسود
بياض الصحف دون أن ينير لها أذهانها ، ويفدى عقولها
ومداركها ، فان كان لابد باكياً فليبك على نفسه ، ولينع

عجزه وقصوره ، وليعلم أنه لو استطاع أن يكتب للأمة ما تفهم لاستطاعت الأمة أن تفهم عنه ما يقول

إننى لا ألوم على الركاكزة والفهامة الأغبياء الذين أظلمت أذهانهم ، فأظلمت أqlامهم ، وظلمة القلم أثر من آثار ظلمة العقل ، ولا الجاهلين الذين لم يدرسوا قوانين اللغة ، ولم يمارسوا أدبها ، ولم يتشبعوا بروح منظومها ومنثورها ، ولا العاجزين الذين غلبتهم إحدى اللغات الأعجمية على أمرهم فأصبحوا إذا ترجموا ترجموا ترجمة حرفية ليس فيها مميز واحد من مميزات العربية ، ولا خاصة من خواصها ، وإذا كتبوا كتبوا بأسلوب عربى الحروف أعجمى كل شئ بعد ذلك ، فهؤلاء جميعاً لا حول لنا فيهم ولا حيلة ، لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا غير ذلك ، إنما ألوم المتأدين القادرين الذين عرفوا اللغة ، واطلموا على أدبها ، وفهموا سر فصاحتها ، وأنقم منهم عدو لهم عن المحجة فى البيان إلى الجمجمة والغنمة فيه ، وأنعى عليهم نقص القادرين على التمام

الناشئ الفقير^(١)

لى ولد وحيد فى السابعة من عمره لا أستطيع على حى
 إياه وافتتانى به أن أتركه من بعدى غنياً لأننى فقير ، وما
 أنا بأسف على ذلك ولا مبتئس ، لأننى أرجو بفضل الله
 وعونه ، ورحمته وإحسانه . أن أترك له ثروة من العقل
 والأدب ، هى عندى خير ألف مرة من ثروة الفضة والذهب
 أحب أن ينشأ معتمداً على نفسه فى تحصيل رزقه
 وتكوين حياته ، لا على أى شىء آخر حتى على الثروة التى
 يتركها له أبوه ، ومن نشأ هذا المنشأ وألف ألا يأكل
 إلا من الخبز الذى يصنعه بيده نشأ عزوفاً عيوفاً مترفعاً
 لا يتطلع إلى ما فى يد غيره ، ولا يستعذب طعم الصدقة
 والاحسان

(١) كتب هذه الرسالة جواباً عن سؤال هداية « أيهما أصلح للإنسان
 أن يولد فقيراً أو غنياً »

أحب أن ينشأ رجلاً ، ولا سبيل الى الرجولة إلا من
 ناحية العمل ، وقلما يعمل العامل إلا بسائق من الضرورة ،
 ودافع من الحاجة ، وفرق بين الغنى الذى يعمل لتنمية ثروته
 وتعظيم شأنها شرهاً وفضولاً ، وبين الفقير الذى يعمل
 لتحصيل قوته ، وتقويم أود حياته

أحب أن يعيش فرداً من أفراد هذا المجتمع الهائل
 المترك في ميدان الحياة ، يصارع العيش ويغالبه ، ويزاحم
 العاملين بمنكبيه . ويفكر ويتروى ، ويجرب ويختبر ،
 ويقارن الأمور بأشباها ونظائرها ، ويستنتج نتائج
 الأشياء من مقدماتها ، ويعثر مرة ، وينهض أخرى ، ويخطئ
 حيناً ، ويصيب أحياناً ، فمن لا يخطئ لا يصيب ، ومن لا يعثر
 لا ينهض ، حتى تستقيم له شؤون حياته

ذلك خير له من أن يجلس في شرفة من شرف قصره
 مطالاً على العاملين والمجاهدين يتمتع نظره بمرآهم كأنما يشاهد
 رواية تمثيلية في أحد ملاعب التمثيل

أحب أن يمر بجميع الطبقات ، ويخالط جميع الناس ،
ويذوق مرارة العيش ، ويشاهد بعينه بؤس البؤساء ، وشقاء
الاشقياء ، ويسمع بأذنه أنات المتألمين ، وزفرات المتوجعين ،
ليشكر الله على نعمته إن كان خيراً منهم ، ويشاركهم
في همومهم وآلامهم إن كان حظه في الحياة مثل حظهم ،
ولتتمو في نفسه عاطفة الرفق والرحمة ، فيعطف على الفقير
عطف الاخ على الاخ ، ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم
أما الغني الذي لم يذق طعم الفقر في حياته فقلما يشعر
بآلام الناس ومصائبهم ، أو يعطف على بأسائهم وضرائهم ،
فإن حاول يوماً أن يمد يده بالمعونة الى بائس أو منكوب ،
فعل ذلك متفضلاً ممتناً ، لاراحماً ولا متألماً

والالم هو الينبوع الذي تتفجر منه جميع عواطف
الخير والاحسان في الارض ، وهو الصلة الكبرى بين
أفراد المجتمع الانساني ، والجامعة الوحيدة التي تجمع بين
طبقاته وأجناسه ، بل هو معنى الانسانية وروحها

وجوهرها ، فمن حُرِّمَهُ حُرْمٌ كُلُّ فضيلة من فضائل النفس ،
وكُلُّ مكرمة من مكرماتها ، وأصبح بالصخرة الصلدة
أشبه منه بالإنسان الناطق

أحب أن يجوع ليجد لذة الشبع ، ويظماً ليستعذب
طعم الرى ، ويتعب ليشعر ببرد الراحة ، ويسهر لينام ملء
جفونه ، أى إننى أحب لهُ السعادة الحقيقية التى لاسعادة
فى الدنيا سواها

وما السعادة فى الدنيا إلاّ لمحات كلمحات البرق تحفى
حيناً بعد حين فى ظلمات الشقاء ، فمن لا يرى تلك الظلمات
لا يراها ، وأشتى الاشقياء أولئك المترفون الناعمون الذين
يوافهم الدهر بجميع لذائذهم ومشتياتهم ، فلا يزالون
يُمعنون فيها ويتقبلون فى جنباتها حتى يستنفدوها ، فيستولى
على عقولهم مرض السّامة والضجر ، فيتألمون من الراحة
أكثر مما يتألم التعب من التعب ، ويقاسون من عذاب
الوجود أكثر مما يقاسى المحروم من عذاب الحرمان ، وقد

تدفعهم تلك الحالة إلى الامام بمشتهيات غريبة لا تتفق مع الطبيعة البشرية ولا تدخل تحت حكمها ، تفرجاً لكربتهم ، وتنفيساً عن أنفسهم ، وما هؤلاء المساكين الذين نراهم سهارى طوال لياليهم فى ملاعب القمار ومجالس الشراب ومواقف الرهان إلاّ جماعة الفارين من سجون السّامة والملل ، يعالجون الداء بالداء ، ويفرون من الموت إلى الموت أحب أن يكون غنياً بالمعنى الحقيقى ، لا بالمعنى الاصطلاحي ، أى أن يكون مستغنياً بنفسه عن غيره ، لا كثير المال والثراء ، وما سُمى المال غنى إلاّ باعتبار أنه وسيلة إلى الغنى وطريق إليه ، وهو اعتبار خطأ ما فى ذلك ريب ، فان أكثر الناس فقراً إلى المال وأشدّهم ولعاً باحرازه وأعظمهم مخاطرة بكرامتهم وفضائل نفوسهم فى سبيله هم الأغنياء ، أصحاب المال والثراء ، وان كان فى الدنيا شيء يسمى قناعة واعتدالا فهو فى جانب الفقراء المقلين ، أكثر منه فى جانب الاغنياء المكثرين ، ولا

يزال المرء يمتد المال وسيلة إلى الحياة وذريعة من ذرائعها حتى يكثر في يده فاذا هو في نظره الحياة نفسها ، يجمعه ولا يدري ماذا يريد منه ، ويعبد وهو لا يرجو ثوابه . ولا يخشى عقابه ، ويستكثر منه وهو على ثقة من نفسه بأنه لا ينتفع بقليله ، فضلاً عن كثيره ، وإذا بلغ المرء في حالته العقلية إلى درجة أن تنقلب في نظره حقائق الكون وتتغير نوااميسه ، فيرى الرعوس أذناناً ، والأذنان رعوساً ، والوسائل غايات ، والغايات وسائل ، فقل على عقله السلام لا أكره أن ينشأ ولدي غنياً ، ولا أحب أن أعرضه لمخاطر الفقر وآفاته ، ولكني أخاف عليه الغنى أكثر مما أخاف عليه الفقر

أخاف عليه أن يعتد بالمال اعتداداً كثيراً ، ويقدره فوق قدره . ويعتبره الكمال الانساني كله ، فلا يهتم باصلاح أخلاقه وتهذيب نفسه ، وألاً يجد من حوله من عشرائه وخطائمه مرآة يرى فيها هناته وعيوبه ، لان عشراء

الاغنياء متملقون مدهنون ، يطوون سيئاتهم ، ويزخرفون
حسناتهم

أخاف عليه أن تستحيل نفسه إلى نفس مادية جامدة ،
لا تفهم من شؤون الحياة غير المادة ، ولا تعنى بشيء سواها ،
فيصبح رجلاً قاسياً صلباً ؛ ميت النفس والعواطف ، لا يرحم
بأنساً . ولا يعطف على منكوب ، ولا يرثي لأمة . ولا
يبكي على وطن ، ولا يشترك في شأن من الشؤون العامة خيرها
وشرها ، ولا يعنيه ما دام راضياً عن نفسه ، مقتبلاً بحظه ،
أسقطت السماء على الأرض ، أم بقيت في مكانها

أخاف عليه أن يحتقر العلوم والآداب ، ويزدرى
المواهب والعقول ، والفضائل والمزايا ، فيصبح عار أمته
وشنارها ، ووصمتها الخالدة التي لا تزول ، ومن أشرب قلبه
حب المال ، ونزل من نفسه إلى قراراتها ، لا يحترم غيره ، ولا
يقيم إلا لأربابه وزناً ، ويخيل إليه أن من عداهم من الناس
لا قيمة لهم في الحياة ، بل لاحق لهم في الوجود

أخاف عليه إن تزوج أن يأبى الزواج إلاّ من غنية
يرى أنها هي التي تليق بمقامه ومنزلته ، ومن اشترط الغنى
في زوجة قلما تنزع نفسه إلى اشتراط شيء سواد ، فيسقط
في زواجه سقطة يشقى بها طول حياته من حيث لا ينفعه
ماله ولا جاهه

أخاف عليه أن وكداً ألا يجد بين أوقاته ساعة فراغ
يتولى فيها النظر في تهذيب ولده وتربيته ، فيتركه صغيراً
في أيدي الخدم ، وكبيراً في أيدي عشراء السوء ، فيصبح
نكبته الكبري في حياته ، وعاره الدائم بعد مماته
أخاف عليه أن يقضى أيامه ولياليه مروّعا مذعوراً
خافق القلب مستطار الفؤاد تقتله الخسارة إن خسر ،
ويصعقه فوت الرّيح أن فاته ، ويطيّر بنومه وهدوئه
هبوط الاسعار ، ونزول الاسهم ، وتقلبات الاسواق ،
وخسران القضايا ، ومنازعات الخصوم ، والآفات السماوية
والجوائح الارضية

وما حزنُ الفقير الذي أنفق آخر درهم بيده من حيث
لا يعرف له طريقاً إلى سواه على نفسه وعلى مستقبله بأشد
من حزن الغنى الشحيح على الدرهم الذي نقص من مليونه ،
أو الذي كان يؤمل أن يتم به مليونه فلم يُتَح له
وما ليلة البائس المسكين الذي يتصايح أولاده من
حوله جوعاً ، ولا يجد ما يسد به رمقهم ، باطول من ليلة الغنى
الذي يسقط اليه الخبر بأن سلعة من سلعه قد نفقت ، أو
أن سهما من أسهمه قد نزل

وحدثني من رأى بعينه من جنّ وهو واقف ينظر إلى
قصر من قصوره يحترق ، وسمعت كثيراً من حوادث
المنتحرين والمصعوقين على أثر النكبات المالية والخسائر
التجارية التي لا تفقرهم ولا تصل بهم إلى درجة الاملاق ،
وكلُّ أثرها عندهم انها تنقلهم إلى منزلة في الغنى أدنى من
منزلتهم الاولى

أخاف عليه أن يصبح واحداً من أولئك الوارثين.

المستهترين الذين لا عمل لهم في حياتهم سوى هدم حياتهم
بأيديهم ، وهدم ما ترك لهم آباؤهم وأجدادهم من مال وجاه ،
فأندب حظي في قبري ، وأقرع السن على أن لم أكن فارقتُ
هذه الحياة ولا مال لي فيها ولا ولد

ولا أزال أذكر حتى الساعة أنني مررت بأحد
شوارع القاهرة من بضع سنين فرأيت في مكان واحد منه
منظرين مختلفين ، رأيت غلاماً من الوارثين جالساً
باحدى الخانات يبرح فى نعمائه ، وآخر من المتشردين
نائماً تحت الرصيف على مقربة منه يضطرب فى بأسائه ،
أما الاول فقد كان جالساً بين مائدتي شراب وقمار ، تسلب
الاولى عقله ، والاخرى ماله ، وقد أحاط به جماعة من
الخلعاء الماكرين يلعبون بعقله لعب الغلمان بالكرة
فى ميدانها ، يضحكون لنكاته ، ويؤمنون على أقواله ،
ويصدقون أكاذيبه ، ويتحركون بحركته ، ويسكنون

بسكونه ، وهو يقهقه بينهم قهقهة المجانين ، ويصيح صياح الثعالب ، وأما الثاني فقد كان عارياً إلا قليلاً ، يفتح إحدى عينيه من حين إلى حين كلما رنّت في أذنه ضحكات هؤلاء السكارى وضوضائهم ، ويضم ركبتيه إلى صدره كلما أحس صوتَ مركبة مارة بجانبه ، وقد يبسط كفه أحياناً وهو مغتمض إن خيل إليه أن يداً تمتد إليه بالاحسان ، ولا يد هناك ولا احسان .

رأيت هذين المنظرين الغريبيين المتناقضين ، فثارت في نفسي في تلك الساعة عاطفتان مختلفتان ، عاطفة البغض والاحتقار للاول ، وعاطفة الرحمة والشفقة على الثاني ، وقلت في نفسي : لو كان لي ولد وكان لابد له من أن يكون أحد هذين الغلامين ، إما الوارث الجالس فوق الرصيف ينثر الذهب نثراً ، أو المتشرد النائم تحته يسأل الناس لقمة فلا يجدها ، لفضلت أن أراه بين فئة المتشردين ، على أن أراه بين فئة الوارثين ، لاني أرجو له في الاولى ان

يجد بين الراحين راحماً يحسن اليه ، ويستنقذه من شقائه ،
ويأخذ بيده فى طريق الحياة الطيبة الصالحة ، أما فى الثانية
فانى لا أرجو له شيئاً

ان للرحمة طيشاً كطيش القسوة والشدة ، وأطيش
الراحين ذلك الذى يستنفد أيام حياته فى جمع الثروة
لأولاده دائماً ليله ونهاره لا يهدأ ولا يفتر من حيث يُغفل
النظر فى شأن تربيته وتعليمهم ضناً بهم أن يزعج نفوسهم
بشيء من تكاليف الحياة وأعبائها ، فاذا ذهب لسيله وخلى
بينهم وبين ذلك المال الذى جمعه لهم لا يكون لهم من الشأن
فيه أكثر مما يكون لجماعة الحمالين فى الاثقال التى يحملونها
من مكان إلى آخر ، فهم ينقلونه من خزائنه شيئاً فشيئاً
إلى خزائن الحمارين والمرايين والعاهرين حتى ينفد ، فاذا
فرغوا منه جلسوا فى عَرَصاتهم المقفرة جلسة الباكى
الحزين ، صفر الأَكف ، فارغى الجيوب ، مطرقى الرؤوس ،
لاحول لهم ولا حيلة ، قد أضاعوا حياتهم وحياة آبائهم

وأجدادهم ، وهدموا في عام واحد أو عامين قرناً كاملاً
 مجيداً من أعلاه إلى أسفله ، ولا يعلم إلا الله ماذا يكون
 شأنهم بعد ذلك

ولو أن أباهم كان يرحمهم رحمة حقيقية ويشفق عليهم
 إنشفاقاً صحيحاً لرحمهم من هذا المصير المحزن ، وضمن بهم على
 هذا التراث المشؤوم ~

يقولون إن الفقر يدفع إلى الجرائم والقتل وارتكاب
 السرقات ، وأنا أقول إننا إذا استطعنا أن نفهم الجريمة بمعناها
 الحقيقي وألاّ نتخذ بصور الألفاظ وألوانها علمنا أن للاغنياء
 جرائم كجرائم الفقراء ، بل أشد منها خطراً وأعظم هولاً ،
 فإن كان بين الفقراء اللصوص والقتلة والسطار والعيارون
 وقاطعوا الطرق ، فبين الأغنياء المحتالون والمزورون ،
 والمغتصبون والخائنون ، والمداهنون والممالئون ، وأصحاب
 المعامل والشركات الذين يغذون أجسامهم بدماء عمالهم ، والتجار
 الذين يسرقون من الأمة في يوم واحد باسم الحرية التجارية

مالا يسرقه منها جميع لصوص البلد وعبّاروه في شهر كامل ،
والقوَّامُ والأوصياء الذين يرثون التركات من دون واريثها ،
ويأكلون أموال اليتامى والمعتوهين باسم صيانتها والمحافظة
عليها ، والسماسرة الذين يفتالون الأسواق باجمعها ، والمرابون
الذين يختلسون الثروات بأكملها ، والسياسيون الذين يسرقون
الممالك بحذافيرها

على أن جرائم اللصوصية والسرقة والقتل ليست
جرائم الفقير بل جرائم الغنى ، فلولا شح الأغنياء بأموالهم
وكلبهم عليها وحيازتها عن الفقراء لما وُجد في الارض قاتل
ولا سارق ولا قاطع طريق ، ولا يسرق السارق ، ولا
يسلب السالب ، ولا يلصُّ اللص ، إلا جزءاً من حقه الذى
كان يجب أن يكون له لو كان للمال زكاة ، وللرحمة سبيل إلى
الافتدة والقلوب

ليفتح الأغنياء المدارس وليبنوا الملاجىء ، ولينشئوا
المصانع والمعامل للعاطلين والمتشردين ، وليتعهدوا المنكوبين

والساقطين فى ميادين الحياة العامة بالمساعدة والمعونة ، فان
وجدوا بعد ذلك لصوصاً أو قتلة أو مجرمين فليتهموا الفقر
ولينعوا عليه جرائمه وآثامه

لا أريد أن أقول إن الغنى علة فساد الأخلاق ، وأن
الفقر علة صلاحها ، ولكن الذى أستطيع أن أقوله عن
تجربة واستقراء ، إنى رأيت كثيراً من أبناء الفقراء ناجحين ،
ولم أر إلا قليلاً من أبناء الأغنياء عاملين

ان العلوم والمعارف ، والمخترعات والمكتشفات ،
والمدينة الحديثة بأجمعها ، حسنة من حسنات الفقر ، وثمره
من ثمراته ، وما المداد الذى كتبت به المصنفات ، ودونت
به الآثار ، إلا دموع البؤس والفاقة ، وما الآراء السامية
والأفكار الناضجة التى رفعت شأن المدينة الحديثة إلى
مستواها الحاضر إلا أبخرة الأدمغة المحترقة بنيران الهموم
والأحزان ؛ وما انفجرت ينابيع الخيالات الشعرية
والتصورات الفنية ، الا من صدوع القلوب الكسيرة ،

والافتدة الحزينة ، وما أشرقت شمس الذكاء والعقل
 في مشارق الارض ومغاربها إلا من ظلمات الاكواخ
 الحقيرة ، والزوايا المهجورة ، وما نبغ الثابغون من فلاسفة
 وعلماء ، وحكماء وأدباء ، إلا في مهود الفقر ، وحجور الاملاق ،
 ولولا الفقر ما كان الغنى ، ولولا الشقاء ما وجدت السعادة
 ان المجتمع الانساني اليوم ميدان حرب يعترك فيه
 الناس ويقتتلون ، لا يرحم احداً احداً ، ولا يلوى مقبل على
 مدبر ، يَعدُّون ويسرعون ويتصادمون ويختبطنون ،
 ويأخذ بعضهم بتلابيب بعض ، كأنهم هاربون من معركة ،
 أو مفلتون من مارستان ، ودماء الشرف والفضيلة تسيل
 على أقدامهم ، وتموج موج البحر الزاخر ، يفرق فيه من
 يفرق ، وينجو من ينجو

أندرون لم سقطت الهيئة الاجتماعية هذا السقوط
 الهائل الذي لم تصل الى مثله في دور من أدوار حياتها
 الماضية ؟ ولم هذا الجنون الاجتماعي الثائر في أدمغة الناس

خاصتهم وعامتهم ، علمائهم وجهلائهم ؟ ولم هذه الحروب القائمة ، والثورات الداعمة ، والقتال المستحرق بين البشر جماعات وأفراداً ، وقبائل وشعوباً ، وممالك ودولاً ؟

لاسبب لذلك سوى شيء واحد ، هو أن الناس يعتقدون اعتقاداً خطأ أن المال معيار السعادة وميزانها الذي توزن به ، فهم يسمعون اليه لامن أجل الجمع والادخار ، العيش كما يجب أن يكون ، بل من أجل القوت وكفاف والمال في العالم كمية محدودة لا تكفي ملء جميع الخزائن ، وتهدة كافة المطامع ، فهم يتناهبونه ويتصارعون من حوله كما تتصارع الكلاب حول الجيف الملقاة ، ويسمون عملهم هذا تنازع الحياة ، أو تنازع البقاء ، وما هو بالتنازع ولا التناظر ، انما هو التفاني والتناحر ، والدم السائل ، والعدوان الدائم ، والشقاء الخالد

والعلاج الوحيد لهذه الحال المخيفة المزعجة أن يفهم الناس ألا صلة بين المال وبين السعادة ، وأن الافراط

في الطلب شقاءه كالتقصير فيه ، وأن سعادة العيش وهناءه
وراحة النفس وسكونها لا تأتي إلا من طريق واحد .
وهو الاعتدال



الان أستطيع غير خاش لوماً ولا عتباً أن أقضى
للناشيء الفقير على الناشيء الغني قضاء لا مجاملة فيه ولا محاباة ،
ومن ذا الذي يجامل الفقراء ويحاييهم ! وأن أقول للناشيء
الفقير ، صراً يا بني وعزاء ، فانك لم تخلق إلا للعمل ، فاعمل
واجتهد ، ولا تعتمد في حياتك إلا على نفسك ، ولا تحصد
غير الذي زرعه يديك ، فان لم تجد معلماً يعلمك فعلم نفسك ،
والزمن خير مؤدب ومهذب ، وإن ضاقت بك المدارس
فادرس في مدرسة الكون ففيها علوم الحياة بأجمعها ، وإن
كنت ممن لا يمدون وظائف الحكومة ومناصبها غما
عظيماً كما يعدها القعدة العاجزون ، فهاهو ذا فضاء الارض

أمامك فامش فيه وقتش عن قوتك كما تفتش عنه الطيور
القواطع التي ليس لها مثل عقلك وفطنتك ، وحيلتك
وقوتك ، فان الله لم يخلقك في هذا العالم ولم يبرزك إلى هذا
الوجود لتموت فيه جوعاً أو تهلك ظمأً ، ولا تصدق
ما يقولونه لك من أن الناشيء الغني أسعد منك حالاً ، وأوفر
حظاً ، وإن راقك منظره ، وأعجبك ظاهره ، فكل نفس
همومها وآلامها ، وهموم الفقر على شدتها أقل هموم
الحياة وأهونها

وحسبك من السعادة في الدنيا ضمير نقى ونفس
هادئة وقلب شريف وأن تعمل بيدك فترى بعينيك
ثمرات أعمالك تنمو بين يديك وترعرع فتغبط بمرآه
اغتباط الزارع بمنظر الخضرة والتماء في الارض التي فلحها
بيده ، وتعهدها بنفسه ، وسقاها من عرق جيئنه

قتيلة الجوع

قرأت في بعض الصحف منذ أيام أن رجال الشرطة
عثروا بجثة امرأة في جبل المقطم فظنوها قتيلة أو منتحرة
حتى حضر الطبيب ففحص أمرها وقرر أنها ماتت جوعاً
تلك أول مرة سمعت فيها بمثل هذه الميته الشنعاء
في مصر ، وهذا أول يوم سجلت فيه يدُ الدهر في جريدة
مصائبنا ورزايا هذا الشقاء الجديد

لم تمت هذه المسكينة في مفازة منقطعة أو يبداء
مجهل فنفزع في أمرها إلى قضاء الله وقدره كما نفعل في جميع
حوادث الكون التي لا حول لنا فيها ولا حيلة ، بل ماتت
بين سمع الناس وبصرهم ، وفي ملتقى غاديتهم برائحهم ، ولا بد
أنها مرت قبل موتها بكثير من المنازل تطرقها فلم تسمع
محيياً ، ووقفت في طريق كثير من الناس تسألهم المعونة على

أمرها فلم تجد من يمد إليها يده بلقمة واحدة تسد بها
جوعتها ، فما أقسى قلب الانسان ، وما أبعد الرحمة من فؤاده ،
وما أقدره على الوقوف موقف الثبات والصبر أمام مشاهد
البؤس ومواقف الشقاء

لم ذهب هذه البائسة المسكينة إلى جبل المقطم
في ساعتها الاخيرة ؟ لعلها ظنت أن الصخر ألين قلباً من
الانسان فذهبت اليه تبثه شكواها ، أو أن الوحش أقرب
منه رحمة فجاءته تستجديه فضلة طعامه ، وأحسب لو أن
الصخر فهم شكواها لاشكاها ^(١) ولو أن الوحش ألمَّ
بسريرة نفسها لرثى لها وحن عليها ، لاني لا أعرف مخلوقاً
على وجه الارض يستطيع أن يملك نفسه ودموعه أمام
مشهد الجوع وعذابه غير الانسان

ألم يلتق بها أحد في طريقها فيرى صفرة وجهها
وترقرق مدامعها وذبول جسمها فيعلم أنها جائعة فيرحمها !

(١) شكا اليه فأشكاه اي ارضاه وقبل شكواه

ألم يكن لها جار يسمع أنينها في جوف الليل ويرى
 غدوها ورواحها حائرة ملتاعة في طلب القوت فيكفيها أمره !
 أقفرت البلاد من الخبز والقوت فلا يوجد بين
 أفراد الامة جميعها من أصحاب قصورها إلى سكان أكواخها
 رجل واحد يملك رغيغاً واحداً زائداً عن حاجته فيتصدق
 به عليها ؟

اللهم لاهذا ولا ذاك ، فللمال والحمد لله كثير ، والخبز
 أكثر منه ، ومواضع الخلات والحاجات بادية مكشوفة
 يراها الرءاون ، ويسمع صداها السامعون ، ولكن الامة التي
 ألقت ألا تبذل معروفها الا في مواقف المفاخرة والمكاثرة ،
 والتي لا تفهم من معنى الاحسان إلا أنه العُل الثقيل الذي يوضع
 في رقاب الفقراء لاستعبادهم واسترقاقهم ، لا يمكن أن ينشأ
 فيها محسن مخلص يحمل بين جنبيه قلباً رحماً

لقد كان الاحسان في مصر كثيراً في عصر الاكتتابات
 والحفلات ، وفي العهد الذي كانت تسجل فيه حسنات المحسنين

على صفحات الجرائد تسجيلاً يشهده ثلاثة عشر مليوناً
من النفوس ، أما اليوم وقد أصبح كل امرئ موكولاً إلى
نفسه ومسئولاً أمام ربه وضميره أن يتفقد جيرته وأصدقاءه
وذوى رحمه ويتلمس مواضع خلاتهم وحاجاتهم ليسدها
فهام الفقراء يموتون جوعاً بين كُثبان الرمال وفوق شعاف
الجبال من حيث لا راحم ولا معين

لقد كان في استطاعة تلك المرأة المسكينة أن تسرق
رغيفاً تتبّلغ به أو درهما تبتاع به رغيفاً فلم تفعل ، وكان
في استطاعتها أن تعرض عِرضها في تلك السوق التي يعرض
فيها الفتيات الجائعات أعراضهن فلم تفعل ، لأنها امرأة
شريفة تفضل أن تموت بحسرتها ، على أن تعيش بعارها ،
فما أعظم جريمة الامة التي لا يموت فيها جوعاً غير شرفائها
وأعفائها

الآدب الكاذب

كنا وكان الآدب حالا قائمة بالنفس تمنع صاحبها أن يقدم على شر ، أو يحدث نفسه به ، أو يكون عوناً لفاعليه عليه ، فان ساقته اليه شهوة من شهوات النفس ، أو نزوة من نزوات العقل ، وجد في نفسه عند غشيانه من المضض والارتماض ما ينغصه عليه ويكدر صفوه وهنائه ، ثم أصبحنا واذا الآدب صور ورسوم ، وحركات وسكنات ، وإشارات والتفاتات ، لادخل لها في جوهر النفس ، ولا علاقة لها بشعورها ووجدانها ، فأحسن الناس عند الناس أدباً وأكرمهم خلقاً ، وأشرفهم مذهباً ، من يكذب على أن يكون كذبه سائفاً مهذباً ، ومن يخلف الوعد على أن يحسن الاعتذار عن إخلافه ، ومن يبنض الناس جميعاً بقلبه على أن يحبهم جميعاً بلسانه ، ومن يقترف ما شاء من الجرائم

والذنوب على أن يحسن التخلص من نتائجها وآثارها ،
وأفضل من هؤلاء جميعاً عندهم أولئك الذين برعوا في فن
« الآداب العالية » أى فن الرياء والنفاق ، وتفوقوا في استظهار
تلك الصور الجامدة التى تواضع عليها جماعة « الظرفاء » فى التحية
والسلام . واللقاء والفراق ، والزيارة والاستزارة ، والمجاسة
والمنادمة ، وأمثال ذلك مما يرجع العلم به غالباً إلى صغر
النفس وإسفافها ، أكثر مما يرجع إلى أدبها وكمالها ، فكان
الناس لا يستنكرون من السيئة إلا لونها ، فإذا جاءتهم
فى ثوب غير ثوبها أنسوا بها وسكنوا إليها ، ولا يعجبهم من
الحسنة إلا صورتها ، فإذا لم تأتهم فى الصورة التى تعجبهم
وتروقهم عافوها وزهدوا فيها ، أى إنهم يفضلون اليد
الناعمة التى تحمل خنجراً ، على اليد الخشنة التى تحمل بكرة ،
ويوثرون كأس البللور المملوء سماً على كأس الخزف
المملوء ماء زلالاً ، ولقد سمعت بأذن من أخذ يمد لرجل
من أصدقائه من السيئات ما لو وزع على الخلق جميعاً للوث

صحائفهم ، ثم ختم كلامه بقوله : وإني على ذلك أحبه وأجله
لأنه رجل « ظريف » . وأغرب من ذلك كله أنهم وضعوا
قوانين أدبية للمغازلة والمعاورة والمقامرة كأنّ جميع هذه
الأشياء فضائل لاشك فيها ، وكأنّ الرذيلة وحدها هي
الخروج عن تلك القوانين التي وضعت لها ، وما عهدنا
ببعيد بذلك القاضى المصرى الذى أجمع الناس فى مصر منذ
أيام على احتقاره وازدراؤه لالأنه لعب القمار ، بل لالأنه
تلاعب بأوراق اللعب فى أحد أندية القمار . وسموه لصاً
دينثاً ، والقمار لصوصية من أساسه إلى ذروته



أعرف فى هذا البلد رجلين يجمعهما عمل واحد ، ومركز
واحد ، أحدهما خير الناس ، والآخر شر الناس ، وان كان
الناس لا يرون رأبى فيها

أما الأول فهو رجل قد أخذ نفسه منذ نشأته بمطالعة

كتب الأخلاق والآداب ومزاوتها ليله ونهاره فقرأ فيها
فصول الصدق والأمانة والعفة والزهد ، والسماحة والنجدة ،
والمروءة والكرم ، وقصص السحراء والأجواد ، والرحماء
والمؤثرين على أنفسهم ، وافتن بتلك الفضائل افتتاناً شديداً ، ثم
دخل غمار المجتمع بعد ذلك وقد استقر في نفسه أن الناس قد
عرفوا من الأدب مثل ما عرف ، وفهموا من معناه مثل ما فهم ،
وأخذوا منه بمثل الذي أخذ ، فغضب في وجه الأشرار ،
وابتسم في وجه الأخيار ، والأولون أكثر عدداً ، وأعظم
سلطة وجاهاً ، فسمى عند الفريقين شرساً متوحشاً ، وامتدح
إحسان المحسن ، وذم إساءة المسيء ، والمحسنون في الدنيا
قليلون ، فسمى وقحاً بذيثاً حتى بين المحسنين ، وبذل
معروفه للعاجز الخامل ، ومنعه القادر النابه ، فلم يشعر
بمعروفه أحد ، فسمى بخيلاً ، واعتبر الناس بقيمهم الأدبية ،
لا بمقاديرهم الدنيوية ، فلقى الأغنياء والأشراف بمثل
ما يلقى به العامة والدهماء ، فسمى متكبراً ، وقال لمن جاءه

يساومه في ذمته إني أحبك ، ولكنني أحب الحق أكثر منك ، فكثر أعداؤه وقل أصدقاؤه

أما الثاني فأقل سيئاته انه لا يفي بوعده ، ولكنه يحسن الاعتذار عن إخلاف الوعود فلا يسميه أحد مخلفاً ، وما رآه الناس في يوم من أيامه عاطفاً على بأئس أو منكوب ، ولكنه يبكي لمصاب البائسين والمنكوبين ، ويستبكي لهم ، فعد من الأجواد السحباء ، وكثيراً ما أكل أموال اليتامى وأساء الوصاية عليهم ، ولكنه لا يزال يمسح دموعهم ، ويحتضنهم إلى صدره في المجامع والمشاهد ، كأرحم الرحماء وأشفق المشفقين ، فسمى الوصي الرحيم ، ولا يفتأ ليله ونهاره ، ينال من أعراض الناس ويستنزل من أقدارهم ، إلا أنه يخلط جده بالهزل ، ومرارته بالحلاوة ، فلم يعرف الناس عنه شيئاً سوى أنه الماكن الظريف

ذلك هو الأدب الذي أصبح في هذا العصر رأياً عاماً يشترك فيه خاصة الناس وعامتهم ، وعقلاؤهم وجهلاؤهم ، ويعلمه

والدُّ ولدَه والأستاذ تلميذه، ويقتتلون اقتتالا شديداً على
 انتحاله والتجمل به ، كما يقتتلون على أعز الأشياء وأنفسها
 حتى تبدلت الصور ، وانعكست الحقائق ، وأصبح الرجل
 المخلص أخرج الناس بصدقه وإخلاصه صدراً ، وأضلم بهما
 سبيلاً ، لا يدرى أي كذب فيسخط ربه ويرغى الكاذبين ،
 أم يصدق فيرضى نفسه ويسخط الناس أجمعين ، ولا يعلم
 أي هجر هذا العالم إلى عزلة منقطعة يقضى فيها بقية أيام
 حياته غريباً شريداً ، أم يبرز للعيون فيموت هما وكمداً



يجب أن يكون أدب النفس أساس أدب الجوارح ،
 وأن يكون أدب الجوارح تابعاً له وأثراً من آثاره ، فإن
 أبى الناس إلا أن يجعلوا أدب الحركات والسكنات أساس
 صلاتهم وعلائقهم ، وميزان قيمهم وأقدارهم ، فليعترفوا أن
 العالم كله مسرح تمثيلي ، وأنهم لا يؤدون فيه غير وظيفة
 الممثلين الكاذبين —

إيفون الصغيرة^(١)

« مترجمة »

ماتت وكأنها لم تمت ، ليس على وجهها أثر واحد من
آثار الآلام التي قاستها في مرضها ، يحسبها الرائي نائمة نومًا
هادئًا لذيدًا ، ويخيل إليه أنه يسمع صوت أنفاسها المترددة ،
ويرى هبوط صدرها وارتفاعه

أين صفرة الموت ونحوه ، أين آلام النزاع وشدائده ،
أين الغضون التي خلفتها الأوجاع فوق جبينها ، والدوائر
الزرقاء التي رسمتها حول جفניה

(١) هي فتاة صغيرة عثر بها في طفولتها على باب إحدى الكنائس في فرنسا ناطرة
مدرسة قروية وكان شيخاً كبيراً مات جميع أولاده وأحفاده وبقي هو من بعدهم وحيداً
مستوحشاً فألَس بها حين وجدها السأ شديداً وسماها (إيفون الصغيرة) لأنه لم يكن
يعلم من أمر نسبها شيئاً . فأصبحت سلوته الوحيدة في شيخوخته وعى تربيته وتهذيبها
حتى بلغت السابعة من عمرها ، فأصابها مرض لم يمهلهما الا لضع ليال حتى ذهب بها
الى ربها فرثاها احد الشعراء بهذه القطعة

لقد مات كل ذلك بموتها ، فعاد لها رونقها وبهاؤها ،
وأصبحت كأنما قد خلقت الساعة ولماً تنبث الروح
في جسدها

بهذا الوجه الجميل المشرق كانت جالسة منذ أيام
قلائل أمام المدفئة باسممة مطمئنة تلاعب هرتها ، وبهذا
القم الأرجواني القاني كانت تغنى أمام قفص عصفورها
أنشودة السعادة والحياة ، وبهايتين اليدين البيضاءين اللينتين
كانت تقطف أزهار الربيع وتقدمها هدية إلى أبيها الشيخ ،
أما اليوم فقد انقضى ذلك كله لأن حياتها قد انقضت
آخر كلمة نطقت بها قبل موتها « سأموت الساعة
فأنتوني بعصفورى أودعه » فأثوها بقفص عصفورها
وعلقوه بقائم سريرها فظلت تنظر إليه باسممة متطلقة ،
وظل العصفور يلعب ويفرد تغريداً شجياً ، وهو لا يعلم أنه
ينشد فوق رأسها أنشودة الموت

وهنا وقف الشيخ الذى تبنّاها بجانب فراشها واجماً.

حزيناً ، مشرد اللب ، ذاهل العقل ، ومديدته إلى يدها الضعيفة
الواهية التي كانت بالامس عكاز شيخوخته ، وسند حياته ،
فأخذها ووضعها على صدره ، كأنما يريد أن يمد حياتها بتلك
البقية الباقية في قلبه من الحياة لتعيش من بعده ولو ساعة
واحدة حتى لا يراها تموت بين يديه ، وظل على حاله تلك
هنيهة ، ثم التفت فجأة إلى أصدقائه وقال لهم ، ها هي ذى
الحرارة قد بدأت تدب في جسمها شيئاً فشيئاً ، فنظروا إليه
آسفين محزونين ، ثم نكسوا أبصارهم ، وأسبلوا مدامعهم
فظل يدير بينهم عيوناً حائرة ، ويتنقل بنظراته ههنا وههنا ،
كأنما يسألهم المعونة على أمره ، ومن ذا يعين على القدر ،
أو يعترض سهم المنية القاتل

وما هي إلا لحظة حتى شعر أن يدها تجذب يده
فاتنفض وحنا عليها فطوقته بذراعيها الضعيفتين وضمته ضمة
كانت فيها نفسها

إنا لله وإنا إليه راجعون ، ماتت إيفون الصغيرة ،

ماتت الطفلة الوديدة الجميلة ، ماتت الفتاة الرزينة الصابرة ،
 فى سبيل الله نجم تلاًلاً فى سماء الحياة لحظة ثم هوى ، وغصن
 أزهر فى روض المنى ساعة ثم ذوى ، وقدح من البللور لم تكد
 تلمسه الشفاه حتى انكسر ، وعقد من اللؤلؤ لم ينتظم
 فى سمطه حتى انتثر

هذه الغرف التى طالما أنارتها بابتساماتها حتى فى الساعة
 التى تختفى فيها جميع الابتسامات ، والحديقة التى كانت
 تقضى فيها كل يوم بضع ساعات من ليها أو نهارها تلاعب
 أطيارها ، وتقطف أزهارها ، وتتعهد أشجارها ، والمماشى
 التى كانت تخطر على حصبائها فيصيرها شعاع خديها ياقوتاً
 ومرجاناً ، فدخلت جميعها منها ، وهيات أن يسعدها الحظ
 برؤيتها بعد اليوم

كانت إيفون جميلة الخلق طيبة النفس نقية الضمير
 تحب الأحياء جميعهم ناطقهم وصامتهم ، فلا تبذل من ودها
 لهرتها المريضة أقل مما تبذل منه لأبيها الشيخ العجوز ،

لا تتوحد إلى الشيوخ الفانين أصدقاء أبيها وسجرائه
 كثر مما تتوحد إلى وافد غريب يهبط قريتها للمرة الأولى
 في حياته ، وما علموها قط اختلفت مع فتى أو فتاة من
 التلاميذ مدرستها ، لأنها كانت تستهوى الطيب منهم بلطفها
 أدبها ، والخبث بعفوها وصفحها ، وهي وإن لم تكن
 تعلم أنها لقيطة ولكن من كان ينظر في عينيها ويرى ذبولها
 وانكسارها ولمعانها الذي يشبه لمعان الدمع الرقراق يخيل
 إليه أنها قد ألهمت ما كتبه الناس عنها ، وأنها كانت تعلم
 أنها لا تعيش في بيت أبيها بوصاية جدها كما كانوا يقولون
 لها ، بل في بيت محسن كريم لا يعرف من تاريخها ولا من أمر
 ميلادها شيئاً ، وكانت لا تزال تتراءى بين شفيتها ابتسامة
 حلوة هي الرقبة التي كانت تفتح بها أقفال القلوب ثم تنزل
 فيما تشاء منها المنزلة التي تريدها ، ولم تكن ابتسامتها
 بتسامة التصنع والتكلف التي يرثها أكثر الفتيات عن

أمهاتهن ، بل ابتسامة الحب والإخلاص والحنو والعطف
لذلك عجل الموت إليها لأن سكان السماء لا يستطيعون
أن يعيشوا طويلاً على ظهر الأرض

دقت أجراس الكنيسة تنمائها فلم تسمعها ، ولو
سمعتها لاهتزت لها في سريرها شوقاً ولهفة كما كان شأنها
في حياتها ، ثم جاءت ساعة الدفن فخلوها على أيديهم ومشوا
بها حتى وصلوا إلى الكنيسة فوضعوا نعشها في ركن من
أركانها ثم اجتمعوا حولها يودعونها الوداع الأخير ، فبكائها
الشيخوخ الذين كانوا يحبونها ويأمنون بها ، والفتيان
والفتيات من تلاميذ مدرستها ، والنساء اللواتي كن يحبنها
من أجل حبها أبناءهن ، وبكائها أكثر من هؤلاء جميعاً
ذلك الشيخ المسكين لأنها كانت كل دنياه نخسرها
في ساعة واحدة

وظل كثير من الوقوف يردد ذكراها ، فيقول أحدهم :
طالما رأيته في هذا الركن نفسه جالسة وحدها ويدها

الكتاب المقدس تتلو آياته ، ويقول الآخر : لقد دخلتُ
 الكنيسة ليلة فرأتها هائئة وحدها في الظلام الخالك تحت
 هذه الاقنية فمجبت لصلاحها وتقواها ، وتقول امرأة :
 لقد عثرت ابنتي يوماً من الأيام في منصرفها من مدرستها
 ببعض الاحجار عثرةً برّحت بها فاحتملتها على ظهرها حتى
 جاءت بها إلى المنزل ، وتقول أخرى : لقد كنت أراها تمر
 كل يوم بجارتنا فلانة المسكينة فتعطيها رغيفاً من طعامها
 ثم تستمر أدراجها إلى مدرستها

وهكذا ظل كل منهم يذكر ما يعرف عنها حتى حانت
 ساعة الدفن فعلت الأصوات بالبكاء ثم غيبوها في قبرها
 وحشوا عليها التراب ، وكان الليل قد أظلم المكان بمخاضيه
 وساد فيه سكون موحش رهيب فانصرفوا مطرقين
 واجمين يقولون

« وارجتماه لها لقد خرجت من الدنيا غريبة كما وفدت

اليها »

الملاعب الهزلية

كنت آليت على نفسي منذ أعلنت هذه الحرب
 قبجها الله وقبح كل ما تأتى به ألا أكتب كلمة في صحيفة
 سيارة في شأن من الشؤون العامة خيرها وشرها
 حتى ينقضى أجلها وأن أترك هذا القلم هادئاً مطمئناً
 في مرقد مدرجاً في ذلك الكفن الأبيض الرقيق المنسوج
 من خيط العنكبوت حتى يأتى ذلك اليوم الذى يستطيع فيه
 أن ينبعث كما يريد لا كما يُراد منه ، ولكن نازلاً نزل
 بهذا المجتمع المصرى منذ عام أو عامين لم أحفل به في مبدئه
 ولم ألق له بالاً وعدّته في النوازل الصغيرة المترددة التى
 لا تلبث غيومها أن تنعقد في سماء البلد حتى تهب عليها
 نسمة من نسيمات الروح الإلهى فتنتشمع ، ولكن ها قد

مضى العام والعامان وهو باق فى مكانه لا يتحول ولا
يتحلحل بل تزداد قدمه على الأيام ثباتاً ورسوخاً ، وأحسبه
سيبقى فى مستقبل أيامه أضعاف ما بقى فى ماضيها إن لم نُثر
عليه معشر الكتاب حرباً شعواء تهز جذرانه هزاً ، وتدكه
دكا ، وتلحق أعاليه بأسافله

لذلك كتبت هذه الكلمة غير مبال بتلك الالية
التي كنت آليتها ، فلعل أصدقائى من أفاضل الكتاب
يساعدوننى فى هذا الشأن الذى ان عجزنا عنه اليوم فما نحن
بقادرين عليه غداً

نزلت بالأمة المصرية نازلةً تلك المقاذر العامة التي
يسمونها الملاعب الهزلية ، وما هى فى شىء من الهزل ولا
الجد ، ولا علاقة لها بالتمثيل والتصوير ، ولا بأى فن من
الفنون الأدبية ، فأقبل عليها الناس اقبالا عظيماً ، وأُغرموا
بها غراماً شديداً ، فليقبلوا عليها ما شاءوا ، وليفتتنوا بها
ما أرادوا ، ولكن فريقاً واحداً من الأمة هو الذى نضن

به على تلك المواطن الساقطة أن تطأها قدمه ، أو تظلل
سماؤها رأسه ، لأننا نضن به على كل منقصة في العالم تزدري
به ، أو تنال من كرامته

ذلك الفريق المضنون به وبكرامته هو أنتم معشر
الطلبة المصريين اخوتنا وأبناءنا ، وعنوان مجدنا وشرفنا ،
وصورة وجودنا وحياتنا ، ومناط أمانينا وآمالنا ، فائذوا
لكاتب من كتابكم ، وصديق من أصدقائكم ، أن
يحادثكم قليلاً في هذا الشأن كما يحادث الأب ولده ، أو
الأخ أخاه ، لا قاسياً ولا متجبراً ، بل عاتباً متلطفاً ، وأمله
عظيم أن ينتهي الحديث بينه وبينكم على ما يجب لكم ، وما
يعتقد أنكم تحبون لانفسكم

الحق أقول إن الحياء يكاد يعقد لسانى بين أيديكم فلا
أدرى كيف أحدثكم ، ولا ماذا أقول لكم
أأعظكم في أمر أنتم تعلمون من نتائجه وآثاره وسوء
عقباه مثل ما أعلم ! أو أدعوكم الى اجتناب سيئة لأحسب

أن بين كباركم وصغاركم من يجهل أنها السيئة العظمى التي لم تُرزأ الأمة بمثلها في حاضر تاريخها أو ماضيه ! أو أقول لكم إن هذه الأماكن التي تطوها أقدامكم إنما هي مقابر المجد والشرف ومدافن الفضائل والأخلاق ومصارع الأعراض والحرمان وهل غاب ذلك عن علم أحد منكم فأعلمكم منه ما لا تعلمون !

لا يجهل أحد منكم شيئاً مما أقول ، ولكنه الشباب يفرى الضعيف العاجز عن احتمال سلطانه وسيطرته بالاقدام على تلك المخاطر المهلكة ، فيمضى اليها قُدماً لا يجهل مكان الخطر منها ، ولكنه يعجز عن مغالبة نفسه ومشاورتها حتى يتردى فيها ، وربما كان هذا هو كل الفرق بيني وبينكم اننى لا أرى في هذه المجامع التي تفتنون بها وتهافتون عليها حسنة تقتفر سيئة ، أو جمالاً يفي بقبح ، أو خيراً يعزى عن شر ، فتمثيلها سخيف بارد لا يستطيع من أوتي حظاً قليلاً من سلامة الذوق أن يصبر نفسه ساعة واحدة على النظر

اليه ، ومَلَحَّهَا ثَقِيلَةً مستبشعة لو نطق بها ناطق في مجتمع مز
المجتمعات الخاصة ثم قلب نظره في وجوه الجالسين حوله
لرأى في ابتسامات السخرية المترققة في شفاههم ما يذيه
حياء وخجلا ، وأناشيد هاسوقية مبتذلة في موضوعها وصورة
أدائها لا يطرِب لمثلها الا أصحاب الاذواق العامة الخشنة
الذين يطربون لنشيد الازكار وطبول الزار وتعداد
النأحات وضجيج الباعة في الاسواق ، فإذا بقى فيها من
وجوه الحسن بعد ذلك ؟

بقى فيها الهزء والسخرية بالطبقات الشريفة العاملة
في الامة كالفلّاحين آبائنا وأولياء نعمتنا ، والشيخوخة
ديننا وأئمة لغتنا ، والمحامين والاطباء والمعلمين أفاضل الامة
وعيونها ، وغيرهم من طبقات الامة كالصناع والعمال
والخدم والاكّارين وأمثالهم

بل بقى ماهو شر من هذا جميعه ، وهو تمثيل الشهوات
البدنية والنفسية بجميع ألوانها وضروبها على مشهد من

رجالنا ونسائنا وأطفالنا، وتصويرها بتلك الصورة القبيحة
التي ترخى على مثلها الستور، وتقام من حولها الدعائم
والجدران

فلو أن غريباً وفد إلى هذا البلد وهو لا يعلم من شأنه
شيئاً فذهب إلى مكان من تلك الأماكن ليرى في مرآته
صورة الامة ممثلة في مسارحها الوطنية لقضى عليها للنظرة
الاولى بأنها أخط الامم وأدناها

ذلك الى ما يسمعه فيها من ألفاظ السب والشتم وجل
الفحش والهجر التي لا يطرق أذنه مثلها في موقف من
مواقف حياته، أو مشهد من مشاهدنا، الا اذا قدر له أن
يتغلغل بنفسه يوما من الايام في تلك الاحياء العامية الساقطة
حتى يصل إلى « عرب اليسار » أو « عيش الترجمان »
فيسمعها هناك في مشاجرات القرايين ومهاترات الشحاذين
ولقد قال لي أحد الاصدقاء الظرفاء مرة إن شتائم (أم شولح).

قد انتقلت الى بيتي ولا أعرف كيف انتقلت اليه ، فاني أسمع
الكثير منها منذ أيام يتردد في أفواه الاطفال هازلين ،
وفي أفواه الخدم جادّين

أُتدرون أيها الأصدقاء من هم أولئك الذين يسمون
أنفسهم ممثلين ، ويسمون ما يهذون به في مسارحهم روايات ،
والذين يدعونكم معشر المتعلمين الراقين الى حضور مجامعهم
باسم الآداب والفنون ؟

لو أن جماعةً من الزامرين وآخرين من الطباليين وآخرين
من القرادين وجماعات غيرهم من الرمالين والمداحين والصفاعين
والبهلوانية والحواة والرقاة وبقية السائلين المستجدين الذين
يمرون بأبواب المنازل كل يوم ضاحجين صارخين فلا نُلقَى
لهم بالاً ولا نعيدهم أذنًا اتفقوا فيما بينهم على أن يكونوا
جماعة واحدة تعمل يدًا واحدة في مكان واحد لكانوا هم
بعينهم جوق كشكش والبربرى وشرفنطح لافرق بينهم
وبينهم سوى أن أولئك يقفون بأبوابنا ضارعين مبتهلين

يقنعون باللقمة ، ويجتزئون بالشربة ، وهؤلاء يابون إلا أن
نقف على أبوابهم ونعلق بأستارها فلا يفتح لنا حجابهم إلا
إذا دفعنا الأتاوة المضروبة علينا

والطف كلمة سمعتها في هذا الشأن قول بعض المفكرين
(كان الشر مفرقاً في أنحاء البلد فجمعه كشكش في مكان واحد)
فهل تسمح لكم نفوسكم أيها الأصدقاء وأنتم عيون
الأمة اليقظة ، وعقولها المفكرة ، أن تنخدعوا بالأعيب
هؤلاء الخبيثاء المحتالين فترفعوهم بأيديكم الى هذه المرتبة
العالية التي لم يخلقوا لها ، ولم يمتوا إليها بسبب من أسباب
العلم أو الذكاء أو الشرف أو الخلق ، وهام أولاء نوابغ الممثلين
في أمتكم أشقياء بأئسسون لا يكادون يجدون بين ظهرانيكم
ما يقيمون به أو دَ عيشهم ، أو يعينهم على ما هم بسبيله من
خدمة الفن والقيام عليه

من الذي يذهب لمشاهدة التمثيل الجدى الشريف
في مسارح أبيض ورشدى وعكاشة وأمثالهم ان كنتم أنتم

لا تذهبون اليها ! ومن هو أولى بها من بعدكم ان قطعتم
صلتكم بها !

أعجبكم ألا يرى الزائر لتلك المسارح الشريفة حين
يزورها غير العامة والسوقة والأُميين والجاهلين فاذا قش
عنكم في مكان آخر غيرها رآكم مزدحمين في مراقص
كشكش والبربرى وأمثالهما راضين عن مقامكم فيها ،
مغتبطين بسفاسفها وهذياناتها !

ألا تخشون أن يستنتج مستنتج منهم بعد ذلك وقد
راعه هذان المشهدان الغريبان — مشهدكم في الاجواق
الهزلية الساقطة ، ومشهد العامة والسوقة في الاجواق الجدية
الشريفة — ان الامة المصرية أمة غريبة الشأن يفسدها العلم
ويصلحها الجهل ، أو أن يتطرف متطرف منهم في رأيه
فيقول : ليت الامة عاشت جاهلة عمياء ، موفوراً لها حظها
من الاخلاق والآداب ، فذلك خير لها من علم يهوى بها
في مهواة الشقاء والعار

لقد رأيت في حياتي صنوف الحيل والكيد وضروب
السماجة والوقاحة فلم أر بين المحتالين والمتوقحين من هو أعظم
كيداً ولا أسمح وجهاً من هؤلاء القوم

إنهم يحاولون دائماً أن يلبسوا مفاستهم وشروهم
ثوب الفضيلة والجد ، وهو وإن كان ثوباً شفافاً نيم عما وراءه إلا
أنه يكفيهم للذود عن أنفسهم في موقف الجدل والمناظرة
كما يكفي البرقع الشفاف المرأة المتهتكة للدخول في سلك
المخدرات المتحجبات

يمثلون الفلاح أقبح تمثيل ، ولا يتركون مفسدة من المفاست
ولا رذيلة من الرذائل إلا ويلصقونها به ، وينشدون مختلف
الاناشيد في السخرية بشكله ، والهزء بصفاته وأعماله ، ثم
لا يخرجون أن يقولوا بعد ذلك في بعض تلك الاناشيد
(مادام بلادنا زراعية ، حبوا الفلاح ان كتموا تحبوا وطنكم)
وينتقدون في رواياتهم فساد الرجال وخلاعة النساء ،
وينقمون على المصرى تبديد أمواله في سبيل شهواته ، وليس

للنساء فى مسارحهم عمل سوى إغراء الشبان وإغوائهم
وإفساد عقولهم وابتزاز أموالهم فى الساعة التى تمثل فيها
هذه الروايات وتلقى هذه الأقوال

ويهدمون اللغة العربية هدمًا بهذه اللهجة العامية
الساقطة التى يكتبون بها رواياتهم، وينظمون بها أناشيدهم،
وينشرونها فى كل مكان، ويفسدون بها الملكات اللغوية
فى أذهان المتعلمين، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم أنصار اللغة
العربية وحماها فيقولون بتلك اللهجة العامية الساقطة (مالها
لغتنا العربية، آل همجية، يادى المصيبة يادى العار، فشر
دى لغة المدنية، اتمسكوا بها صغار وكبار)

ولا يستحيون أن يجمعوا فى نشيد واحد من رواية
واحدة بين قولهم (أبيع هدومى عشان بوسه، من خدك
القشطه ياملبن، ياحلوة زى البسبوسة، يامهلبية تمام
واحسن) وبين قولهم (مصر يحميك ربك، ماتشوفى الا
أيام سعدك) أى أنهم يصفعون الأمة على وجهها هذه.

الصفعات المؤلمة ثم يحاولون أن يترضوها بعد ذلك بترديد كلمات « الوطنية » و « حب وطنك » و « مت فى سبيل الأوطان » وأمثالها من الكلمات العذبة الجميلة التى لا معنى لها فى أفواههم إلا أنهم يعتقدون ان المصريين قد بلغوا من الغفلة والبله مبلغاً لا يبلغه اطفال المكاتب ولا سكان المارستانات لا أرى لكم معشر الطلبة المصريين امام هذه النازلة العظمى التى نزلت بنا إلا ان ينتدب فريق من عقلائكم نفسه لنصيحة إخوانه بالامتناع عن الذهاب إلى تلك الملاعب وشرح مضارها وسيئاتها لهم . فان امتناع فريق منك يؤثر على فريق آخر ، وهكذا حتى يصبح فى عرفكم جميعاً ان الدخول إلى تلك الأماكن عار يخجل مرتكبه من الظهور به بين أصدقائه ومعارفه .

نحن فى حالة نحتاج فيها إلى أن يعلم الناس عنا فى كل مكان أننا أمة أخلاق وآداب ، وأن فى نفوس أفرادنا من الصفات والمزايا ما يرفعنا إلى مصاف الامم العظيمة ، ومقياسُ

عظمة الامم عند العالم انما هو بصفاتها ومزاياها قبل أن يكون بأى شىء غير ذلك ، فان فات آباءنا أن يورثونا خلق العظمة والاباء فى عهدهم فلنتخلق به نحن لنورثه أبناءنا من بعدنا

انكم لاتذهبون فى الحقيقة إلى هذه الأماكن وحدكم ، بل يذهب اليها معكم اخوانكم وأخواتكم ، وبقية أفراد أسركم ، لانكم تقصون عليهم عند عودتكم منها ماشاهدتم ، وتروون لهم ماسمعتهم ، فكان سكان البلد جميعاً رجالاً ونساء كباراً وصغاراً يجتمعون فى هذه البؤر الفاسدة فى ساعة واحدة ، فهل يستطيع متصور أن يتصور خطراً على الامة وعلى أخلاقها وآدابها أعظم من هذا الخطر

انى لاأدعوكم إلى الامتناع عن الامام بهذه المقادر العامة من أجل أنفسكم فقط ، بل من أجل اخوتكم وأخواتكم اليوم ، ومن أجل أبنائكم وأحفادكم غداً ، ومن أجل مستقبل الامة المصرية كلها الذى أعتقد أنه أمانة فى أيديكم ،

ووديعة موكولة الى كرم نفوسكم ، وشرف ضمائركم
 إهدموا هذه الاماكن هدماً بالاعراض عنها واحتقارها ،
 ثم قفوا بعد ذلك على أطلالها البالية هاتفين صائحين صياح
 لظافر المنتصر قائلين . ها قد نجت الامة من خطر عظيم ،
 وها نحن قد قمنا جميعاً بالواجب علينا لوطننا



الشيخ على يوسف

هكذا تقوم القيامة ، وهكذا ينفخ في الصور ، وهكذا
تطوى السماء طى السجل للكتاب

أفما بين يوم وليلة يصبح هذا الرجل الذى كان ملء
الافتدة والصدور ، وملء الاسماع والابصار ، وملء الارحاء
والاجواء ، جثة ضاوية نحيلة مدرجة فى كفن ملحدة فى
مهوى من باطن الارض سحيق

ما أعظم الفرق بين الحياة والموت ! تغرب الشمس فلا
تلبث أن تطلع من مشرقها ، وتتراكم السحب فوقها فلا
تلبث أن تنفرج عنها حينما تهب عليها الرياح الباردة ، وتعرى
الاشجار عن أوراقها ثم تعود إلى جمالها مخضرة نضرة حينما
تهب عليها نسيمات الربيع ، وينام الاحياء فى مضاجعهم حتى
إذا طلع عليهم الكوكب النهارى وعبثت أشعته بأهداب

جفونهم قاموا من مراقدهم وذهبوا في سباهم التي خلقوا لها ،
ويموت الميت فلا ينتظره منتظر ، ولا يؤمل أوبته آمل ؛
فكان ما صار إليه العدم الذي لم يسبقه وجود

اللهم إنا تعلم أن الموت غاية كل حي ، وأن مقاديرك
التي تجريها بين عبادك ليست سهاماً طائشة ، ولا نياقاً عشواء .
وأن ورود الحياة لا يمكن أن تنبت إلا في التربة التي نبتت
فيها أشواك الموت ، ولكننا لانستطيع أن نملك عيوننا من
البكاء ولا قلوبنا من الجزع ، إذا فارقنا عزيز علينا ، لان ساحة
الصبر التي منحتنا ، أضيق من أن تسع نازلة البلاء التي ابتليتنا
فاغفر اللهم لنا جزعنا وبكاءنا على الهلكي والذاهبين

اللهم انك تعلم انا نسير من حياتنا هذه في صحراء محرقة
لانجد فيها ظلاً نستظل به ، ولا أكمة ناوى إليها ، وأن
الصديق الذي نعثر به في طريق حياتنا هو بمنزلة الدوحة
الخضراء التي تنتهي إليها في تلك الصحراء بعد الأين
والكلال وطول السير والسرى فنترامى في ظلالها الوارفة

هاتين مغتبطين ، فاذا هبت ريح عاصفة على تلك الدوحة
فاقتلعتهما من جذورها وطارت بها في جو السماء وأصبحنا من
بعدها ضاحين بارزين فانا لانجد بدءاً من البكاء والجزع ، لأن
من الشقاء مالا يستطيع احتماله . ولا يطاق تجرع كأسه

لقد كان هذا الرجل الغراء الباقي لنا عن كل ذاهب ،
والنجم المتلألئ الذي كنا نتنوره من حين إلى حين في هذه
السماء المظلمة المدلهمة المقفرة من الكواكب والنجوم ،
والدوحة الخضراء التي كنا نلوذ بظلها من لفحات هذه
الحياة وزفرائها ، فنحن إن بكيناه فانما نبكي الامل الذاهب ،
والسعادة الراحلة ، والحياة الطيبة ، ومن هو أولى بالتفجع
وبالبكاء من سعادتنا وآمالنا !

ما كنا نرجو لهذه الامة غير هذين الرجلين ، ميت
الامس الشيخ محمد عبده ، وميت اليوم الشيخ على يوسف
فقد كانا لها طودين شائخين رابضين على أكنافها ، يمسكها
الاول أن تزل بها مزلق المدينة الخالصة فيذهب دينها ،

ويمسكها الثانى أن تطير بها أحلام السياسة الكاذبة فتذهب
جامعتها ، واليوم لانرجو لها من بعدها أحداً ، فويل للامة
فى دينها ، وويل لها فى جامعها

العلماء والخطباء والكتاب فى هذه الامة كثير، ولكن

الرجال قليل

إنما ينفع الامة ويضطلع بخطوبها ويحمل اعباءها على
عاتقه الرجل الذى يشعر من نفسه بأنه ينزل منها منزلة رئيس
الاسرة من أسرته التى يعلم أنه مأخوذ بالقيام عليها ، والسعى
لها ، فيقوم لها بكل ماتريد ؛ ويسمى لها سعى الكادح المجد ،
ويرحم صغيرها ، ويحنو على كبيرها ، ويحتمل مغارمها ، ويغتفر
عبث أطفالها ، وجهل شيوخها ، ويرى لها فى كل شأن من
شؤونها خيراً مما ترى لنفسها ، أرضاها ذلك أم أغضبها ، من
حيث لا يمين عليها بذلك ، ولا يطلب عندها جزاء ولا أجراً ،
بل من حيث لا تعلم ما يلاقى بينه وبين نفسه من آلام الحياة ،
وما يعالج من شدائدّها فى سبيلها

وكذلك كان شأن الشيخ على يوسف في أمته ، فقدمات بموته آخر من بقي لها من الرجال

لقد كان الذين يعرفونه أقل من الذين يجهلونه ، لان الذين ينظرون ببصائرهم أقل من الذين ينظرون بأبصارهم ، ولأن الحقيقة الكامنة في سويداء قلبه كانت أعنى مكانا ، وأدق مسلكا ، من أن تتناولها النظرة الطائرة ، ولانه كان مخلصاً متحنناً يعمل في سره أكثر مما يعمل في علانيته ، ثم لا يدل بنفسه في كلتا الحالتين على نفسه

رأيت في حادثة الأزهر في تلك الايام التي كان يظن فيها كثير من الناس أنه حرب على الأزهر والأزهريين يقضى كثيراً من ليلاته متردداً على أبواب القائمين بالامر ضارعا اليهم أن ينيلوا هؤلاء القوم مطالبهم أو بعض مطالبهم قائلاً عنهم ما كان يقوله النبي صلى الله عليه وسلم عن فئة حنين « اللهم أن تهلك هذه الفئة فلن تعبد بعد اليوم على ظهر الارض أبداً » فلا يقف في سبيله الا حماقة أولئك

الذين كان يظن هؤلاء المساكين أنهم أصدقاؤهم وهم أعدى أعدائهم

ورأيته يضم إلى كنفه كثيراً من أصدقائه الذين نبا بهم الدهر بعد سقوط دولة عبد الحميد وتذكر لهم الناس جميعاً خصوصاً أولئك الذين كانوا يزدلفون إليهم أيام إقبالهم ، وتمرغون وجوههم على أعتاب قصورهم ، وكان يلاقى في سبيل ذلك من عتب العاتبين عليه ولوم اللامنين له مالا يستطاع احتماله ، فلم يبال بشيء من ذلك

ورأيت كثيراً من أعدائه الذين كانوا في بعض أيام حياتهم حرباً عليه وشقاء له يعودون إلى حظيرته واحداً بعد آخر يستغفرونه فيجلس إليهم ويتحدث معهم حديث المودة والإخاء كأنما كانوا معه على ميعاد

وما رأيته في يوم من أيام حياته حاقداً ولا واجداً ولا منتقماً ولا طالباً بثأر ولا ذائداً عن نفسه إلا في الساعة التي يعلم فيها أن قد جد الجد وأن قد أصبح عرضه وشرفه على

خطر ، ولم أر سائلا دخل إليه يشكو حاجة من الحاج صادقا
كان فيها أم كاذباً ويسأله المعونة عليها من ماله أو جاهه الا
أعانه عليها ما وجد إلى ذلك سبيلا ، رحمة وأشفاقاً ، لارياء
ونفاقاً ، وكان يرى رأى ويرى الناس جميعاً غيره فلا يثنيه
عنه ثان حتى يتحدر ستر الغيب عن وجه المستقبل فاذا هو
مصيب والناس جميعاً مخطئون

ففي سبيل الله يا على ما فقدنا بفقدك ، وفي ذمة الله وجواره
تلك الروح الطيبة الطاهرة التي عاشت ما عاشت في هذه
الدنيا سرّاً كامناً بين أحناء ضلوعك لا يكتننها ولا يستشف
باطنها إلا قليل من الناس ، فما رآها الناس جميعاً رأى العين
الا وهي طائفة في جو السماء إلى ربها ، وكذلك شأن هذه
الأمة البائسة المحدودة ، لا ترى رجالها ، ولا تعرف مكانهم ،
ولا تشعر بعظمتهم ، الا وهم ذاهبون الى قبورهم ، حيث تنقطع
الصلة بينها وبينهم ، فثلها ومثلهم كمثل صاحب الدار الذي
يجهل أن في أرضها كنزاً مخبوءاً حتى اذا باعها ممن يستخرج

ذلك الكنز منها جلس إلى ظل حائطها يبكي بكاء البائس
المحزون

لقد كنت يا على مثل الحقيقة ينتفع الناس بوجودها ولا
يفهمونها ، بل كنت أفضل من الحقيقة ، لان الحقيقة يخدمها
أعداؤها وأصدقاؤها ، أما أنت فكنت تخدم أصدقاءك
وأعداءك ، أما الاولون فلائك كنت تحسن إليهم بجاهك
أو بمالك أو برأيك ، وأما الآخرون فقد كانوا يقتاتون من
تلك القطرات من الدماء التي كانوا يستقطرونها من عرضك
وشرفك ، فويل للفريقين معاً من بعدك ، وكنت القطب
الذى تدور حوله رحي الأقلام فى هذا البلد ، فقد كانت
وظيفة الكتاب أن يشرحوا آراءك أو يفسروا كلماتك
أو يكتنوها مقاصدك أو يوافقوك أو يخالفوك أو يمدحوك
أو يذموك ، فإن كتبوا فى شأن من الشؤون غير هذا فترؤوا
واستبردوا ، فواضيعة الأقلام وما أضيق مذاهب الكتاب

بعد رحيلك ، وكنت العصمة التي تعتمدها الامة في مواقف
 بؤسها وشقائها ، ومواطن خطوبها وكروبها ، وما أحسب
 إلا أن الدهر مدخر لها من ذلك في مستقبل أيامها أكثر مما
 ادخر لها في ماضيها ، فما أكثر شقاءها وبلاءها بعد اليوم
 أيها الراحل الكريم : لقد كنت أرجو أن أجد بين
 جنبي بقية من الصبر أغالب بها هذا الحزن الذي أعالجه فيك
 حتى يبلى على مدى الأيام كما يبلى الكفن لولا قدرٌ أبعدني
 عن موطنك في آخر أيام حياتك فأحرمني جلسةً أجلسها
 بجانب سريرك أسمع فيها آخر كلمة من كلماتك ، وأرى آخر
 نظرة من نظراتك ، وحال بيني وبين خطوة أخطوها تحت
 نعشك أجزيك فيها ببعض ما خطوت لي في حياتك من
 الخطوات الواسعات ، ووقفه أقفها عند قبرك ساعة دفنك
 أذرف فيها على تربتك أول دمة يذرفها الباكون عليك ،
 فلن بكيت موتك يوماً فسا بكى حرمانى وداعك أياماً طوالاً
 حتى يجمع الله بيني وبينك

العظمة

ان رأيت شاعراً من الشعراء ، أو عالماً من العلماء ، أو نبيلاً
 في قومه ، أو داعياً في أمته ، قد انقسم الناس في النظر اليه
 وفي تقدير منزلته انقساماً عظيماً ، وانفرجت مسافة الخلف بينهم
 في شأنه ، فافتتن بحبه قوم حتى رفعوه إلى رتبة الملك ، ودان
 بيفضه آخرون حتى هبطوا به الى منزلة الشيطان ، فاعلم انه
 رجل عظيم

العظمة أمر وراء العلم والشعر ، والامارة والورارة ،
 والثروة والجاه ، فالعلماء والشعراء والنبلاء كثيرون ، والعظماء
 منهم قليلون ، وانما هي قوة روحية موهوبة غير مكتسبة
 تملأ نفس صاحبها شعوراً بأنه رجل غريب في نفسه ومزاج
 عقله ونزعات أفكاره وأساليب تفكيره غير مطبوع على
 غرار الرجال ، ولا مقدود على مثاهم ، ولا داخل في كلياتهم

كلياتهم العامة ، فاذا نزلت نفسه من نفسه هذه المتزلة أصبح لا ينظر إلى شيء من الأشياء بعين غير عينه ، ولا يسمع بأذن غير أذنه ، ولا يمشى في طريق غير الطريق التي مهدها يده لنفسه ، ولا يجعل لعقل من العقول مهما عظم شأنه وشأن صاحبه سلطانا عليه في رأى أو فكر أو مشايعة لمذهب أو مناصبة لطريقة ، بل يرى لشدة ثقته بنفسه وعلمه بضعف ثقة الناس بنفوسهم أن حقاً على الناس جميعاً أن يستقيدوا له ، وينزلوا على حكمه ، ويترسوموا مواقع أقدامه في مذاهبه ومراميه ، فترى جميع أعماله وآثاره غريبة نادرة بين آثار الناس وأعمالهم ، تبهر العيون ، وتدهش الانظار ، وتملأ القلوب هيبة وروعة ، فان كان شاعراً كان مبتكراً في معانيه أو طريقته ، أو كاتباً أخذ على النفوس مشاعرَها وأهواءَها ، أو فقيهاً هدم من المذاهب قديماً وبنى جديداً ، أو ملكاً شغل من صفحات التاريخ ما لم يشغله ملك سواه ، أو وزيراً أساس أمته بسياسة جديدة لاعهد لهم بمثلها من قبل ، أو قائداً ضرب

الضربة البكر التي ترنّ في مسمع الجوزاء

تلك هي العظمة ، وهذا هو الرجل ، ومن كان هذا شأنه كان فتنة الناس في خلواتهم ومجتمعاتهم ، ومعتراك أنظارهم وأفهامهم ، ومثار الخلف والشقاق بينهم في استكناؤه أمرد ، وتقدير منزلته ، فيعجب به الذين فطروا على الإعجاب بكل غريب ، والافتتان بكل جديد ، حتى ينتقل بهم الإعجاب به الى الافتتان بأقواله وأفعاله ، وحركاته وسكناته ، والاغراق في حبه ، والمشايعه له ، والسير بمجائبه وغرائبه في كل صقع وناد ، فيقع ذلك من نفوس مناظريه وحاسديه والمتمردين على عبقريته ونبوغه موقعاً غير جميل ، فلا يجدون لهم بداً من مقابلة الاغراق في حبه ، بالاغراق في بغضه ، على قاعدة المشادة والمعادة ، وهناك تحتدم المعركة الهائلة بين أنصاره وخصومه ، فيهاجه هؤلاء يحاولون استلاب عظمته منه ، ويناضل عنه أولئك يريدون استبقاءها في يده ، وهو واقف بينهم يدير أنظاره فيهم هائناً مقتبظاً ، لا يحزن ولا يبتئس ، لانه يعلم أن

جميع هذه الأصوات الصارخة الصاخبة حوله إنما هي أبواق
شهرته وعظمته

لأريد أن أقول إن الرجل العظيم مصيب في كل ما يرى
وما يفعل ، وما ينتهج لنفسه وللناس من المناهج والخطط ، فربما
كان من هو أضعف منه قوة ، وأخمل ذكراً ، أسد منه رأياً ،
وأصدق نظراً ، وإنما أريد أن أقول إن أحداً من الناس لا
يستطيع أن يشغل أقلام الكتاب ، وعقول المفكرين ، والسنة
الناطقين ، وقلوب المحبين والمبغضين ، إلا الرجل العظيم
أحب علياً قوم حتى كفروا بحبه ، وأبغضه آخرون حتى
كفروا ببغضه ، وسمى بعض الناس أبا بكر وعمر شيخي
المسلمين ، وأنكر بعضهم صحبتها وإخلاصهما ، وعاش
محي الدين بن العربي بين فئة تراد قطب الأولياء ، وأخرى تراه
شيخ الملحدين ، واغتبط فريق من المسلمين بآبائهم وشهدوا
فيلسوف الاسلام ، وتقم عليه فريق فملأوا وجهه بصاقاً
في المسجد الجامع ، وسمى قوم صاحب كتاب الاحياء حجة

الاسلام، ومزق آخرون كتابه ونثروه في مهاب الرياح ،
وعاش المعري بين رضا الراضين عنه ، ونقمة الناقين عليه ،
يلثم الاولون مواطئ نعاله ، ويسحبه الآخرون على وجهه
في الطرقات العامة ، وشرب سقراط كأس السم بين أفواه
باسمة شماته به ، وعيون دامعة حزناً عليه ، وجرت الاقلام
بمدح المتنبي تارة فاذا هو سيد الشعراء ، وبذمه أخرى فاذا
هو أكبر المتكفين ، ورفع قوم شكسبير الى مرتبة الكمال
الانسانى ، فقالوا نابغة الدهر . وهبط به آخرون إلى أدنى
منازل الخسة والبداءة فقالوا المنتحل الكذاب ، وافتتن
المفتتنون بنابوليون الاول فعملوا به الى رتبة الانبياء ، وتفكر
له خصومه واعدائه فنسلكوه فى سلاك الحق والمعورين ،
وزاق كل من لوثر وكالفين وغيلو وفولتير ونيتشه وتولستوى .
كاسى الحب والبغض فى حياته وبعد مماته الى القطرة الاخيرة
منهما ، وما انقسم الناس فى هذا البلد فى هذا العصر فى شأن
رجل من الرجال . انقسامهم فى شأن جمال الدين ومحمد عبده .

وسعد زغلول ومصطفى كامل وعلى يوسف وقاسم أمين
وما كان واحد من هؤلاء فى المنزلة التى يرفعه اليها
المفرقون فى حبه ، أو ينزل به اليها الغالون فى بغضه ، ولكنهم
كانوا قومًا عظماء ، فانقسم الناس فى شأنهم ، وذهبوا فى أمرهم
هذه المذاهب البعيدة المترامية ، ولا ينقسم الناس هذا
الانقسام العظيم ، الا فى شأن الرجل العظيم

ليس معنى الوجود فى الحياة أن يتخذ المرء لنفسه فيها
نفقًا يتصل أوله بباب مهده وآخره بباب لحده ثم ينزل فى
انزلاقًا من حيث لا تراه عين ولا تسمع ديبه أذن حتى يبلغ
نهايته كما تفعل الهوام والحشرات والزاحفات على بطونها من
بنات الارض ، وانما الوجود قرح الاسماع ، واجتذاب الانظار ،
وتحريك أوتار القلوب ، واستثارة الألسنة الصامتة ، وتحريك
الاقلام الراقدة ، وتأريث نار الحب فى نفوس الاخيار ،
وجرة البغض فى قلوب الاشرار ، فعظماء الرجال أطول
الناس أعماراً وان قصرت حياتهم ، وأعظمهم حظاً فى الوجود

وإن قلت على ظهر الأرض أيامهم

العظمة كالحقيقة يخدمها أعداؤها وأصداؤها ، ويحمل
أحجارَ هيكلها على رؤوسهم هادموها وبُناتها ، فحيث ترى سواد
الاعداء ، فهناك سواد الاصدقاء ، وحيث ترى الفريقين
مجتمعين في صعيد واحد ، فاعلم أن العظمة ماثلة على عرشها
العظيم فوق أعناقهم جميعاً

العظمة قصر مشيد مرفوع على ساريتين منحوتتين من
حب الناس وبغضائهم ، فلا يزال ذلك القصر ثابتاً في مكانه
لا يترزع ولا يتحلحل ما بقيتا في مكانهما . فاذا سقطت
احدهما عجزت الأخرى عن الاستقلال به فسقطت بجانب
أختها فسقط هو بسقوطها

لا يعجبنيك أن يتفق الناس جميعاً على حبك ، لأنهم
لا يتفقون إلا على حب الرجل الضعيف المهين الذي يتجرد
لهم من نفسه وعقله ورأيه ومشاعره ثم يقعى على ذنبه تحت

أقد امهم إقعاء الكلب الذليل ، يضربونه فيصطبر لهم ، ويعبثون
به فيصبص بذنبه طلباً لرضاهم ، ويهتفون به فيقترب ،
ويزجرونه فيزدجر

ولا يعجبك أن يتفقوا على بفضك ، لأنهم لا يتفقون
إلا على بفض الحبشاء الاشرار الذين لا يحبون أحداً من الناس
فلا يحبهم من الناس أحد

وليعجبك أن يختلفوا في شأنك ، وينقسموا في أمرك
ويذهبوا في النظر إليك وتقدير منزلتك كل مذهب ، فتلك
آية العظمة ، وذلك شأن الرجل العظيم

كن القائد الذي تعترك الجيوش حوله من بين ذائدعنه
وعادٍ عليه ، ولا تكن الجندي الذي يسفك دمه ليسقى به
دوحة العظمة التي ينعم في ظلالها القائد العظيم

كن الناطق الذي تحمل الريح صوته إلى مشارق الارض
ومغاربها ، ولا تكن الريح التي تختلف إلى آذان الناس بأصوات
الناطقين ، من حيث لا بأهون لها ، ولا يعرفون لها يدها

كن النبتة النضرة التي تمتلج ذراتُ الأرض في سبيل
نضرتها ونمائها ، ولا تكن الذرة التي تطوها الأقدام ،
وتدوسها الحوافر والاختفاف

كن زعيم الناس إن استطعت ، فإن عجزت فكن زعيم
نفسك ، ولا تطلب العظمة من طريق التشيع للعظماء والتلصق
بهم ، أو مناصبتهم العدا والوقوف في وجههم ، فإن فعلت
كنت التابع الذليل ، وكانوا الزعماء الاعزاء



الانتقاد

سألني بعض الأصدقاء عن رأيي في الانتقاد وشروطه وحدوده ، وآدابه وواجباته ، ورأيي فيه ألا شروط له ولا حدود ، ولا آداب ولا واجبات ، وأن لكل كاتب أو قائل الحق في انتقاد ما يشاء من الكلام ، مصيباً كان أم مخطئاً ، محقاً أم مبطلاً ، صادقاً أم كاذباً ، مخلصاً أم غير مخلص ، لأن الانتقاد نوع من أنواع الاستحسان والاستهجان ، وهما حالتان طبيعيتان للإنسان لا تفارقانه من صرخة الوضع ، الى أنة النزاع ، وكل ماهو طبيعي فهو حق لا ريبه فيه ولا مرء ، فان أصاب الناقد في نقده فقد أحسن الى نفسه والى الناس ، وان أخطأ فسيجد من الناس من يدلّه على موضع الخطأ فيه ، ويرشده الى مكان الصواب منه ، فلا يزال يتعثر بين الصواب والخطأ ، حتى يستقيم له الصواب كله

فإن أئينا عليه أن ينتقد إلا اذا كان كفوًّا في علمه ومخلصاً في عمله كما يشترط عليه ذلك أكثر الناس فقد أئينا عليه أن يخط سطرًا واحدًا في الانتقاد، وقضينا على ذهنه بالجمود والموت، لا نأنا لانعرف لهاتين الصفتين حدوداً معينة واضحة، فكل منتقد يزعمها لنفسه، وكل منتقد عليه مجرد منتقده منهما، ومتى سمح الدهر لعامل من العاملين بالاخلاص الكامل في عمله فيسمح به الجماعة المنتقدين !

على أن المنتقد الناقم لا تمنعه نقمته من أن يكون مصيباً في بعض ما يقول، لأنه لم يأخذ على نفسه عهداً أن يخلق جميع المآخذ التي يأخذها، وألا يكتب إلا الباطل والمحال، وإنما هو رجل عيَّاب بالحق وبالباطل، فهو يفتش عن السيئات الموجودة حتى يفرغ منها فيلجأ إلى السيئات المختلقة، ولقد كُتب أول انتقاد في التاريخ بمداد الضغينة والحق، فقد كانت توجد في عصور اليونان القديمة طائفة من الشعراء يجوبون البلاد ويتغنون بالقصائد الحماسية والأناشيد الوطنية

فى الأسواق والمجتمعات ، وبين أيدى الأمراء والعظماء ،
 فيكرمهم الناس ويجلونهم إجلالاً عظيماً ، ويجزلون لهم
 العطايا والهبات ، فنفس عليهم مكانتهم هذه جماعة من
 معاصريهم من الذين لا يطوفون طوافهم ، ولا يحظون عند
 الملوك والعظماء حظوتهم ، فأخذوا يعيبونهم ، ويكتبون
 الكتب فى انتقاد حركاتهم ، وأصواتهم ، ومعانى أشعارهم ،
 وأساليبها ، وكان هذا أول عهد العالم بالانتقاد ، والفضل
 فى ذلك للضعيفة والحق ، فلرذيلة الحق الفضل الأول
 فى وجود الانتقاد وبزوغ شمس المنيرة

كذلك لا يمنع الجاهل جهله من أن يكون رأيه فى استحسان
 الكلام واستهجانه رأياً صائباً ، لابل ربما كان شعوره بحسن
 الكلام وقبحه — متى رزق حظاً من سلامة الذوق واستقامة
 الفهم — أصح من رأى الأديب المتكلف الذى يتعمّل الانتقاد
 تعملاً ، ويتعمق تعمقاً كثيراً فى التفتيش عن حسنات الكلام
 وسيئاته حتى يضل عنهما ، ورب ابتسامة أو تقطية يمران بوجه

السامع العامي عفواً أنفع للأديب حين يراها وأعون له على معرفة مكان الحسنة والسيئة من كلامه من مجلد ضخم يكتبه عالم مضطلع بالأدب واللغة في نقد شعره أو نثره ، وإذا كان من الواجب على كل شاعر أو كاتب أن ينظم أو يكتب للأمة جميعها أو خاصتها وعامتها فلم لا يكون من حق كل فرد من أفرادها متعلماً كان أو جاهلاً أن يُدلى برأيه في استحسان ما يُستحسن من كلامه ، واستهجان ما يُستهجن منه

وهل رفع العظماء من رجال الأدب إلى مواقف عظمتهم وسجل لهم أسماءهم في صحائف المجد ، إلا منزلتهم التي نزلوها من نفوس السواد الأعظم من الأمة ، والمكانة التي نالوها بين عامتها ودهائها

وبعد فلا يتبرم بالانتقاد ولا يضيق به ذرعاً إلا النبي^ﷺ الأبله الذي لا يبالي أن يقف الناس على سيئاته فيما بينهم وبين أنفسهم ويزعجه كل الازعاج أن يتحدثوا بها في مجامعهم ، ولا فرق بين وقوفهم عليها ، وحديثهم عنها ، أو الجبان المستطار الذي يخاف من الوهم ، ويفرق من رؤية الأشباح ، ولورجع

إلى اناته ورويته لعلم أن النقد إن كان صواباً فقد دله على عيوب نفسه فاتقاها ، أو خطأً فلا خوف على سمعته ومكانته منه ، لأن الناس ليسوا عبيد الناقدين ولا اسراهم ، يأمرونهم بالباطل فيذعنون ، ويدعونهم إلى المحال فيتبعون . ولئن استطاع أحد أن يخدع أحداً في كل شأن من الشؤون فانه لا يستطيع أن يخدعه في شعور نفسه بجمال الكلام أو قبحه ، ولو أن الأصمعي وأبا عبيدة وأبا زيد والمبرد والجاحظ والقالى وقدامة وابن قتيبة والآمدى وأبا هلال والجرجاني بعثوا في هذا العصر من مراقدهم وتكلفوا أن يذموا قصيدة يحبها الناس من شعر شوقي مثلاً لما كرهوها ، أو يمدحوا مقالة يستثقلها الناس من ثر «فلان» لما أحبوها ، فالحقيقة موجودة ثابتة لا سبيل للباطل إليها ، فهي تختفي حيناً ، أو تتنكر ، أو تترأى في ثوب غير ثوبها ، ولكنها لا تنمحى ولا تزول فلتنطلق ألسنة الناقدين بما شاءت ، ولتتسع لها صدور المنتقدين ما استطاعت ، فقد حرمتنا الحرية في كل شأن من شؤون حياتنا ، فلا أقل من أن نتمتع بحرية النظر والتفكير

يوم العيد

أفضل ما سمعت في باب المروءة والاحسان ان امرأة
بائسة وقفت ليلة عيد من الاعياد بحانوت تماثيل في باريس
يطرقه الناس في تلك الليلة لا بتياع اللعب لاطفالهم الصغار ،
فوقع نظرها على تمثال صغير من المرمر هو آية الآيات في
حسنه وجماله ، فابتهجت بمرآه ابتهاجاً عظيماً ، لا لأنها غريرة
بلهاء يستفزها من تلك المناظر الصيانية ما يستفز الاطفال
الصغار ، بل لأنها كانت تنظر اليه بعين ولدها الصغير الذى
تركته في منزلها ينتظر عودتها اليه بلعبة العيد كما وعدته ،
فاخذت تساوم صاحب الحانوت فيه ساعة والرجل يغالى به
مغالة شديدة حتى علمت أن يدها لا تستطيع الوصول الى
ثمنه ، وانها لا تستطيع العودة بدونه ، فساقتها الضرورة التي

لا يقدرها قدرها الا من حمل بين جنبيه قلباً كقلب الأم ، وفؤاداً مستطاراً كفؤادها ، إلى أن تمد يدها خفية إلى التمثال فتسرقه من حيث تظن أن الرجل لا يراها ، ولا يشعر بمكانها ثم رجعت أدراجها وقلبها يخفق في آن واحد خفتين مختلفتين ، خفقة الخوف من عاقبة فعلتها ، وخفقة السرور بالهدية الجميلة التي ستقدمها بعد لحظات قليلة إلى ولدها ؛ وكان صاحب الحانوت من اليقظة وحدة النظر بحيث لا تفوته معرفة ما يدور حول حانوته ، فما برحت مكانها حتى تبناها يترسم مواقع أقدامها حتى عرف منزلها ، ثم تركها وشأنها وذهب إلى مخفر الشرطة لجاء منه بجنديين للقبض عليها ، وصمدوا جميعاً إلى الغرفة التي تسكنها فقاجأها وهي جالسة بين يدي ولدها تنظر إلى فرحه وابتهاجه بتمثاله نظرات الغبطة والسرور ، فهجم الجنديان على الأم فاعتقلها ، وهجم الرجل على الولد فانزع التمثال من يده ، فصرخ الولد صرخة عظمى لأعلى التمثال الذي انزع منه ، بل على أمه المرتعدة بين

يديه ، وكانت أول كلمة نطق بها وهو جاث بين يدي الرجل :
 رحماك بأى يامولاي ، وظل يبكي بكاء شديداً ، فحمد الرجل
 أمام هذا المنظر المؤثر ، وأطرق اطراقاً طويلاً ، وإنه لكذلك
 إذ دقت أجراس الكنائس مؤذنة بأشراق فجر العيد فانتفض
 انتفاضة شديدة وصعب عليه أن يترك هذه الأسرة
 الصغيرة المسكينة حزينة منكوبة فى اليوم الذى يفرح فيه
 الناس جميعاً ، فالتفت الى الجنديين وقال لهما أظن انى أخطأت
 فى اتهام هذه المرأة فانى لأبيع هذا النوع من التماثيل ،
 فأنصرفا لشأنهما ، والتفت هو الى الولد فاستغفره ذنبه اليه
 والى أمه ، ثم شى إلى الأم فاعتذر اليها عن خشونته وشدة ،
 فشكرت له فضله ومروءته ، وجبينها يرفض عرقاً حياء من
 فعلتها ، ولم يفارقهما حتى أسدى اليهما من النعم ما جعل عيدهما
 أسعد وأهنأ مما كانا يظنان

لأتأتى ليلة العيد حتى يطلع فى سماءها نجمان مختلفتان ،
 نجم سعود ، ونجم نحوس ، أما الأول فليسعداء الذين أعدوا

لأنفسهم صنوف الأودية والحلل ، ولأولادهم اللعب والتماثيل ،
ولأضيافهم ألوان المطاعم والمشارب ، ثم ناموا ليلتهم نوما
هادئا مطمئنا تتطاير فيه الأحلام الجميلة حول أسرهم تطاير
الحمام البيضاء حول المروج الخضراء ، وأما الثانى فلاشقياء
الذين يبيتون ليلتهم على مثل جمر الغضا يئنون فى فراشهم
أنينا يتصدع له القلب ويدوب له الصخر حزنا على أولادهم
الواقفين بين أيديهم يسألونهم بالسنتهم وبأعينهم ماذا
أعدوا لهم فى هذا اليوم عن ثياب يفاخرون بها أندادهم ،
ولعب جميلة يزينون بها مناظدهم ، فيعللونهم بوعود يعلمون
أنهم لا يستطيعون الوفاء بها

فهل لأولئك السعداء أن يمدوا الى هؤلاء الاشقياء
يد البر والمعروف ، ويفيضوا عليهم فى ذلك اليوم السعيد
الزَرَ القليل مما أعطاهم الله ليسجلوا لأنفسهم فى باب
المروءة والاحسان ماسُجل لصاحب حانوت التماثيل
ان رجلا يؤمن بالله ورساله ، وآياته وكتبه ، ويحمل بين

جنبيه قلبا يخفق بالرحمة والحنان ، لا يستطيع أن يملك عينه من البكاء ، ولا قلبه من الحفقان ، عند ما يرى في يوم العيد ، في طريقه الى معبده ، أو منصرفه من زياراته ، طفلةً مسكينة بالية الثوب كاسفة البال دامعة العين تحاول ان تتوارى وراء الأسوار والجدران خجلا من أترابها وصواحبها أن تقع أنظارهن على بؤسها وفقرها ، ورثاة ثوبها ، وفراغ يدها من مثل ما تمتلئ به أيديهن ، فلا يجد بداً من أن يدفع عن نفسه ذلك الألم بالحنوع عليها ، وعلى بؤسها ومتربتها لأنه يعلم أن جميع ما اجتمع له من صنوف السعادة وألوانها لا يوازي ذرة واحدة من السعادة التي يشعر بها في أعماق قلبه عند ما يمسح بيده تلك الدمة المترقرة في عينيها

حسبُ البؤساء من محن الدهر وأرزائه أنهم يقضون جميع أيام حياتهم في سجن مظلم من بؤسهم وشقائهم ، فلا أقل من أن يتمتعوا برؤية أشعة السعادة في كل عام مرة أو مرتين

من الشيوخ الى الشبان

لا نستطيع أن ننكر عليكم معشر الابناء أن شبابكم
أعظم قوة ونشاطاً، وأبعد همّة، وأقوى عزيمة، من شيخوختنا،
وان أيدينا الشاحبة المعروقة لا تستطيع ان تصل إلى ما تصل
إليه أيديكم الفتية المقتدرة، وأن آراءكم وأفكاركم وجميع
تصوراتكم وآمالكم التي تتلون بها شبوبيتكم أكثر حدة
وحرارة، وأبعد غوراً وعمقا، من آرائنا وتصوراتنا، ولكنّ
الذي ننكره عليكم، ونعتب عليكم فيه أشد العتب، هو زرايتكم
علينا، واحتقاركم لنا، ورميكم إيانا بالجمود مرة، والخرف أخرى،
كلما اختلفنا معكم في شأن من الشؤون، كما أننا ننعي عليكم
كبرياءكم وخيلاءكم واعتدادكم بأنفسكم هذا الاعتداد العظيم
الذي يخيّل اليكم معه ان هذه الألوان الجميلة التي تتلون بها
حياتكم الحاضرة انما هي خاصة بكم، ووقف عليكم، لم تمر

بعضر غير عصركم ، ولم يزه بها شباب غير شبابكم ، وانكم
أنتم أصحاب الفضل الاول في ابتكارها ، واقتراع عذرتها ،
ولو أنكم استطعتم أن تحملوا أنفسكم على الروية والاناة ، وان
تنتقلوا بأنظاركم من الحاضر الى الماضي ، وإن لم يكن ذلك
من طبيعة الشباب ولا من خصائصه ، لعلمتم أن هذا العهد الذي
يمر بكم اليوم ، والذي تفاخرونا به ، وتُدلون علينا بأحلامه
وأمانيه ، وتصوراتهِ وخيالاتهِ ، قد مر بنا مثله في زماننا ، فقد
كان لنا شباب مثل شبابكم تتصور فيه كما تتصورون ، ونفكر
كما تفكرون ، وزددي أنفسنا وأحاديثنا وعلى أسلات أقلامنا
جميع هذه الآراء والافكار التي ترد دونها اليوم . حتى انطوى
ذلك العهد ، وزالت معاملهُ ، وهدأت على أثره تلك الثورة
النفسية المهادئة التي كانت تعترك بين جوانحنا ، ودخلنا غمار
الحياة الحقيقية حياة الجد والعمل ، والنظر والتأمل ، والخبرة
والتجربة ، فاستطعنا أن نرجع الى نفوسنا ، وثوب الى رشدنا ،
وان نهبط بهدوء وسكون الى أعماق قلوبنا ، ونستعرض تلك

الآراء والأفكار ، والاحلام والآمال ، بامعان وتدقيق ،
 فاستطعنا ان نميز صالحها من فاسدها ، وصادقها من كاذبها ،
 ومعقولها من موهومها ، وأن نقَلِّب الأشياء على جميع
 وجوهها ، ونرى وجوه الحسن فيها ووجوه القبح ، ونوازن بين
 هذه وتلك ، فاخذنا بما أربت حسناته على سيئاته ، واطرحنا
 ما زادت سيئاته على حسناته ، فلا فضل لكم في الحقيقة
 في هذا الذي تزعمون أن لكم الفضل فيه وحدثكم من دون
 الناس جميعاً ، إنما الفضل للشباب ومزاجه وطبيعته وحدثه
 ولا علاقة للعلم والجهل ، والذكاء والغباوة والتقدم والتأخر
 بشيء من ذلك ، وللشباب خصائص كثيرة ، وصفات متعددة
 وأخص صفاته قصر النظر ، وسرعة الحكم ، والعجز عن إحكام
 الصلة بين أدوار الزمان الثلاثة ، ماضيه وحاضره ومستقبله ،
 فهو لا يستطيع أن يتصور تصوراً ثابتاً متيناً أن الماضي
 أساس الحاضر ومنبع وجوده ، لا يشرق إلا من مطلعته ،
 ولا ينبت إلا في تربته ، وإن المستقبل بيد الطبيعة القاسية

وقوانينها الصارمة ، وليس أقرب اليه من أن يتصور أن
 في استطاعته أن يمجو يده في لحظة واحدة وجه الكون
 بارضه وسمائه ، ثم يخلقه خلقاً جديداً على الصورة التي يريدها
 ويتصورها ، وأن في إمكانه أن يحيل التراب أمواها ، والأمواء
 تراباً . وإن يحجب يده وجه الشمس فلا ينبعث لها شعاع
 إلا بإرادته . وإن يرغمها متى أراد أن تمزق حجاب الليل وتبرز
 في سمائه ، ولا يزال يتخبط في أمثال هذه التصورات
 والأحلام التي لا فائدة فيها ولا نتيجة لها حتى تطاع في رأسه
 أول طبيعة من طلائع الشيخوخة فهدأ ثورته ، وتقرر حدته ،
 ثم لا يلبث أن يستطجج جائياً بين يدي القوة الإلهية والقوى
 الطبيعية معترفاً بعجزه وقصوره وفراغ يده من كل حول
 وقوة هاتفاً أن لا يكون إلهاً لا أستطيع محادثته وللطبيعة
 سنة لا أستطيع تبديلها

كنا نفكر كثيراً في شأن المرأة كما تفكرون اليوم ،
 ولا نجد حديثاً ألد ولا أطرب من الحديث عنها ، وكنا

لشدة إعجابنا بها ، واهتمامنا العظيم بترفيها وتدليلها ، والوقوع من نفسها موقعاً جميلاً ، ندافع عنها ضد أنفسنا ، ونطلب لها من النفوذ والسيطرة علينا أكثر مما تطلبه لنفسها ، ونتمنى بجدع الانف لو أننا رأيناها متمتعة بالحرية الى أقصى حدودها ، فتتبرج كما تشاء ، وتُسفر كما تريد ، وتجلس الى الرجل جنباً لجنب في المجتمعات العامة والخاصة ، دون أن يعارضها معارض ، أو يكدر عليها صفوها مكدر ، بل كنا نذهب في مجاملتها ومحاسنتها الى أكثر من ذلك ، فكنا نعتفر لها سيئاتها الأدبية ، ونسميها سقطات ، أى هفوات فردية لا أهمية لها ، ونُغريها بمحاسبة زوجها حساباً شديداً على خيائته لها ، ومقابلة فعلاته بمثلها ، لاننا كنا نقرر لها مبدأ المساواة بينها وبينه ، ونقول لها ليس من العدل أن يغضب الزوج من خيانة زوجته إذا كان هو يخونها ، وكنا نظن أن هذه الآراء آراء حقيقية راسخة في نفوسنا ، صادرة من أعماق قلوبنا ، ثم علمنا بعد ذلك أننا كنا نخدوعين

فيها ، وانها آراء الشباب وخواطره ، وأحلامه وتصوراته ، ولا يثقل على الشباب في رِيعاته شيء مثل ذلك الحجاب المسبل على توجّه المرأة ، وذلك الجدار القائم بينها وبينه

وكنا نبتهج بكل جديد كما تبتهجون ، وننفر من كل قديم كما تنفرون ، ونعد الأول آية الآيات مهما سخف واستبرد ، والثاني نكبة النكبات مهما غلت قيمته ، ونفس قدره ، لا لأننا وازنا بينهما وفاضلنا بين مزايهما فحكما عليهما ، بل لأننا كنا قريبي عهد بزمان الطفولة ، والطفل سريع الملل ، كثير السآمة ، لا يصبر على لعبته أكثر من يوم واحد ثم يملأها فيكسرهما ، ويستبدل منها

وكنا مولعين بالتقليد ولعكم به ، لانكاد نعرف لأنفسنا صورة خاصة ترتكز عليها أعمالنا في الحياة ، بل كانت تمر بنا جميع الصور على اختلاف أنواعها وألوانها فنلتقطها بأسرع مما يلتقط « الفيلم » صورته ، كأن قضاء حياتنا معمل لتجارب الحياة واختباراتها

وكان العارف منا بلغة أجنبية لا يابث أن يفتن بها
وبأصحابها افتتاناً شديداً ربما حمّله على احتقار لغته وتاريخها ،
فيترفع عن ذكر رجالها وعظماؤها في أحاديثه واستشهاداته ،
ويسخر منهم كلما جرى ذكرهم على لسان أحد غيره ، لئلاّ نه
يفهمهم ، أو يفهم غيرهم ، بل لئلاّ نه كان بسيطاً غريراً يحتقر
كل ما في يده ، ويستعظم كل ما في يد غيره

ولم نعرف إلا بعد زوال ذلك العهد أننا كنا مخطئين
في جميع هذه التصورات والأفكار ، وأنها لم تكن عقائد
راسخة في نفوسنا ، بل أشباحاً وصوراً تراءى في سماء حياتنا .
فنعجب بها ، ونستطير فرحاً وسروراً بجمال منظرها ، وبهجة
ألوانها ، فأصبحنا معتدلين في آرائنا ، متئدين في أحكامنا ،
نحب حرية المرأة ، ولكننا نكره فسقها وجورها ، ونأخذ
مواد المدنية والحضارة من الأمم المتمدينة ، ولكننا لا نقلدها ،
ونحب أدب الغربيين وعلمهم ، ونعجب بادبائهم وعلمائهم ،
ولكننا لا نحتقر من أجل ذلك رجالنا وتاريخنا

نحن لا نطلب منكم معشر الأبناء وأنتم في ثورة الشباب
 ونشوته أن تكونوا معتدلين متئين في أحكامكم
 وتصوراتكم، أو هادئين في مطامعكم وآمالكم، فليس من الرأي
 أن نطلب عندكم ما لم نكن نطالبه عند أنفسنا، ولكن
 أمراً واحداً كنا نحرص عليه في عهدنا أشد الحرص هو
 الذي نطلب اليكم أن تحرصوا عليه مثلنا، وتضمنوا به ضمناً
 كنا نعتقد مثلكم أننا خير من آبائنا وأجدادنا، وأوسع
 منهم علماً، وأقوى ادراكاً، وربما اعتقدنا في الكثير منهم كما
 تعتقدون فينا اليوم أنهم جاهلون أو مخرفون، أو متأخرون
 أو جامدون، إلا أن ذلك لم يكن يمنعنا من أن نحفظ لهم
 منزلة الأبوة وكرامتها، فلا نلقبهم بلقب من هذه الالفاظ
 التي تلقبونها بها، ولا نذكرهم في حضورهم أو غيبتهم بكلمة
 سوء تنقص عليهم ما قدر لهم أن يقضوه بيننا من أيام حياتهم،
 وكان شأننا معهم في برهم وكرامتهم، واحترام عقائدهم
 ومذاهبهم، مع اتساع مسافة الخلف بيننا وبينهم، شأن خالد بن

عبد الله القسرى أمير العراق إذ كان مسيحياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان أبوه لا يزال على دينه فطلب إليه أن يبنى له بيعةً في قصره يقوم فيها بأداء واجباته الدينية، فبناها له كما أراد، ولم ينع عليه شأنًا من شؤونه طول أيام حياته حتى ذهب إلى ربه

ذلك ما نضرع اليكم فيه أن تحفظوه لنا كما حفظناه من قبلكم لا بآثنا وأجدادنا، واذكروا أن سيأتى عليكم ذلك اليوم الذى أنى علينا، وانكم ستكرهون فيه أن يعاملكم أبناؤكم وأحفادكم بمثل ما تعاملوننا به اليوم، فاتقوا الله فينا وفى شيخوختنا، فنحن آباؤكم الذين ولدناكم، وأساتذكم الذين ربيناكم، ومن أكبر العار عليكم وعلى تاريخكم أن تسبوا أساتذتكم وآباءكم، وأن ترموهم فى وجوههم بالجهل والجمود، وما هم بجاهلين ولا جامدين، ولكنهم شيوخ عاجزون

الموتى

« مترجمة »

دقت أجراس المساء تنعى اليوم الراحل ، وتندب
 جماله الزائل ، وأخذت قطعان الماشية تعود من مراعيها إلى
 حظائرهما ، ومشى وراءها رعاتها يهشون عليها بعصيتهم ،
 لا يريدون بها شراً ولا أذى لأنهم يحبونها ويرحمونها بل يخافون
 عليها الضلال فهم يهدونها الطريق ، ومد الظلام رواقه
 الأسود على جسم الطبيعة المنبسطة كأنما ظن أنها تنام كما
 ينام البشر ، فهو يقبها برد الليل وغائتته ، وسادسكون رهيب
 فى تلك الانحاء ، فلا يُسمع إلا صوت البلبل يشكر للقمر
 ما أهدى إلى جناحيه من أشعة متلاثلة ، ونعيبُ
 اليوم بمد صوته بالشكوى إلى الله تعالى فى سمائه ، وما شكاته
 إلا أن بنى آدم يطأون أرضه ، وينتهكون حرمة خرباته

المقدسة ، وهنالك تحت ظلال الأشجار الضخمة اليابسة
 رقد أسلاف سكان تلك المزرعة تحت أعماق الأرض رقدة
 طويلة ، بل أكثر من طويلة ، لأنها لا نهاية لها ، فلانسبات
 الصباح الباردة ، ولا تغريد الطيور الصادحة ، ولا صياح
 الديكة ، ولا رنين الأجراس ، ولا هتاف الرعاة ، يوقظهم
 من رقدتهم هذه

أسفى عليهم لقد أمسوا ولا نيران توقد فى أكوأخهم ،
 ولا زوجات صالحات يذهبن ويحجن فى تهيتة طعام عشائهم ،
 ولا صبية صغاراً يستقبلونهم عند عودتهم ليقبلوهم ويستقبلوا
 قبلاتهم ، أولئك الرقود الهامدون كانوا بالأمس أشداء
 أقوياء ، تمد السنابل أعناقها خاضعة لمنأجلهم ، وينظر ظهر
 الأرض وبطنها تحت وطأة محاريثهم ، وترعد جذوع الأشجار
 الضخمة فرقا من ضربات فؤوسهم

أولئك الوجوم الصامتون كانوا بالأمس فرحين
 مستبشرين ، يرقصون ويغنون ، ويمجدون السعادة والبهجة

فى كل ما يحيط بهم ، فيطربون لوقع حوافر ماشيتهم على
الحصباء ، كأنما يسمعون قيثاره مطربة ، ويجدون فى ضجعتهم
فوق الأعشاب اليابسة الراحة التى يجدها أصحاب الأسره
فوق مهادهم الوثير ، ويشعرون فى تناولهم اللقمة الجافة
السوداء بعد الجوع باللذة التى يشعر بها الأغنياء فى تناولهم
ألوان الطعام الشهى على موائدهم ، ويغترفون بأكفهم
الماء من الأنهر والخلجان فيلتذون بارتشافه كأنما يتناولون
صافية الصبأ فى كؤوس البلور والذهب

أولئك الخاملون المغمورون الذين لم تنصب لهم التماثيل ،
ولم تُرفع فوق قبورهم القباب ، كانوا فى حياتهم شرفاء عظاماء ،
لأنهم كانوا متجابين متآخين ، لا يحسد فقيرهم غنيهم ، ولا
يبنى قويهم على ضعيفهم ، ولا يحقدون ولا يغدرون ، ولا
يخافون شيئاً حتى الموت ، ولا يعبدون إلهاً الا الله

كذلك كانوا بالامس ، واليوم طواهم الرمس ، فرحة
الله عليهم يوم كانوا على ظهر الأرض ، وبعدما أصبحوا فى بطنها

فليَجثُ فوق رمال هذه القبور المبعثرة ، وبين أحجارها
 المهتدة المتساقطة ، أربابُ المطامع فى الحياة ، وطلاب المجد
 والعظمة ، خاشعين مستكينين ، خافضى رؤوسهم اجلالاً
 واعظاماً ، ولميسكوا قليلاً عن الادلال بعزهم وجاههم ،
 والمكاثرة بفضتهم وذهبهم ، وليخفوا فى أعماق نفوسهم
 ابتسامات الهزاء والسخرية المترققة على شفاههم ، وليعلموا
 أن طريق المجد والعظمة التى يسرون فيها ، وان كانت مخضرة
 جميلة ، مفروشة بالاعشاب ، محفوفة بالأزهار ، فانها
 تؤدى فى نهايتها الى هذا المصير الذى صار اليه هؤلاء
 المقبورون

أيها الناعمون فى عيشهم ، المدلون بعزهم وجاههم ،
 المفتخون بقوتهم وجمالهم ، لاتحتقروا هؤلاء المقبورين ،
 الساكنين إن رأيتم أجداثهم مشعثة بالية ، وقبابهم مهتدة
 خاوية ، ولم تروا أسماءهم منقوشة بأجل الألوان وازهاها
 على صفائح قبورهم ، واصفوا قليلاً تسمعوا آيات مدحهم

والثناء عليهم ترددها الجداول والغدران ، والحقول والمروج ،
والطيور المغردة فوق أعالي الأشجار ، والسوائم الهائمة على
ضفاف الأنهار ، فهم أصحاب اليد التى رصعت التاج للملك ،
وصنعت السيف للقائد ، ونسجت المسوح للراهب ، وبنت
الفصور للأمراء ، وصاغت الحلى للأميرات ، وغرست العشب
للسائمة ، ووضعت الحب للطائر ، وهيات لأحياء جميعهم ،

ناطقتهم وصامتهم ، طعامهم وشرابهم ، ودثارهم ومهادهم
أيها العظماء : لاتخذ التماثيل المنصوبة غير ذكرى
ناحتيها ، ولا تطمس السطور الذهبية المنقوشة فوق
صفائح القبور سطور السيئات التى يخطها التاريخ فى
صفحاته ، ولا تسمع آذان الموت الصماء نغمات الملق المترددة
فى أناشيد الرثاء

رب يد تحت هذه الأرض لو أتيح لها الحظ فى حياتها
لكانت يد العازف الذى يشنف الآذان ، أو يد البطل الذى
يهز العروش ، ويزرع التيجان ، أو يد الشاعر الذى يثير

الاشجان ، ويبعث إلى القلوب السرور والاحزان ، ورب
 قلب فى هذه الحفائر المظلمة لو عاش فى جو غير هذا الجو ،
 وعالم غير هذا العالم ، لكان قلب ملك عظيم مملوء بالآمال
 العظام ، والأمانى الجسام ، أو قلب زعيم جرىء يحاسب
 الظالمين على ظلمهم ، ويدود النوم عن أجفانهم ، أو قلب
 نائب كبير يستهوى ببلاغته القلوب ، ويسترعى الاسماع ،
 فتدوى له بالتصفيق قاعة مجلس النواب

كم من لؤلؤة لم تعثر يد الغواص بها فظلت دفينة بين
 صدفنيها ، وكم من زهرة أريجة لم تكد تفتتح حتى هبت عليها
 رياح الصجراء المحرقة فاذابتها ، وكم من ماسة وضاعة عجز
 المعدنون عن استخراجها من معدنها فانطفأ نورها فى منجم
 الفحم المظلم ، وكم من قريحة وقادة لم تصقها العلوم والتجارب
 فعاشت مغفلة مهملة حتى انطفأت شعلتها ، ولو أنها صقاتها
 لغيرت وجه الكون ، وبدلت الأرض غير الأرض ، نعم كان
 بين هؤلاء القرويين المقبورين من كان له قلب كقلب (همبدن)

إلا أن التاريخ لا يعرفه ، ومن كان له لسان كلسان (ماتن)
 إلا أنه لم ينصب له تمثال ، ومن كانت له همة كهمة (كرومويل)
 إلا أنه لم يقدر الجيوش ، ولكنهم عاشوا فى هذه الفلوات
 المنقطعة عن العلم والحضارة فدفن الجهل مواهبهم ، وأخذ
 الفقر نار ذكائهم وفهمهم ، فمروا بهذه الدنيا ولم يشعر بهم أحد ،
 ثم ماتوا ولم يذكرهم أحد

هنيئاً لهم جهلهم وخمولهم ، فلو أنهم كانوا عظماء لقضوا
 أيام حياتهم يسفكون الدماء ، ويمزقون الاشلاء ، ويقتالون
 حقوق الضعفاء ، سعيًا وراء أغراضهم ومطامعهم ، لا بل إنهم
 كانوا عظماء ، ولكنهم بريئون من آثام العظمة وجرائمها

رحمة الله عليهم لقد ذهبوا ولم يبق لهم من بعدهم مما
 يدل عليهم سوى حجر قديم ملقى فى طريق مقبرتهم قد
 كتب عليه بخط سقيم هذا البيت البسيط من الشعر
 أيها المار فى هذا المكان احترم تربته ، ولا تطأ بقدميك

رفات الموتى

هذا كل ما طمعوا فيه من شؤون الحياة بعد موتهم ،
لم يطلبوا تمثالا يقام لهم ، ولا قبة ترفع فوق أضرحتهم ،
ولا صفحة خاصة من صفحات التاريخ تخلد فيها أعمالهم ،
بل لم يطلبوا طاقة زهر تؤنس مضجعهم ، ولا قطرة غيث
تبل ثراهم ، فما كان أقنعهم وأزهدهم



الزهرة الذابلة

ورد إلى من صاحب التوقيع الكتاب الآتى

أنا تلميذ في السابعة عشرة من عمرى حصلت على
شهادة الدراسة الابتدائية ثم تقدمت لامتحان الكفاءة فلم
أفلح غير أنى عازمت على الكد للعام المقبل وما دريت ما
يخفى الغيب فى سره حتى فوجئت بمرض « الحمى » العضال
الذى ضعفتى وما كدت أشفى منه بعد مدة حتى أصابنى
« الصمم » الكامل فضاءت بذاك آمالى وأظلمت الأرض
فى وجهى فرأيت أن أستغيث بك لعلاك تسدى إلى جميلك
بكلمة تعزية من عندك وأنا أحتق الناس بالعزاء والسلام

م . ر

٦ يناير سنة ٩١٤

لا أستطيع أن أعزبك عن مصابك يا بنى ، فهو فوق
ما يحتمل المتحمل ، ويطيق الجدة الصبور ، ولو أننى حاولت

ذلك منك لكذبتك وغششتك ، ولكان شأني معك شأن أولئك الخادعين من المعزّين الذين يختافون ليلهم ونهارهم إلى منازل المنكوبين والمرزوين ليتولوا للثاقل ولده « لقد قدمت بين يديك شفيعاً يشفع لك يوم حسابك بين يدي ربك » وللباكي أباه « مامات من خاف مثلك » وللباكي أخاه « ان في الباقي عزاء عن الماضي » وللباكية زوجها « الشباب غض والرجال كثير » وللفاقد بصره « حسبك مما فقدت من نور بصرك ما أبقى الله لك من نور بصيرتك » وللمتضرّ المشرف « إن في لقاء ربك عوضاً عن لقاء الدنيا » ولمن حلت به نكبة مثل نكبتك « لقد كفالك الله بما ابتلاك سماع أقوال الكذب وكلمات السوء » كأنما هم يحسبون أن الفواجع والرزايا صفقات تجارية إذا قاس فيها المرء ربحه بخسرانه ، ووازن بين دخله وخرجه ، هان عليه هذا لذلك ، واعتذر ما فات لما هو آت ، ولا يعلمون أن الحزن على الذهاب المفقود إنما هو زفرة من زفرات الحب ، أو نفثة

من نفثات الود ، ولا دخل للحساب والمعاوضة في شيء من ذلك ، وأن أفسى الآباء قلباً ، وأصلبهم فؤاداً ، لو ساومه مساوم في فلذة كبده ووضع تحت قدميه خزائن الأرض والسماء لكان رأيهم في ذلك رأى ابن الرومي في قوله

وما سرني أن بعته بثوابه ولو أنه التخليد في جنة الخلد
وأن الأم تبكي وحيدها كما تبكي عاشر عشرة من أولادها ،
والصديق يبكي فراق صديقه وإن كثر أصدقاؤه في كل محلة
يحل بها ، والزوجة تبكي زوجها وإن كان تحت كل نافذة من
نوافذ منزلها خطيباً يترقبها ، وأن البائس المسكين الذي
يعيش من دنياه في مثل جحر الضب ضنكا وبؤساً يرضن بحياته
الضن كله إذا أحس بوشك فراقها وإن علم أنه سينتقل منها
إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فهم في الحقيقة يسخرون
من مصائب الناس وأرزائهم ، ويؤلمون نفوسهم فوق ألمها
باحترار أحزانهم وازدراءها ، وتصغير شأنها في أعينهم ، ويلقون

فى نفوسهم اليأس من أن يجدوا بجانب قلوبهم قلوباً تحس
باحساسها ، وتشعر بشعورها ، من حيث يظنون أنهم يخفون
عنهم آلامهم ، ويأخذونهم بنسيانها

وأعوذ بالله أن أكون يابنى من الكاذبين فى تعزيتك ،
أو الفاشين لك فيها ، ولو أردت نفسى على ذلك لما استطعت ،
وكيف يستطيع أن يعزى لك عن مصابك من لا يستطيع أن
يعزى نفسه عن مصابه فيك ، فلقد ترك كتابك هذا بين
جنبيّ لوعة من الحزن لا أحسب أنها دون لوعتك التى تعتلج
بين جنبيك من الحزن على نفسك ، حتى صرتُ كأنى أنا الذى
ابتليت بما ابتليت به ، وكأن الذى أصابك من البلاء قد أصابنى
من دونك ، فلقد انقطع عنك بفقد سمعك أيها البائس
المسكين كل ما كان بينك وبين الناس جميعاً من سبب
وصلة ، فأصبحتَ وأنت فى دار الانس والاجتماع ، وبين
ضوءاء الحياة وضجيجها ، كأنك تعيش من وحشتك وكآبتك
فى مدينة متحجرة من مدن التاريخ القديم ، لاتأنس فيها

بأحد، ولا يأنس بك فيها أحد، ولا ترى بين يديك إلا
نصبا ماثلة، وتماثيل جامدة

تحسبُ العين أنهم جدُّ أحياء لهم بينهم إشارة خرس
ولا يرفه عن نفسك في ساعة من ساعات ضيقك
وضجرك نغمة غناء، ولا رنة حذاء، ولا خرير نهر، ولا
تفريد طير، ولا حفيف شجر، ولا زفيف ريح، ولا ثغاء
شاة، ولا نقيق ضفدع، ولا صرير جندب، سوائها لديك
ليلك ونهارك، وصبحك ومساؤك، ويقظتك ومنامك،
فإن فررت من وحشتك هذه إلى مجتمع من المجتمعات العامة
فجلست إلى الناس ساعةً تتفرج^(١) فيها مما بك، لا تسمع
شيئا مما يقولون، ولا يعنيه أن يسمعو شيئا مما تقول، فإن
قلبت نظرك في وجوههم لتتسقط حرفا من حروفهم، أو
تتفهم حركة من حركات شفاههم، أو إشارة من إشارات
أيديهم، أنكروا عليك نظراتك، وسخروا منك فيما بينهم

(١) طلب الفرج والراحة

وبين أنفسهم ، لابل ربما صارحوك بكلمتهم التى يضررها
 فى أنفسهم ، ورموا بها فى وجهك من حيث لا تعلم ، فان رأوا
 منك أنك تقتضب الاحاديث اقتضابا ، وتذهب منها فى أودية
 غير أوديتهم ، وأنتك تحدثهم فلا تحسن تقدير صوتك على
 مقياس أسماعهم ، فتعلو به عليها ، أو تنزل به دونها ، وأنتك تبتسم
 فى موضع التقطيب ، وتقطب فى موضع الابتسام ، أصبحوا
 ينظرون اليك بتلك العين التى ينظرون بها الى الاطفال
 الصغار ، والبله الاغرار ، فان ألمت بسر نظرتهم هذه اليك
 ألم بك من الحزن والههم مالا طاقة لك باحتماله ، وأصبحت
 ترتاب بكل نظرة تتجه اليك ، وكل ابتسامة تترأى لك ،
 واعتادك سوء الظن بكل جالس يجلس اليك من أصدقائك
 وعشرائك ، بل من أبويك وأهلك ، فلا يكاد يسلم لك
 صديق ، أو يصفو لك حميم

فان فررت من الناس نجاةً بنفسك من لؤمهم وقسوتهم
 فررت الى خلوة موحشة قائمة تترأى لك فيها خيالات

الذكرى المؤلمة كلما وازنت بين حاضرك وماضيك ، وقارنت
بين ما كنت ترجو لنفسك في أيامك الأولى ، وما انتهى إليك
أمرك في أيامك الأخرى ، فلا تنفك خلوة ، ولا يؤنسك
اجتماع

وأخوفُ ما أخاف عليك إن استمر بك هذا الشأن
— ولا أسأل الله لك دوامه — وظلمت تنطق ولا تسمع ،
وتقول ولا تفهم ما يقال ، أن تصبح في يوم من أيامك
لا سامعاً ولا ناطقاً ، فالسمع مادة النطق التي يستمد منها
قوته وحياته ، ومن لا يسمع لا يحسن النطق ، ومن لا ينطق
لا يحسن التفكير

وكثير عليك يا بنى وأنت زهرة يانعة في روض الشباب
وابتسامة لامعة في ثغر الآمال ، وفجر مشرق في سماء الحياة
أن تصعد على هذه الربوة الزاهرة المخضلة من ربى الحياة ، فلا
تلبث إلا قليلا حتى يمر بك فارس الدهر فيختطفك من مكانك
ثم لا يعدو بك إلا قليلا حتى يلقيك على هذه الصخور الصماء

فوارحمته لك يا بنى ممابك اليوم، ومما يستقبلك به الدهر
غداً، فأسأل الله تعالى لك أن يرفع عنك محنتك، أو يمتحك
عيناً ثرّةً من الدمع لا ينضب معينها، تسكب منها صباح
كل يوم ومساءً سجلاً على فؤادك الملتاع فتبرد غلته،
وتفثاً لوعته، فالدموع هي الرحمة العامة التي يلجأ إليها
المنكوبون والمحزونون يوم لا يجدون لأنفسهم في مذهب
من مذاهب الأرض ولا في سبيل من سبيل السماء ناصراً
ولا معيناً، والسلام عليك من الرائي لك، الباكي عليك
ورحمة الله

الى جهاء

جرى بينى وبين أحد الوجهاء المصريين الحديث الآتى
الكاتب — ما هذه الطبقة التى تكسو وجهك فتحجب
منه ما يحجب صفحة السماء ، من السحب السوداء
الوجيه — إن بين جنبيّ هماً يعتلج ، وكمداً يذهب
باللب ، ويطير بشظايا القلب ، وناراً من الحزن متأججة
مضطرمة دخانها هذا الذى تراه

الكاتب — أحق ما تقول وأنت الرجل السعيد بحظه
المغتبط بعيشه ، قصر عُمدان ، وخورنق النعمان ، وحور
وولدان ، وظل ظليل ، ونسيم عليل ، وخزائن تموج بالذهب ،
موج التنور باللهب ، ذلك إلى ما أسبغ الله عليك من صحة
البدن وسلامة الحواس ، وأمدك به من الجاه العريض ، والكلمة
النافذة ، والشفاعة المقبولة ، فليت شرى ما شكاتك بعد ذلك

الوجه — أشكو الفقر الباطن ، فى الغنى الظاهر ،
والشقاء المقبل ، فى السعد المدبر ، وإنى لارى فى السماء غمامة
دكناء توشك أن تنفجر بالصاعقة الكبرى ، والكارثة
العظمى

الكاتب — ما كنت أحسب أن الشقاء يمر لك ببال
بعد ما أعطاك الدهر عهداً مكتوباً بتلك الأحرف الذهبية
ألا يسدد سهمه إليك ، ولا يدور دورته عليك
الوجه — متى كان الدهر عهد يوثق به أو ذمام يعتمد
عليه ؟ فالناس فى يده كالكرة ذات الألوان فى يد الصبي ،
يديرها فترى الأسود فى مكان الأبيض ، والأبيض فى موضع
الأسود ، وكذلك بقية الألوان تملو أسافلها وتسفل أعاليها
ودورة السعود والنجوس أسرع فى عمر الدهر من لمح
الطرف ، ولفتة الجيد

الكاتب — هل لك أن تحدثنى من أى منفذ نفذ الدهر
إليك ، وما عهدتك شارباً ولا عاهراً ، ولا مقامراً ولا مستهتراً

وما للدهر مدخل يتسرب منه الى خزائن الاغنياء غير هذا المدخل

الوجه — أين يُذهب بك أيها الصديق ، وهل يؤتى
 الاغنياء في هذا البلد إلا من طريق المجد الباطل والسمعة
 الكاذبة ، وهل يَكْبُ العظماء على وجوههم ، ويلصق بالرغام
 معاطسهم ، إلا الشغف بنظرة الأمير ، ولفتة الوزير ، وزورة
 المدير ، وأنت تعلم أن رجلا مثلي لا يمكن أن يكون له
 مطمع في المجد الصحيح ، فلستُ بصاحب علم فأنخر به ،
 ولا صاحب قلم فأمتَّ بما يَمْتُّ به أصحاب الاقلام من خدمة
 المجتمع الانساني وتهذيبه ، فلم يبق أمامي غير هذا المجد
 الكاذب ، وهو مجد القربى من الحكام والعمال ، ولا سبيل
 اليه الا ببذل ثمن غال تقصر عنه خزائن قارون وكنوز
 ركفلر ، وقد أنفقت فوق الطاقة . ووراء الفاقة ، في بناء
 القصور نُزُلَا الحكام ، وغرس البساتين منازة لهم ، واعداد

الفرش والآنية لما آدبهم وولأئهم ، فلما نضب معين
الذهب ، وعيت الارض ان تثر فوق ما تثر ، لجأت الى
مصرف من المصارف المالية فأثقلني بالديون ، وأرهقني بالطلب ،
ففزعت منه الى آخر ، ثم الى آخر ، فكنت كناقش الشوكة
بالشوكة . أو غاسل الدم بالدم ، ولو كُشف لك من أمرى
ما كشف لى منه لعلمت أن جميع ما كنت أملك من أطيان
وعقار ، ودور وقصور ، لم يبق لى منه الا تلك الارقام
السوداء المسطورة فى جرائد الصيارف ، وهأنذا اليوم
طريد المصارف والغرماء ، وغريم القضاءين ، قضاء الأرض ،
وقضاء السماء

ذلك كل ما يستفيد الوجهيه من وجاهته قبحها الله وقبح
كل ما تأتى به ، فلا تحسد الوجهيه على مظهره الكاذب ،
وزخرفه الباطل ، ولا تنفَس عليه بؤسه الكامن ، وشقاءه
الخنفي ، فهو أتعس خلق الله ، وأكثرهم هما ، وأثقلهم مؤونة ،
وأخسرهم حاضراً ومستقبلاً ، يكون عنده من الضياع أو

العمائر جملة لا تتمر له من المال أكثر مما يسع ترفيه نفسه
وتربية أولاده وصلة رحمه فيسميه الناس وجهيا ، والوجهة
كلمة صغيرة معناها في نظر الناس كبير ، كأنما هي عندهم من
جوامع الكلم ، فالوجيه في اصطلاحهم هو الرجل الذي يمدُّ
لكل غريب نزل بلده مائدة ، ويسبغ العطاء على كل عابر
سبيل مر بجميّه ، ويشترك في جميع الجرائد والمجلات وان كان
أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ويتبع تذاكر حفلات الجمعيات
الخيرية على اختلاف ألوانها وأشكالها وإن كان لا ينتفع
بواحدة منها ، ويشترك في جمعية الرفق بالحيوان ، وجمعيات
الرفق بالإنسان ، ويتبع المؤلفات الحديثة التي يكافه المدير
أو المأمور باتباعها وان كانت في علم الارتماطيق أو علم المنطق
وكان هو عمدة أو شيخ بلد ، ولا تتم شروط الوجهة عنده
فيأخذ منها بالحظ الأوفر الا اذا بذل للحكومة المعونة
الكبرى في مشاريعها من بناء المستشفيات والمدارس
والكتاتيب وأمثال ذلك مما تضربه الحكومة علينا ضرب الجزبة

على أهل الذمة في سالف الازمان ، والتي لا فرق بينها وبين
نراج الأطيان وعشور النخيل وعوائد الأُملاك

الكاتب — انها تبرعات ومبرات لا اجبار فيها ولا
لزام ، فالحكومة لا تشهر عليكم سلاحاً ، ولا تعد لكم
سجناء ، وكل ما في الأمر أن رجالها يخطبون فيكم ويدعونكم
لى هذه الأعمال الصالحة بالحكمة والموعظة الحسنة

الوجيه — لا أزال أكرر القول إن رجال الحكومة
ضربون علينا ضرائب ليست في شرع ولا قانون ، والوجيه
في الحقيقة كالعبد في اصطلاح علماء التوحيد ، مجبور باطناً مختار
ظاهراً ، أما الظاهر فهو ما ترونه من اقامة المحافل وخطابة
لخطباء والتلطف في الطلب وشكر المحسن على احسانه ،
أما الباطن فهو أن الوجيه منا كما علمت مفاس من جميع
نواع المجد الامجد الزلني عند الحكماء ، والحكام يعرفون ذلك
نه فيدخلون عليه من بابه ، ولا يفتحون له باب القربى منهم
لا على مقدار ما يفتح من أبواب خزائنه لهم ، فمننا

من يزوره المدير أو المفتش ، لانه وهاب الآلاف ، أو المأمور ، لانه من أصحاب المئات ، ومن لا يزوره أحد منهم ولا ينهض له اذا أقبل ، ولا يشيعه اذا انصرف ، لانه لا يلي دعوة ، ولا يحضر مجمعا ، ولا يكتب رقما في قائمة اكتتاب ، فلا يلبث أن يسلس قياده ، ويصحب عناده ، هذا هو الاستبداد الخفي الذي ترغم الحكومة به أنف الوجهاء من غير أن تشهر عليهم سلاحا ، أو تعد لهم سجنا ، ولكنها تبليغ به في شهر واحد ما كانت تعجز عنه حكومة السجن والكرباج و « الوركو » و « البطانا » والعوائد الشخصية في عدة أعوام ، ولقد راجعت صحيفة حسابي في هذا العام عام الازمة والجدب فوجدت اني دفعت خراج الاطيان مرتين ولا أعلم كم ادفعه في السنة الآتية

الكاتب — هب أن الامر صحيح كما تقول فالحكومة لا تودع هذا المال خزائنها ، ولا تقضى به غرضا من أغراضها الخاصة ، وانما تنفقه فيما ينفع الامة في تربيتها وتهذيبها ، وتقدمها وارثائها

الوجيه — ذلك ما يجب أن تنفق عليه الحكومة من خزائنها التي تملأ من أموال الامة لهذه الاغراض التي تذكرها ، ولكنها ترضى بما هي في حاجة اليه لاصلاح السودان وبناء العمارات وتشيد القصور وترقية كبار الموظفين خصوصا الاجانب منهم واقرار عيون السياح الاوربيين بالمناظر البهجة والمشاهد الجميلة ، فلا ترى لها بداً من حمل تلك الحملات على أعناقنا بلا رحمة ولا شفقة ولا نظر الى ما تنكبده في هذا السبيل مما يذيب الشحم ، ويعرق العظم ، وليتها كانت تتدرج في الطلب وتهادن فيه فتدرك في ذلك سياسة الحكومات السالفة المعروفة باستبدادها وارهاقها ، فقد حكى عن أحد رؤسائها أنه علم أن أحد المديرين سلب أهالي مديريته المال دفعة واحدة وانهم ضاقوا به ذرعا فأحضره في مجلسه وامر ان تنزع من لحيته شعرات متفرقة فما أبه لذلك ولا احتفل ، ثم امر ان تنزع من رأسه خصلة من الشعر مرة واحدة فصرخ وتألم ، فقال له هكذا يجب ان يكون اخذ الاموال من الرعية ،

متفرقا تحتمله ، لا مجتمعا تتألم له

الكاتب — حسبك من ذلك ثواب الله واجره على احسانك وبذلك المال في سبيله وللآخرة خير وأبقى
الوجيه — من أين يأتيني الثواب والاجر ، وهل يشاب المرء الا على قدر نيته واخلاصه في عمله ، وإني أعترف لك غنى وعن جميع الوجهاء أمثالى بما عرفت من أحوالهم ، ومارست من طباعهم ، أننا لا نزيد من بذل ما نبذل الا رضا الحاكم ، والتودد اليه ، وموافاة رغبته لاستكمال أسباب الوجهة مرة ، وقضاء المآرب وال حاجات أخرى ، ووالله لقد أفسد علينا هؤلاء القوم بخطتهم هذه غرائزنا وسجاياتنا ، وعودونا من الرياء فى الاحسان والنفاق فى المعاملة خطة قست معها قلوبنا ، واستحجرت أفئدتنا ، حتى إن أحدا ناكاد لا يحسن بالدرهم الواحد الى جاره البائس الفقير الا أمام قاض فطنٍ وشهود عدول ، وحتى زهد فىنا الفقراء ولوت المساكين وجوهها عن أبوابنا ، وجفانا ذوو الرحم والاقرباء ، وأصبحت قصورنا فى نظره قبوراً يستدرون لها الرحمت ،

لامناهل يرجون منها الصدقات ، وأقبرت « مضايقتنا » الا
من عريضة المطربشين ، ورطانة المبرنطين ، فمن أين لثواب
الله ان يعرف طريقنا عافاك الله

الكاتب — اتفضبك كلمة الحق ان قلتها لك أيها
الصديق ؟

الوجيه — قل ما تشاء فقد ملأ الهم ما بين جوانحي
قاستحجر قلبي حتى ما يغضبني حق ولا باطل

الكاتب — أعجب ما رأيت من أمرك في حديثك
معى انك تعرف الحق وتتنكر له كأنك لاتعرفه ، وتمد
يدك الى الصواب حتى تكاد تلمسه ثم تعجز عنه ، فقد زعمت
ان مجد القربى من أولياء الامر مجد باطل ، ولقد أصبت
فيما تقول فما شأنك به ، وما نهوضك اليه ، ومالك والالصوق
بأمر انت تعلم قلة جدواه ، وسوء مغيبته ، ولقد كان لك
طريق مختصر الى المجد الصحيح ، والشرف الصميم ، لو كنت
أكبر منك همة ، واصح رايا ، واقوى عزيمة ، فجد الكرم

ليس بأقل شأنًا من مجد السيف والقلم ، ولا أرى أنك
كنت تنفق في سبيله إلا بعض ما أنفقت في هذا المجد
الكاذب ، وما كان يصيبك في الاول من الشقاء ما أصابك
في الثانى ، فالكریم معان على أمره ، مبارك له فى عيشه ، متى
صح له معنى الكرم ، وكانت الرحمة غريزة من غرائزه تسوقه
إلى تفقد الضعفاء ، ومواساة الفقراء ، من حيث لا يبتغى
على ذلك أجراً سوى ما وعد الله به المحسنين من حسن
الثوبة والاجر ، ورفع الذكرى فى الآخرة والأولى ،
ولكنكم بخلتم بأموال الامة عليها ، واحتجنتموها من دونها ،
وأبت لكم همتمكم الضعيفة أن يكون لكم كما لامثالكم فى
الامم الاخرى آثار فى بناء المدارس والملاجىء والمستشفيات
تسمى بأسمائكم ، وتُسجل فى صحيفة أعمالكم ، فتنالون
بها ما تريدون من مجد الدنيا والآخرة ، فعاقبكم الله على
ذلك بأن سلط عليكم من يعث بعقولكم ، ويلعب

بأهوائكم ، ويرغمكم على الاحسان ارغاما ، من حيث
يكون له النعم ، وعليكم الغرم ، فلا ذكراً حصلتم ،
ولا مالا حفظتم ، وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما
كانوا يكسبون



حرجى زیدان

لا أعلم أين تذهب نفس الانسان بعد موته ، ولا
 بن مكانها الذى تستقر فيه بعد فراق جسدها ، ولا ماهى
 صلة التى تبقى بين المرء وبين حياته الاولى بعد رحيله عنها ،
 ان كان صحيحاً ما يقولون من أن ساكن القبور يستطيع
 ان يجد بين صخورها ورجامها منفذا يشرف منه على
 هذه الدار فيسره ما ترك وراءه فيها من ذكر جميل ، وثناء
 اطر ، وسيرة صالحة ، ومجد باق ، فان نصيب حرجى زیدان
 يوم من الهناء والغبطة بما ترك فى حياته الاولى من جليل
 لا تار ، وصالح الاعمال ، أوفر الانصبة وأجزلها
 ما أنعم الله على عبده نعمة أسنى قيمة ، ولا أغلى جوهرأ ،
 لا أحسن أثراً ، من نعمة اليقين بالجزاء الصالح على العمل
 لطيب ، فهو يعتقد أنه مجزى على عمله ، مكافئ به ، مؤمناً كان

أم ملحدًا ، معترفًا بنعيم الآخرة أم منكرًا له ، فإن كان
الاول ساقه إلى العمل الصالح شغفه بجنة الخلد وحوورها
وولدانها ، ولؤلؤها ومرجانها ، وروحها وريحانها ، وإن كان
الثانى ساقه اليه شغفه بالذكر الجميل ، والسيرة الصالحة ، والحياة
الباقية فى السنة الاجيال ، وبطون التواريخ ، ولولاهاتان
الجتان ، جنة المؤمنين ، وجنة الملحدين ، مآجدًا فى هذه الحياة
جاذ ، ولا عمل فيها عامل

إن ميدان الحياة أضيق من أن يسع بين غايته العمل
الصالح والجزاء عليه معاً ، وكيف يسعها والمرء لا يكاد
يفرغ فى حياته من عمله الذى يتوقع عليه الجزاء قبل أن
تنطفىء ذبالة حياته ، وتحترق فحمة شبابه ، حيث تموت فى قلبه
لذة العظمة ، وتمضب فى فؤاده شهوة المجد ، فإن فرغ منه
قبل ذلك لا يترك له حساده ومنافسوه ساعةً من ساعات
فراغه يستطيع أن يسكن فيها إلى نفسه ، ليستشعر برد
الراحة ، ولذة الجزاء ، فلا بد أن يكون للجزاء حياة أخرى

غير هذه الحياة ، إما حياة الاجر ، أو حياة الذكر
 مات جرجى زيدان فنحن نبكيه جميعا ، أما هو
 فيبتسم لبكائنا ، ويرى فى تفجعنا عليه والتياغنا لفراقه منظرًا
 من أجمل المناظر وأبهأها ، لأنه يعلم أن هذه الدموع
 التى نرسلها وراء نعشه أو نطرها فوق ضريحه إنما هى السنة
 ناطقة بحبه وإعظامه ، والاعتراف بفضله ، والثناء على عمله ،
 وأنها المداد الالهى النورانى الذى تُكتب به فى صحيفة
 تاريخه البىضاء آياتُ مجده الخالد ، وعظمته الباقية ، وذلك
 ما كان يريد أن يكون

مات جرجى زيدان فبكاء صديقه لأنه كان يحمد
 وده وإخاءه ، وبكاء جاره لأنه كان يجد فى جوار دلذة الانس ،
 وجمال العشرة ، وبكاء معتفيه لأنه كان ينتفع بماله ، وبكاء
 صنيعته لأنه كان ينتفع بجأهه ، وبكاء قارئ كتبه لأنه كان
 يجد فيها من غزارة المادة ، وجمال الاسلوب ، وسهولة التناول ،
 مالا يجد فى غيرها ، وبكاء قارئ رواياته لأنه كان يجد

فى خيالها ، وبراعة تصوراتها ، عوناً له على هموم الحياة
وآلامها ، أما أنا فبكيته لامر فوق ذلك كله

تطلع الشمس صباح كل يوم من مشرقها على هذه
الكائنات ناطقتها وصامتة ، ساكنها ومتحركها ، جامدها
وسائلها ، فتستمد جميع ذراتها منها مادة حياتها التى تقوِّمها ،
أو صورتها التى تتشكل بها ، وتأخذ منها الأعراسُ نساءها ،
والازهار ألوانها ، والنار حرارتها ، والاجسام الحية قوتها ،
والاجسام الجامدة صورتها ، والاجواء طهارتها ونقاءها ،
والآفاق جمالها وبهاءها ، وكذلك كان جرجى زيدان فى سماء
هذا البلد

كان بطلا من أبطال الجد والعمل ، والهمة والنشاط ،
يكتب أحسن المجلات ، ويؤلف أفضل الكتب ، وينشئ
أجمل الروايات ، ويناقش ويناضل ، ويبحث وينقب ، ويستنتج
ويستنبط ، ويجيب السائل ، ويفيد الطالب ، فى آن واحد ،
لا يشغله شأن من تلك الشؤون عن غيره ، ولا يشكو

مللا ولا ضجرا ، ولا يستشعر خوراً ولا فتورا ، فكان القدوة الحسنة بين فريق المستنيرين من المصريين ، يتعاملون منه أن قليلا من العلم يتعهده صاحبه بالترية والتغذية ثم يقوم على نشره وإذاعته بين الناس أنفع له ولأمته من العلم الكثير ، والعمل القليل

ولو شئت أن أقول لقلت إن جرجى زيدان كان رئيس البعثة العلمية السورية التى وفدت إلى مصر فى أواخر القرن الماضى فغيرت وجه العالم المصرى تغييراً كلياً ، وغرست فى صحرائه القاحلة المجدبة أغراس الجد والعمل ، والشجاعة والاقدام ، والهمة والاستقلال ، وعلمت أبناءه كيف يؤلفون ويترجمون ، وينشئون الجرائد والمجلات ، وكيف يتخذون من هذا العمل الشريف صناعةً يقوّمون بها حياتهم المادية ، وحياة أمتهم الأدبية ، ويتقنون بهامذلة الوقوف على أبواب الدواوين صباح مساءً ، يتكففون رؤساءها ، ويسألونهم أن يتخذوهم عبيداً لهم يخدمونهم على موائد عزهم وسعادتهم التى يجلسون

عليها ، فإِما عطفوا عليهم فألقوا اليهم بالنزر الخسيس من
فُتات تلك الموائد ، وإِما طردوهم منها كما يطردون الكلاب
العاوية

وكان شريف النفس ، بعيد الهمة ، متجملا بصفات
المؤرخ الحقيقى الذى لا يتشيع ولا يتحيز ، ولا يداهن ولا
يجمال ، ولا يترك لعقيدته الدينية مجالا للعبث بجوهر التاريخ
وحقائقه ، فكتب وهو المسيحى^١ الارثوذكسى تاريخ الاسلام
فى كتبه ورواياته كتابة العالم المحقق الذى لا يكتفى الحسنه اذا
راها ، ولا يشمت بالسيئة اذا عثر بها ، فاجتمع بين يديه فى
مجلس علمه من أبناء الامة الاسلاميه خاصتها وعامتها ، عربها
وعجمها ، جمع^٢ لم يجلس مثله بين يدي عالم من علماء الاسلام ولا
مؤرخ من مؤرخيه فى هذا العصر ، فأقام بهذا العمل العظيم
لهذا الدين القويم حجته أمام أولئك المتعصبين من الاوربيين
الذين لا يثقون فى خبر من أخباره ، ولا فى بحث من أبحاثه ،
بحديث شيعته وأبنائه ، وكان فى تسامحه هذا القدوة الصالحة

للمؤرخ يتعلم منه كيف يكتب التاريخ باسان التاريخ ، لا بلسان الدين ، والمثل الاعلى للعالم يتعلم منه كيف يستطيع أن يتجرد من عواطفه ، وميول نفسه ، وخواطر قلبه أمام الامانة للعلم ، والوفاء بحقه

وكان مستقيما في عمله ، أميناً في علاقته ، لا يكذب ، ولا يتلون ولا يخيس بعده ، ولا ينكث وعده ، ولا بكسو بضاعته لونا غير لونها ليزخر فيها على الناس ويحملها في عيونهم ، فتعلم منه العاملون أن الكذب في المعاملة ليس شرطا من شروط الربح ، ولا سبباً من أسباب النجاح

وكان واسع الصدر ، فسيح رقعة الحلم ، وقف له في طريق حياته كما وقف لغيره من قبله ومن بعده فريق المقاطعين في هذا البلد الذين لا ينطقون ، ولا يسكتون عن مقاطعة الناطقين ، فلبسوا ثوب الانتقاد ليشتموه ، وكنوا وراء أكمة الدين ليرموه فيصموه ، وقالوا إنه شوه وجه التاريخ الاسلامي ،

وعبث بحقائقه ، ولم يسأله من أين نقل ، ولا كيف استند ، بل سأله لم لم يكتبه كما كتبوا ، ويستنتج منه مثل ما استنتجوا ، كأنما لم يكفهم منه أن يروه بينهم مسيحياً متسامحاً ، حتى أرادوا منه أن يكون مساماً متعصباً ، يكتب التاريخ بلسان الدين كما يكتبون ، وينهج فيه كما ينهجون ، فلما لم يجدوه حيث أرادوا رموه بسوء القصد فى عمله ، وخبث النية فى مذهبه ، ولم يستطيعوا أن يروضوا أنفسهم الخماحة على أن يقولوا إن الرجل باحث مستنتج ، يخطئ مرة ، ويصيب أخرى ، أو يقولوا إن له فى تاريخ الاسلام حسنات تصغر بجانبها سيئاته فيه فلنغتفر هذه لتلك ، وما أحسب أن أحداً منهم كان يعتقد شيئاً مما يقول ، ولكمهم كانوا يرون أن الدين سلعة تباع وتشترى ، وأن سلعته ملك لهم ، ووقف عليهم ، لا يجب أن تعرض فى حانوت غير حانوتهم ، وكانوا يظنون أن الرجل تاجر مثلهم يريد أن يفتح فى سوقهم الحانوت التى يخافونها ، فاستوحشوا منه ، وأنكروا مكانه ، واستنقلوا ظله ، وقالوا مرة

إنه مسيحي لا يؤمن على الاسلام ولا على تاريخه ، كما نأمنوا
 انه ينقل حوادث التاريخ ووقائعه من توراة موسى أو إنجيل
 عيسى ، وقالوا أخرى انه سورى دخیل وفد على هذا البلد
 مسترزقا أو متجرا ، فاهو بمخلص ولا بأمين ، وفاتهم عفا الله
 عنهم أنه إن كان ضيفاً فليس من أدب الضیافة ، ولا من خلال
 المروءة والكرم ، أن یمن المضيف على ضیفه بيده عنده ، وأن
 يعد عليه لقيامته التي یطعمها على مائدته ، وان كان تاجراً فقد
 باعهم بهذا النزر الخسيس من متاع الدنيا وزخرفها جوهر
 عتمه ، وينبوع ذكائه ، ومادة حياته ، فما كانوا من الخاسرين ،
 ولا كان من الراجين

ووالله ما أدري كيف تتسع صدورهم للخمار الرومی
 والاص الايطالی والفاجر الأرمنی أن یفتح كل منهم في كل
 موطن قدم من مدنهم وقراهم حاناً یسلب فيه عقولهم ، أو
 مقمرایسرق فيه أموالهم ، أو ما خورا یهتك فيه أعراضهم ،
 فلا یطاردونه ولا یحاربونه ، ولا یسمونه دخيلاً ولا واعلاً ، ثم

يضيقون ذرعا بالعالم السورى أو العراقى أو المغربى ينزل أرضهم
نزول الديمة الوطفاء بالعسجاء المحرقة ، فيعلمهم العلم ، ويهذب
نفوس أبنائهم ، ويشقف عقول ناشئتهم ، ويبعث فى نفوس
ضعاف الغزائم منهم روح الهمة والنشاط ، والشجاعة والاقدام
ذلك هو شقاء الامم ، وهذا جواب السائلين عن
أسباب سقوطها وانحطاطها

لم يضق الرجل ذرعاً بهذا كله ، بل كان شأنه معهم أن
كان يعتب عليهم ، ولا يشتمهم ، وينبهم الى أدب المناظرة
وواجباتها ، ولا يؤنبهم ، ويدعوهم الى اتخاذ كلمة الحق سواء
بينه وبينهم ، ولا يمكر بهم ، حتى انقلب عنهم يحمل لواء
الفضيلة والحلم ، وان كان مخطئاً ، وانقلبوا عنه يحملون فوق
ظهورهم رذيلة التعصب والجهل ، وسوء الخلق ، وضيق
العطن ، وان كانوا مصيبين

ولقد وضع بخطته هذه فى مناظرة خصومه ومجادلتهم
أول حجر فى بناء الاخلاق الفاضلة فى هذه الامة ، فتعلم منه

كثير من أدباء هذا البلد وعلمائه كيف يستطيعون أن يتناظروا ولا يتشائموا، وأن يتعاونوا على الحقيقة المبهمة فيكشفوا الغطاء عن وجهها دون أن يريقوا في معاركهم قطرة واحدة من دم الفضيلة والشرف، فإن تم لهذه الامة فى مستقبل حياتها حظها من شرف الاخلاق وعلو الهمة ونبالة المقصد فى جميع شئونها وأغراضها فلتتذكر دائماً ان جرجى زيدان كان أحد الذين أسسوا فى أرضها هذه الدولة الفاضلة، دولة الآداب والاخلاق

نحن لا نعوزنا المؤلفات ولا المترجمات، فالمؤلفون والمترجمون والحمد لله كثيرون، وانما الذى يعوزنا روح عالية تخفق فى سماء هذه الامة خفوق النجم الزاهر فى سمائه، وتشرق فى نفوس أبنائها إشراق الشمس فى دارتها، فتبعث العزيمة فى قلب العاجز، والشجاعة فى فؤاد الجبان، وتقوم من الاخلاق معوجها، وتصلح من الآداب فاسدها، وتثبت من العقول مضطربها، وتعلم كل صغير وكبير، وقوى وضعيف، أن

قيمة المرء في حياته أداء واجبه للانسانية أولاً ، ولا مته ثانياً ،
ولنفسه أخيراً ، وأن الحب سعادة الانسان ، والبغض شقاؤه
وبلاؤه ، وأن الفرق بين الدين الخالص والدين المشوب أن
الاول يتسع صدره لكل شيء حتى لمخالفه ومحاربه ، وأن
الثاني يضيق صدره بكل شيء حتى بنفسه ، وأن الله تعالى
أوسع رحمة ، وأعلى حكمة ، من أن يسد في وجوه عباده كل
طريق للوصول اليه إلا طريق السيف والنار ، وأن هذه
الاحقاد الدينية التي تلهب في صدور الناس التهاباً لا تؤججها
في صدورهم الاديان نفسها ، بل رؤساء الاديان الذين
يستخدمونها ويستثمرونها ، ويتجرون بها في أسواق الغباوة
والجهل ، وأن الذين يقدسون هذه الاحقاد ويباركونها ،
ويعتبرونها جزءاً من ماهية الدين ، ومقوماً من مقوماته ،
انما يقولون من حيث لا يشعرون إن الاحاد في العالم ،
والفوضى الدينية فيه ، وعبادة الشمس والقمر ، والترب
والحجر ، أنفع للمجتمع الانساني ، وأحسن عليه عائدة
من عبادة الاله المعبود

ولقد كان جرجى زيدان روحاً من تلك الارواح العالية
 تمنيناها برهة من الزمان حتى وجدناها فلم تنعم بها إلا قليلاً ثم
 فقدناها أحوج ما كنّا اليها ، فذلك ما يبكيها عليه ويحزننا
 على فراقه



الكاتب كالمصور ، كلاهما ناقل ، وكلاهما حاك ، الآن
 الاول ينقل مشاعر النفس إلى النفس ، والثاني ينقل
 مشاهد الحس إلى الحس
 وكما أن ميزان الفضل في التصوير أن تكون الصورة
 والاصل كالشيء الواحد ، كذلك ميزان الفضل في الكتابة
 أن يكون المكتوب في الطرس ، خيال المكنون
 في النفس

بهذه العين التي لا أزال أنظر بها دائماً إلى الكتابة
 والكتاب ، وأوازن بها بين أقدارهم ومنازلهم ، كنت أقرأ

ذلك الاسلوب العذب البديع الذى كان يكتب به المرحوم جرجى زيدان كتبه ورواياته ، فاتحيله مرآة نقية صافية قد ارتسمت فيها صورة نفسه جليلة واضحة لاغموض فيها ولا إبهام

وقليلا ما كنت أجد فى نفسى هذا الشعور عند النظر فى كتابة كاتب سواه ، لان الكاتب ان استطاع أن ينال ثناء الناس وإعجابهم ببلاغة لفظه ، أو براعة معناه ، أو سعة خياله ، أو قوة حجته ، فانه لا يستطيع أن ينال الثقة من نفوسهم الا اذا كان من الصادقين المخلصين

كنت أرى عذوبة نفسه فى عذوبة لفظه ، وطهارة قلبه فى طهارة لسانه ، وصفاء ذهنه فى وضوح أغراضه ومراميه ، وجمال ذوقه فى جمال ملاحظاته واستنتاجاته ، وكان خير ما يعجبني منه ترفعه عن مجازاة المتكبرين من الكتاب فى كبريائهم ، ونزوله فى كثير من مواقفه الى منازل العامة ليحدثهم بما يفهمون ، لانه كان من كتاب المعانى

لا من كتاب الالفاظ ، ولا أنه كان يؤثر أن يتعلم عنه الجاهلون ،

على أن يرضى عنه المتحذلقون

وان كان الرجل هو الاسلوب كما يقولون ، فلا أعلم أن

أحدا في هذا البلد كان أولى بوصف الكاتب من المرحوم

جرجى زیدان ، فوارحمته له ، ووالأسفأ عليه



احترام المرأة

نعم إن الرجال قوامون على النساء كما يقول الله تعالى
 في كتابه العزيز ، ولكن المرأة عماد الرجل ، وملاك أمره ،
 وسر حياته ، من صرخة الوضع ، الى أنة النزاع
 لا يستطيع الأب أن يحمل بين جانحيه لطفه الصغير
 عواطف الأم ، فهي التي تحوطه بعنايتها ورعايتها ، وتبسط
 عليه جناح رحمتها ورأفتها ، وتسكب قلبها في قلبه حتى يستحيل
 إلى قاب واحد ، يخفق خفوقاً واحداً ، ويشعر بشعور واحد ،
 وهي التي تسهر عليه ليائها ، وتكلؤه نهارها ، وتحتمل جميع آلام
 الحياة وأرزائها في سبيله ، غير شاكية ولا متبرمة ، بل تزداد
 شغفاً به ، وإيثاراً له ، وضناً بحياته ، بمقدار ما تبذل من الجهود
 في سبيل تربيته ، ولو شئت أن أقول لقلت إن سر الحياة
 الانسانية ، وينبوع وجودها ، وكوكبها الأعلى الذي

تنبعث منه جميع أشعتها ، ينحصر في كلمة واحدة (قلب الام)
لا يستطيع الرجل أن يكون رجلا حتى يجد إلى جانبه
زوجة تبعث في نفسه روح الشجاعة والهمة ، وتفرس
في قلبه كبرياء التبعة وعظمتها ، وحسب المرء أن يعلم أنه
سيد وأن له رعية كبيرة أو صغيرة تضع ثقتها فيه ، وتستظل
بظل حمايته ورعايته ، وتعتمد في شؤون حياتها عليه ، حتى
يشعر بحاجة إلى استكمال جميع صفات السيد ومزاياه
في نفسه ، فلا يزال يعالج ذلك من نفسه ويأخذها به أخذاً
حتى يتم له ما يريد ، وما نصح الرجل بالجد في عمله ، والاستقامة
في شؤون حياته ، وسلوك الجادة في سيره ، ولا هداد إلى التدبير
ومراياه ، والاقتصاد وفوائده ، والسعى وثمراته ، ولا دفع به
في طريق المغامرة والمخاطرة ، والدأب والمثابرة ، مثل دموع
الزوجة المهلة ، ويدها الضارعة المبسوطة .

ولا يستطيع الشيخ الفاني أن يجد في أخريات أيامه
في قاب ولده الفتى من الحنان والعطف ، والحب والاثار ،

ما يجد في قلب ابنته الفتاة ، فهي التي تمنحه يدها عكازاً
لشيخوخته ، وقلبها مستودعاً لأسراره ، وهو اجس نفسه ،
وهي التي تسهر بجانب سرير مرضه ليلا كلة تتسمع أنفاسه ،
وتصفي إلى أناته ، وتحرص الحرص كله على أن تفهم من
حركات يديه ، ونظرات عينيه ، حاجاته وأغراضه ، فاذا نزل
به قضاء الله كانت هي من دون ورثته جميعا الوارثة
الوحيدة التي تعد موته نكبة عظي لا يهونها عليها ، ولا
يخفف من لوعها في نفسها ، أنه قد ترك من بعده ميراثاً
عظيماً ، وكثيراً ما سمع السامعون في بيت الميت قبل أن
يجف تراب قبره أصوات أولاده يتجادلون ويشتجرون
في الساعة التي يجتمع فيها بناته ونساؤه في حجراتهن نائحات
بأكيات

وجملة القول أن الحياة مسرات وأحزان ، أما مسراتها
فمن مدينون بها للمرأة ، لأنها مصدرها وينبوعها الذي
تدفق منه ، وأما أحزانها فالمرأة هي التي تتولى تحويلها

إلى مسرات، أو ترويحها عن نفوس أصحابها على الأقل، فكأننا
مدينون للمرأة بحياتنا كلها

وأستطيع أن أقول وأنا على ثقة مما أقول إن الأطفال
الذين استطاعوا في هذا العالم أن يعيشوا سعداء معنيًا بهم
وبتريتهم وتخريجهم على أيدي أمهاتهم بعد موت آبائهم
أضعاف الذين نالوا هذا الحظ على أيدي آبائهم بعد فقد
أمهاتهم، ولارحمة الأمومة الفضل العظيم في ذلك

فليت شعري هل شكرنا للمرأة تلك النعمة التي
أسدتها إلينا وجازيناها بها خيرًا؟

لا لا، لانتا إن منجناها شيئًا من عواطف قلوبنا،
وخوارج نفوسنا، فانتا لانتجها أكثر من عواطف الحب
والود، ونضن عليها كل الضن بعاطفة الاحترام والاجلال،
وهي إلى نهلة واحدة من نهلات الاجلال والاعظام أحوج
منها إلى شؤبوب متدفق من الحب والغرام

قد نحمو عليها وزحمها، ولكنها رحمة السيد بالعبد،

لأرحمة الصديق بالصديق ، وقد نصفها بالفة والطهارة ،
ومعنى ذلك عندنا انها عفة الخدر والخباء ، لاعفة النفس
والضمير ، وقد نهتم بتعليمها وتخريجها ولكن لا باعتبار أنها
انسان كامل لها الحق فى الوصول إلى ذروة الانسانية
التي تريدها والتمتع بجميع صفاتها وخصائصها ، بل نعمهد اليها
بوظيفة المربية أو الخادم أو الممرضة ؛ أو لنتخذ منها مائة
لا نفسنا ، ونديما لسمرنا ، ومؤنساً لوحشتنا ، أى إننا ننظر
اليها بالعين التي ننظر بها إلى حيواناتنا المنزلية المستأنسة ،
لانسدى اليها من النعم ، ولا نلجع عليها من الحلال ، إلا ما ينعكس
منظره على مرآة نفوسنا فيملؤها غبطة وسروراً

إنها لا تريد شيئاً من ذاك ، إنها لا تريد أن تكون
سُرِّيَّة الرجل ولا حَظِيَّة ، ولا أداة لهواه ولعبه ، بل صديقه
وشريكة حياته

انها تفهم معنى الحياة كما يفهمها الرجل ، فيجب أن
يكون حظها منها مثل حظه

إنها لم تخلق من أجل الرجل ، بل من أجل نفسها ،
فيجب أن يحترمها الرجل لذاتها لا لنفسه

يجب أن ينفس عنها قليلا من ضائقة سجنها لتفهم أن
لها كيانا مستقلا ، وحياة ذاتية ، وانها مسئولة عن ذنوبها
وآثامها أمام نفسها وضميرها ، لا أمام الرجل

يجب أن تعيش في جو الحرية الفسيح ، وتستروح
رائحته الاريجية ، ليستيقظ ضميرها الذي أخمد السجن
والاعتقال من رقدته ، ويتولى بنفسه محاسبتها على جميع أعمالها ،
ومراقبة حركاتها وسكناتها ، فهو أعظم سلطانا ، وأقوى يدا ،
من جميع الوازعين والمسيطرين

يجب أن نحترمها لتعود احترام نفسها ، ومن احترام
نفسه كان أبعد الناس عن الزلات والسقطات

لا يمكن أن تكون العبودية مصدراً للفضيلة ، ولا
مدرسة لتربية النفوس على الاخلاق الفاضلة ، والصفات
الكريمة ، إلا إذا صح أن يكون الظلام مصدراً للنور ،

والموت علة للحياة ، والعدم سلباً إلى الوجود
 كما لا أريد أن تتخلع المرأة وتستهر ، وتهيم على وجهها
 في مجتمعات الرجال وأنديتهم ، وتمزق حجاب الصيانة والعفة
 المسبل عليها ، لذلك لأحب أن تكون جارية مستعبدة
 للرجل ، يملك عليها كل مادة من مواد حياتها ، ويأخذ عليها
 كل طريق حتى طريق النظر والتفكير

وبعد فالما أن تكون المرأة مساوية للرجل في عقله
 وإدراكه ، أو أقل منه ، فإن كانت الأولى فليعاشرها معاشرة
 الصديق للصديق ، والنظير للنظير ، وإن كانت الأخرى
 فليكن شأنه معها شأن المعلم مع تلميذه والوالد مع ولده ،
 أى إنه يعلمها ويدربها ، ويأخذ بيدها حتى يرفعها إلى مستواه
 الذى هو فيه ، ليستطيع أن يجمد منها الصديق الوفى ، والعشير
 الكريم ، والمعلم لا يستعبد تلميذه ولا يستذله ، والأب
 لا يحتقر ابنه ولا يزدريه

الانتقام

« مترجمة »

١

قضى المسيو « كابريني » برهة طويلة من أيام حياته سعيداً مغتبطاً بزوجة جميلة وثروة صالحة وخلق طيب شريف يحببه إلى الناس جميعاً ، ثم نكبه الدهر نكبة عظمية ذهبت بماله وبزوجته ، فبكاها ماشاء الله أن يفعل ، ثم تبلى حزنه كما تبلى جميع الأحران في قلوب الناس ، ولم يجد بداً من أن يعيش لابنته « إيلين » ليتولى تربيتها وإسعادها ، فالتحق بمصرف من المصارف المالية بمرتب قليل ، ثم لم يزل يجد ويجتهد في خدمة العمل الذي وُكل إليه حتى أصبح بعد مدة قصيرة وكيلاً لذلك المصرف ، فكان يعمل فيه سحابة (٢٠ لك — انظرات) .

نهاره ثم يعود ليلاً إلى منزله فيرى ابنته منهوكة مضغضة
للكثرة ما كانت تبذل من الجهد في خدمة المنزل ومناظرة
شؤونه ، فرأى أن يتزوج ليخفف عنها بعض متاعبها وآلامها
ففعل ، وكان سيء الحظ في اختياره ، فتزوج من امرأة فاسدة
خليعة لاهم لها في حياتها سوى ترفيه عيشها ، وتدليل نفسها ،
والتقلب بين أعطاف شهواتها ولذائذها ، فلم ينتفع منها بشيء ،
بل زادت همومه وآلامه وأثقال عيشه ، ولكن ماذا يعمل
وقد وضعت السلسلة في عنقه وانتهى الأمر ، وأصبحت
ابنته بعد أن كانت سيدة بيتها ، وأميرة نفسها ، أسيرة
في يد امرأة قاسية داهية تسومها أنواع الخسف ، وألوان
العذاب ، فكانت تحتمل ذلك كله بصبر وجلد ، وكانت
تكتمه أباهاً كتماناً شديداً ضارباً برأحه وسكونه ، بل كانت
تكتم عنه علائق زوجته وصلاتها بمعارفها وأصدقائها ، رحمة
به واشفاقاً عليه

وكثيراً ما كان يعود إلى منزله في بعض لياليه حاملاً

بعض دفاتر المصرف في يده لیتتم فيها العمل الذى أعجبه ،
الوقت عن إتمامه هناك ، فيجلس إلى مكتبه ساهراً ليله ،
مكباً على عمله ، ذائداً النوم عن عينيه ، حتى يغلبه على أمره ،
فينام فى مكانه والقلم معلق بين أصابعه فى الساعة التى تكون
فيها زوجته بن جمع من أصدقائها وعشرائها فى بعض الملاعب
أو الحانات راقصة لاهية عابثة بجميع الفضائل الانسانية ،
فاذا استيقظت ابنته أثناء الليل ورأته على هذه الحالة مشت
اليه برفق وهدوء ، وجاست على كرسى أمامه ، واجتذبت
اليها الدفتر الذى بين يديه وأتمت فيه العمل من حيث قطعه ،
ثم توقظه بعد ذاك لينام فى فراشه فيشكر لها يدها ومعونتها ،
ثم يسألها سؤال الممتعص المتمرمر : ألم تعد فلانة حتى
الآن ؟ فنجيبه أن لا ، فيذهب إلى سريره حاملاً بين جنبيه
من الهم والألم ما الله به عليم

وجملة القول أن الرجل كان شقيماً منجوساً ، يسير من
شؤون حيانه فى ظلمة داجية لا ينتهى بصره فيها إلى مدى ،

ولا يرى في سماءها نجماً يتنوره إلا ذلك النجم الضئيل الذي كان يلمع من حين إلى حين في جبين ابنته الراحمة الشفوقة ، فيتنفس أمامه تنفس الراحة ، ويأذن لفمه أن يبتسم في ضوءه ابتسامة الغبطة والسرور

فانه لجالس ذات يوم في غرفة مكتبه من المصرف إذ دعاه اليه مديره وأعطاه ورقة مالية قيمتها خمسة آلاف فرنك ليودعها الخزينة ويسجلها في دفاتر المصرف ، فتناولها منه وعاد بها إلى غرفته ووضعها على مكتبه وتناول الدفتر ليقيدها ، فما أمسك القلم بيده حتى دخل عليه بواب المصرف وقال له إن فتاة من هيئتها كيئت وكيئت واقفة بالباب تسأل عنك وهي تكتم اسمها وتأبى الدخول إلى هنا ، فاضطرب اضطراباً شديداً ، ومر بخاطره انها ابنته ، وأن حادثاً عظيماً حدث بالمنزل دعاها إلى الحضور إليه في المصرف وما حضرت إليه فيه قبل اليوم ، فترك كل شيء في مكانه وخرج مسرعاً ليراها ، فاذا هي بعينها واقفة بجانب الجدار وقفة الحياء

والخجل ، وإذا بيدها كتاب تحمله إليه من زوجته ، فاختطفه منها وقرأه فإذا هي تقول له فيه إنها تريد أن يرسل إليها في هذه الساعة أربعة آلاف فرنك لتبتاع بها حلة جميلة رأتها في بعض المخازن ، وإنها إن فاتها أن تبتاعها اليوم فربما لا تجد لها غداً ، فانفجرت شفتاه عن ابتسامة الغيظ والألم ، وأخذ ابنته ناحية وقال لها بلغني أنني لأملك هذا المبلغ اليوم ولا غداً ، ولا أستطيع ذلك العام كله ، ثم ألقى عليها نظرة العاتب لحضورها إليه في المصرف وكان لا يجب ذلك منها ، فأطرقت برأسها ، ولم تقل شيئاً ، لأنها لا تستطيع أن تقول له إن زوجته هي التي أرغمتها على ذلك ، فتزيد همومه هاجديداً ، ثم عادت أدراجها وكان بين عمال المصرف عامل سيء الأخلاق ، فاسد النفس والضمير ، مازال منذ دخل هذا المكان يرصد الغفلة من مديره أو وكيله عليه يتوصل إلى اختلاس شيء من المال ، فدخل غرفة الوكيل في اللحظة التي خرج فيها لمقابلة ابنته

ليقدم إليه بعض الأوراق فلم يجده ، ولمح الورقة المالية التي تركها على المكتب ، فحدثه نفسه باختلاسها ، فدار بنظره ههنا وههنا ثم انقض عليها ووضعها في جيبه ، وخرج متسللا لم يشعر أحد بدخوله ولا بخروجه ، وما هي إلا لحظة حتى عاد المسيو « كابريني » وفي يده الكتاب الذي أرسلته إليه زوجته فزقه وألقى به في السلة ، ثم ألقى نظره على المكتب فلم ير الورقة المالية حيث تركها ، فذعر ذعراً شديداً ، وأخذ ينتش عنها في كل مكان فلم يجدها ، فاشتد حزنه وهمه ، وأخذ يسأل العمال والخدم عن دخل غرفته في غيابه فلم يعترف له بذلك أحد ، فظل يصرخ صرخات عظمى تقيم المصرف وتقعده ، فسمع المدير الضوضاء فحضر ليرى ماذا حدث ، فأفضى إليه الرجل بالقصة كما هي لم يكتمه منها شيئاً إلا أن لم يشأ أن يخبره بموضوع الرسالة التي جاءت فيها ابنته ضنا بأسرار البيتية أن يعلمها أحد غيره ، فارتاب به الرجل ، وما كان يعتدُّ عليه بسيئة قبل اليوم ،

ولا يعرف له ماضياً مريباً ، ولكنه ، كان يعلم أنه فقير
مقل ، فظن به الظنون ، وقديماً كان الفقر ينبوع التهم ،
ومشار الشكوك والريب ، وتركه مكانه وخرج إلى
العمال واخدم يحادثهم في هذا الشأن وله يصل إلى معرفة
الحقيقة ، فأخبره البواب أن الفتاة التي حضرت إليه
كانت تحمل في يدها كتاباً ، وأنه أخذها جانباً وأسر
إليها حديثاً لم يسمع منه شيئاً ، فازداد شكه وارتياحه ، وعاد إليه
فوجدده واقفاً في مكانه مذهولاً لا يقاب كفيه ، فلم يقل له شيئاً ،
وأخذ يدور بعينه في أنحاء الغرفة ويقاب بيده الأوراق
عليه يعثر بذلك الكتاب الذي أخبره به البواب فلم يجده ،
فالتفت نظره على السلة فرأى تلك المِزَقَ الصغيرة تجمعهما ، فإذا
هي الكتاب الذي يريده ، فقرأه ثم ألقى على الرجل نظرة
شرراء وقال له إني أتهمك يا مسيو كابريني بأنك اختلست
تلك الورقة وأرسلتها إلى زوجتك مع ابنتك لتبتاع بها الحلة
الجميلة التي أعجبت بها ، فدهش الرجل دهشة عظيمة ، وورد عليه

مطار بابيه ، وأخذ عاياه أنفاسه ، فصمت لحظة ، وبعد لأي مآ استطاع أن يقول له : نعم إنها أرسلت إلى هذا الكتاب ولكنى لم أحفل به ، ولم أرسل إليها شيئا ، بل رددتها ردّا قبيحا ؛ لأننى رجل فقير لا أملك هذا المقدار ، ولأننى رجل شريف لا أختلسه ، فلم يحفل الميسو « لورين » بدفاعه ولم يرث لضراسته واسترحامه ، ولم يلبث أن رفع أمره إلى القضاء فما أتى آخر النهار حتى كان الرجل فى السجن ، وكانت ابنته المسكينة فى حال من الهم والحزن تستشير الاشجان ، وتستذرف العبرات ، أما زوجته فلم يكن يهمها فى تلك الساعة شىء سوى السعى للحصول على ثمن الحلة الجميلة من طريق غير هذا الطريق

لم ينفع الرجل دفاعه عن نفسه ، ولا دفاع ابنته عنه ، ولا شهادة الذين شهدوا بشرفه واستقامته من جيرانه وأصدقائه ، لأن القضاء لا يستطيعون أن يصدقوا أن رجلا عظيما سرىا مثل الميسو « لورين » صاحب المصرف المشهور

يكذب أو يافق ، أو يخطئ في فراسته وتنديره ، وأن رجلاً فقيراً مقلداً مثل الميسو كابريني يتعفف عن اختلاس المال الذي يقع تحت يده متى وجد السبيل الى ذاك ، وكثيراً ما ساق أمثال هذه الاقيسة الفاسدة والنظرات الطائشة الحمقاء الابرياء والاشرف الى أعماق السجون ، وقضت عليهم وعلى أهاليهم القضاء الاخير ، كما قضت على هذا الرجل المسكين اليوم ، فان قاضى التحقيق لم يابث أن سمع شهادة خصمه عليه وعرف قصة الكتاب الذي أرسلته اليه زوجته حتى اقتنع باجرامه وأحاله إلى محكمة الجنايات

فاستطير عقل « إيلين » وجن جنونها فلم تجد بداً من أن تذهب الى الميسو لورين لتستعطفه لايها ، وتضرع اليه أن يساعدها على خلاصه ، فذهبت اليه في منزله فاستأذنت عايه فأذن لها فدخلت ، فدهش دهشة عظي حين رأى أمامه فنانة جميلة بارعة ، بل آية من آيات الحسن والجمال ، لا عيب

فيها إلا أنها نحيلة صفراء متضمضة وقد يكون الضعف والفتور عند بعض الناس حلية من حلى الجمال ، فافتن بها حين رآها إلا أنه أخطأ في الحكم عليها ، كما أخطأ من قبل في الحكم على أبيها ، فظن أنه يستطيع أن يستثمر لنفسه ضرورتها وحاجتها ، فأخذ يحدثها في الشأن الذي جاءت من أجله ، ثم ذهب معها في الحديث مذاهب أخرى لم تفهم غرضه منها إلا بعد حين ، لأنها لم تألف سماع مثاها قبل اليوم ، فأخذ وجهها يبرد شيئاً فشيئاً ، ثم انتفضت انتفاضة الليث في غياله وألقت عليه نظرة هائلة لو ألقها على رجل غيره لصعق في مكانه ، ولكنه كان رجلاً وقاحاً متبداً فلم يحفل بنظرها ، وتقدم نحوها وحاول أن يغلبها على أمرها ، فدافعت عن نفسها دفاعاً شديداً حتى عجزت ، فأرادت الفرار من بين يديه فاعترض طريقها ، فدارت بنظرها في أنحاء الغرفة تتلمس سبيلاً إلى الخلاص ، فوقع نظرها على سدس كان فوق مائدته ، فاختطفته لتهده به ، فانطلقت منه رصاصة خطأ فأصابته في ذراعه ،

فصرخ صرخة عظمى ، وما هي إلا لحظات قلائل حتى قبض عليها وسيقت إلى السجن بتهمة أنها دخت على المسيو « لورين » فى منزله لتسأله أن يساعدها على تبرئة والدها فلم يحفل بها فأخرجت مسدساً كانت تخفيه فى طى رداها وأطلقتة عليه لتقتله فلم تصبه الا فى ذراعه

وقد كان فى استطاعة المسيو لورين أن يعترف بالحقيقة التى يعرفها حق المعرفة فلم يفعل ، ولو فعل لما ضره ذلك شيئاً وماهى إلا أيام قلائل حتى حكمت عايتها محكمة الجنايات بالسجن خمس سنين ، وكانت قد حكمت على أبيتها قبل ذلك بالسجن عامين

٢

دخلت « إيلين » سجن النساء لتقضى فيه المدة المقررة لها ، ووُضعت فى غرفة واحدة مع امرأة عجوز ساقطة قضت جزءاً عظيماً من حياتها فى هذا المكان المظلم القاتم حتى ألفتة ، وجمدت نفسها عليه ، فلم تعد تحفل بشىء فى هذا

العالم ، ولا تفكر إلا في الساعة التي يقدم فيها إليها الطعام فتلتهمه التهاماً ، وهي تضحك وتنغي كأنما هي سعيدة هائلة ، وكأنها أبعد الناس عن الهموم والاحزان ، فذعرت إيلين حين رأتها ذعراً شديداً ، وتسالت إلى زاوية من زوايا الغرفة فقبعت فيها ، واستسلمت لهمومها وأحزانها ، ولم تدع قطرة من الدمع في عينيها الا ذرفت ، وأبت أن تتناول الطعام الذي قدمه إليها السجان ، فوضعه بين يديها وتركها وشأنها ، فبكت ماشاء الله أن تفعل حتى هدأ بعض ما بها ، فعمدت إلى كتاب صغير من كتب الاخلاق كانت لاتزال تحمله في جيبها ما تفارقه ، فأخرجته وأخذت تتلوه بتقليب صفحاته ، فكان أول ما وقع نظرها عليه من كلماته هذه الكلمة « العفو أشد أنواع الانتقام » فانتفضت عند قراءتها انتفاضاً شديداً ، وعلقَ نظرها بها ما ينتقل عنها ، وأخذت تراجع الحوادث التي مرت بها ، وتستعرضها واحدة بعد أخرى ، وتفكر في المظالم التي نالتها ونالت أباه ، وما اقترفا ذنباً ، ولا جنياعلى

أحد ، حتى أوردتهما هذا المورد من الشقاء ، فشعرت بديب
 الشرف في نفسها للمرة الاولى في حياتها ، وظلت تقول في نفسها :
 إن الذين مرت على ألسنتهم أمثال هذه الكلمات انما كانوا
 يعيشون في عصر غير هذا العصر ، وبين ناس غير هذا
 الناس ، ولو أنهم عاشوا بيننا لكان لهم في العالم وأهاليه
 رأى غير هذا الرأى ، ولما اجتروا على المجازفة بتدوين هذه
 الافكار في كتبهم ، لان العفو لا يكون انتقاماً إلا من
 أصحاب الضمائر الطيبة الطاهرة التى يقلقها الذنب ، ويخجأها
 العفو ، والتى تصدر عنها سيئاتها زلات وهفوات ، أما الضمائر
 القاسية المتحجرة التى لا تعبأ بشيء ، ولا تخجل من شيء ، فلا
 يزيد لها العفو والصفح إلا تمرداً وطغياناً

وإنها لذاهبة هذه المذاهب الغريبة فى تصوراتها
 وخيالاتها إذ دنت منها جارتها العجوز تحتل الخصى اليها
 اختلاساً حتى وقفت وراءها ونظرت فى الصفحة التى تنظر
 فيها فوق نظرها على تلك الكلمة التى كانت تُنعم النظر فيها

فقههت ضاحكة بصوت عال غريب فارتعدت « إيلين »
 والتفت وراءها صارخة : ماذا تريدن ياسيدتى ؟ قالت
 لا تخافى يا بُنتى ولا تراعى ، فما أنا بمجنونة كما ظننت وكما
 يظن سكان هذه الدار ، ولكنى رأيتك مستغرقة فى هذا
 الكتاب لا ترفعين نظرك عنه فجئت لأقول لك : دعى
 الكتب وشأنها لا تحفل بها ، ولا تعولى على شىء فيها ،
 فان أصحابها الذين وضعوها غرباء عن هذا العالم لا يفهمون
 من شئونه شيئاً إلا كما نفهم نحن من شؤون عالم الجن أو سكان
 المريخ ، بل هم قوم معتوهون مرورون قضاو أيام حياتهم
 فى معزلاتهم الخاصة المظلمة التى لا توجد فيها نافذة واحدة
 تشرف على العالم وما فيه ، فملوا وسموا ، وأرادوا أن يروا حوا
 عن أنفسهم ، ويتلوهوا بما يسرى عنهم ملهم وسامتهم ، فأخذوا
 يدنون هذه المبادئ التى انتزعوها من جوانب أدمغتهم ،
 لامن طبيعة المجتمع الذى يحيط بهم ، ويقررون الآراء التى
 يستحسنونها ويعجبون بها ، لا التى تتفق مع طبيعة الكون

وخصائصه ، فهم ينصحون المجرم أن يقلع عن إجرامه ، ثم يخيل اليهم أنه قد أقلع ونزع ، فيطلبون الى من أجرم اليه أن يعفو عنه ، قائلين له « ان العفو أشد أنواع الانتقام » كأن الفضيلة عندهم هي الحالة الاساسية للنفوس ، وكأن الاجرام عرض من أعراضها الطارئة عليها ، لا تلبث أن تهب عليه نسمة من نسيمات العظة والاعتبار حتى تذهب به ، فما أسخف عقولهم ، وما أقصر أنظارهم ، وما أبعدهم عن فهم حقائق الحياة ، وطبائع النفوس ، دعى الكتب يا بني لا تنظري فيها ، وانزعي عنك همومك وأحزانك ، وكلّي الطعام الذي يقدم اليك هائلة معتبطة لا تلوين على شيء مما وراءك ، فسيأتي قريباً أو بعيداً ذلك اليوم الذي يفتح لك فيه هذا الباب الموصل دونك ، فتخرجين إلى الانتقام من الرجل الذي أساء اليك ، وسافك إلى هذا المكان ، وتنايلين منه فوق ما نال منك ، كما سأفعل أنا يوم خروجي بالرجل الذي ساءني ، وأفسد على حياتي ، فليس العفو أشد أنواع الانتقام كما يقولون ، بل الانتقام أعظم ملاذ الحياة

فهدأت نفس إيلين قليلا ، واستطاعت أن تتناول شيئا
من الطعام الذى قدم إليها ، إلا أنها كانت إذا جاء الليل رأت
أبائها فى منامها يقاسى أنواع العذاب وصنوف الآلام فى
سجنه ، فتصبح باكية نادية لايهوّن عليها آلامها بعض التهوين
إلا اثرثة تلك العجوز وهذيانها ، حتى نامت ذات ليلة فرأته
ميتا على سرير من أسرة مستشفى السجن تحيط بجثته شمعتان
مضيئتان ، فاستيقظت فزعة مذعورة تبكى وتنتحب ، وما
هى إلا هنيهة حتى دخل عايبها السجن يدعوها لمقابلة مدير
السجن ، فذهبت إليه فأبلغها أن أبائها توفى الليلة فى المستشفى
فصعقت صعقة كادت تذهب بنفسها ، ثم استفاقت فاذا هى
فى غرفة سجنها ، وإذا هى أشد عبادة لله بؤسا ، وأعظمهم شقاء

٣

قضت « إيلين » سنواتها الخمس فى سجنها ثم خرجت
فشت معها رفيقتها العجوز تشيعها إلى الباب وتقول لها
لا تنسى يا بنيتى أن تنتقمى من عدوك الذى أساء إليك ،

وتنكلى به تنكلا عظيما ، وسأتبعك على الأثر عما قريب
لأنتقم من عدوى مثلك ، وهل لئلى ومثلك فى هذه الحياة
الشقية البائسة عزاء غير عزاء الانتقام

فودعتها وانصرفت ، لاتعلم أين تذهب ، ولا أى طريق
تسلك ، بل لاتعلم أين تجد قوت يومها ، أو المضجع الذى
تأوى إليه سواد ليلتها ، فقد انقطعت صاتها بالعالم كله بعد
موت أبيوها ، وطبع على جبينها لقب « النجاسة » الذى خرجت
به من سجنها

ولم تزل سائرة عدة ساعات حتى شعرت بالتعب والنصب
وأحست بالجوع يعبث بأحشائها ، فحدثتها نفسها بالانتحار
فراراً من الألم ، وزهداً فى الحياة ، وظلت تترجح ساعة بين
الأنس بهذا الخاطر ، والنفور منه ، حتى غلبها على أمرها ،
فاخذت طريقها إلى النهر ، وكانت الليلة داجية مكفهرة تلمع
بروقها ، وتهطل غيومها ، وتدمدم رعودها ، وتعصف رياحها

فاستمرت أدراجها حتى إذا لم يبق بينها وبين النهر إلا بضعة
 خطوات سمعت قعقة مركبة مقبلة نحوها من بعيد يمزق
 نور مصباحها المشتعلين أحشاء الظلمات فترى هنيئة في
 مكانها حتى مرت المركبة بها فإذا المسيو «لورين» جالسا بين
 بضعة فتيات خليعات ، يعابهن ويداعبن ، ويقهقهه قهقهة عالية
 ترن في أجواز الفضاء ، فاخترأت وراء بعض الأشجار حتى مرَّ
 ثم برزت من مخبئها تحدث نفسها وتقول : ها هو ذا المجرم
 سعيد في حياته ، مغتبط بحظه ، يتقلب في أعطاف العيش الناعم
 لا ينقص عليه عيشه منغص ، ولا يكدر حياته مكدر ،
 وها أنذا البريئة الطاهرة التي لم ألوث يدي في حياتي بجريمة ،
 ولم اقترف بيني وبين ضميري إثما ، أهيم في هذا الوادي
 الفسيح على وجهي ، لا أعرف لى ملجأ ولا مأوى ، ولا أعرف
 سبيلا للعيش ولا مذهباً ، ولو عرفت لما استطعت أن أنتفع
 بمعرفتي ، لأننى عند الناس مجرمة قاتلة ، ومن ذا الذى يأمن
 على نفسه أن يتصل بالقتلة المجرمين ، أو يعطف على بأسائهم
 وضرائهم

لا لا ، لا بد أن أعيش ، ولا بد أن أنقم ، وما دامت
الشرائع الالهية والقوانين الوضعية قد عجزت عن أن تتصف
الناس من الناس ، فلينتصف الناس بأنفسهم لأنفسهم
وانحدرت من طريق النهر إلى طريق المدينة ، وقد
ودعت في تلك اللحظة جميع خواطر الخير التي ملأت فضاء
نفسها طول حياتها ، وخاعت ذلك الثوب الجميل المتلألئ
الذي لبسته منذ برزت إلى الوجود حتى اليوم — ثوب
الشرف والكرامة والطهارة والأدب — واستحالت نفسها
الطاهرة الكريمة إلى نفس أخرى غيرها لاصلة لها بها ،
فلم ينحدر برقع الظلام عن وجهه الصباح حتى رآها الناس
سائرة مع أحد العمال المرييين هادئة ساكنة ، باسمه متطلقة
لم يبق في وجهها من دم الحياء إلا بضع قطرات قد أخذ
لونها يستحيل شيئاً فشيئاً إلى لون البياض لتلحق باخوانها

٤

وكذلك هوت تلك الفتاة المسكينة البائسة في تلك

المهوة التي حفرها المجتمع الانساني لأمثالها من الفتيات
البائسات ، فظلت تنقل من يد إلى يد ، ومن مضجع إلى
مضجع ، وكأن الحظ الذي فارقها وتجهّم لها في حياة الطهارة
والعفة ، أقبل عليها بوجهه الباسم المتهلل في حياة السقوط
والفساد ، فاهى إلا أيام قلائل حتى طلعت في سماء باريس
نجماً ساطعاً متلاًكاً تنير كل أفق تشرق فيه ، وتعطر كل أرض
تخطر بأرجائها ، وتعبث بألباب الرجال ، عبث النسايم بأوراق
الأشجار

فانها جالسة ذات ليلة في مقصورة من مقاصير بعض
الملاعب التمثيلية في جمع من أصدقائها المفتتين بها إذ وقع
نظرها على خصمها المسيو « لورين » جالساً في المقصورة
المقابلة لها مع إحدى خليلاته ، فانتفضت حين رآته ، وثارَت
في نفسها نائرة الغيظ والحنى ، وظلت تردد النظر في وجهه
طويلاً ، فلمجها وهي تنظر إليه ، فأعجبه منظرها البارِع الجميل
إلا أنه لم يعرفها ، فقد تغير كل شيء فيها حتى ملامحها وشمائلها

فما انتهى الفصل الأول من الرواية حتى نهض من مكانه مسرعاً ، وذهب يروود حول مقصورتها حتى التقى بأحد أصدقائه وأصدقائها في دهليز المقاصير ، فسأله عنها ، فأخبرها أنها السيدة « لوسى » المارسييلية الحسنة أجمل فتاة وفدت إلى باريس في هذا العام ، فتوسل إليه أن يقدمه إليها ففعل ، فأحسننت لملتهاء وقد أضمرت له في نفسها شرّاً ما يضر عدوّه لعدوه وأقبلت عليه تحذّره ، وتلطّف به ، وتمدله الحبالة التي اعتادت أن تمدّها كل يوم لأمثاله ، فما لبثت أن وقعت من نفسه ، وملكت عليه جميع مشاعره ، ثم رُفِع الستار فاستأذنها وعاد إلى مقصورته ، وقد حلت من قلبه محلام يحله أحد قبلها

وفي صباح اليوم الثاني أرسل إليها مع بعض رساله بطاقة جميلة من الزهر قد دس بين أوراقها عقداً بديعاً من اللؤلؤ الثمين ، فابتهجت به حين رآته ، لا لأنها في حاجة إلى العقود والدمالج ، بل لأنها علمت أنها قد وضعت يدها على الزمام الذي تقوده به إلى الهلاك ، ثم زارها على الاثر وخرّ

جائياً تحت قدميها مقدماً لها قلبه وحياته ، وكل ما تملك يده أى
 إنه جثا تحت قدمي تلك الفتاة البائسة المسكينة التى جثت تحت
 قدميه منذ سنوات تسأله أن يساعدها على فكك أييها من
 سجنه ، وتضرع إليه أن يغفر له ذنبه إليه ، إن كان يعتقد أنه
 مذنب ، فلم يفعل ، ولو أنه فعل لا يتاع بثمان قليل لا يوازي
 ربع ثمن العقد الذى قدمه الآن إليها قلباً طاهراً نقياً ، لم
 تلوثه الذنوب والآثام ، ولم تعبث به الأهواء والشهوات وعاش
 عيشاً طاهراً شريفاً مع خير الزوجات وأفضلهن خلقاً وخلقاً
 ولكن هكذا قدر لهؤلاء المساكين الضعفاء أن يضنوا بالنور
 اليسير من أموالهم على ابتياع القلوب الشريفة الطاهرة ، حتى
 إذا لوثتها الذنوب والآثام ، وأصبحت نهباً مقسماً فى أيدي
 الشهوات ، بذلوا فى سبيل الوصول إليها جميع ما تملك أيديهم
 حتى شرفهم وحياتهم ، فقد ابتاع الميسو « لورين » خليلته
 الجديدة قصرًا جميلاً أثته أناثاً حسناً ، ونزل على حكمها فى كل
 ما تريد وتستهي ، حتى أنفق عليها فى عام واحد كل ما تملك

يمينه ، ثم اضطر أن يعيث بودائع الناس المودعة في مصرفه ،
فمشى في ذلك المزلق المنحدر مدى بعيداً أشرف منه على
الخطر العظيم

ثم حدث بعد ذلك أن فُتحت سوق للاحسان في باريس
وكانت « لوسى » إحدى النساء اللواتى وقع عليهن الاختيار
لبيع الأزهار فيها ، وكان تجار تلك السوق أجمل نساء باريس
على الإطلاق ، فجلست في حانوتها المعد لها ، وقد أمسكت
بيدها زهرة تعرضها للبيع ، وتعد من يبتاعها منها أن يتناولها
بقمه من فيها ، فازدحم حولها كثير من الأغنياء يتزايدون
في ثمن تلك الزهرة ، حتى برز رجل من بينهم اسمه الكونت
«مارسيال» فعرض فيها خمسمائة فرنك ، فقالت لأبيعتها إلا
بألف ، فأمسك الكونت ، وأمسك الناس جميعاً ، وإنهم
لكذلك إذا بالمسيو « لورين » يتقدم بهدوء وسكون وفي
يده ورقة بألف فرنك ، فوضعها بين يدي لوسى ، وقال لها
لا يبتاع منك زهرتك ياسيدتى أحد سواى ، فوضعها بين

نباهاها ، فتناولها منها بضمه بأسلوب رقيق حسده عليه
 زاحموه جميعاً ، وخاصة الكونت مارسيل ، فقد انصرف
 من موقفه هذا وهو يقول : ما رأيت في حياتي صاحب
 مصرف يذهب في حياته هذا المذهب من البذخ والاسراف
 ويبعثر المال بلا حيلة ولا حذر كهذا الرجل ، وما أحسب
 أن ثروته الخاصة تتسع لكل هذا ، فلا بد أن يكون لصاً
 دنيئاً يسرق ودائع الناس ويبددها ، فويل للمساهمين في
 مصرفه ، ورحمة الله على أموالهم جميعاً ، وكان يتكلم بصوت
 عال يسمعه الناس جميعهم ، وليس بين الاحاديث حديث
 أسير ولا أذيع من حديث السوء ، فمشت كلماته في المجتمعات
 العامة والخاصة ، فاضطرب لها المساهمون وأصحاب الودائع
 اضطراباً عظيماً ، ووصل الخبر إلى أعضاء مجلس إدارة المصرف
 فهاهم الأمر ، وأشفقوا على سمعة مصرفهم أن تنال منها هذه
 الازاجيف ، فيسقط سقطة لا قيام له من بعدها ، فقرروا
 الاجتماع في يوم معين لمراجعة حسابه ، وتفقده أمواله ، فاما علم

ذلك الميسو لورين أخذ يزور في الصكوك ، ويعبث بدفاتر الحساب ، طلباً للإخلاص من التبعة ، فلم يجد ذلك شيئاً ، فقد فهم مجلس الإدارة كل شيء ، فلم ير بداً من أن يرفع الامر إلى القضاء ففعل ، والميسو لورين مستغرق في شهواته ولذاته ، جاثٍ ليله ونهاره تحت قدمي خليلته ، لا يشعر بشيء مما يجري حوله ، لولا أن أحد أصدقائه من المحامين وقف على جلية الخبر فزاره في منزله ليخبره به فلم يجده ، فذهب إلى منزل لوسى فوجده ، فأخبره أن الامر قد صدر بالقبض عليه . وأنه إن لم يبادر بالسفر في الحال فقد هلك إلى الابد ، فأشار إلى « لوسى » أن تُعد له حقيبة ملابسه ، وأن تهَي نفسها للسفر معه ، وهو أعظم الناس ثقة بها ، وبحبها وإخلاصها ، فتظاهرت بالاذعان لامره ، والثناء له ، ولكنها لم تلبث أن خرجت من الغرفة حتى هرعت إلى غرفة « التليفون » وبلغت رئيس الشرطة خبر عزمه على الهرب ، وأشارت عليه بارسال من يقبض عليه في الحال ، ثم أمرت الخدم (٢٣ ك — الطرات)

باغلاق الابواب والوقوف في وجهه إن أراد الفرار ، ثم عادت إليه ، فسألها هل أعدت كل شيء ؟ فنظرت إليه نظرة غريبة لم يفهم معناها ، ثم انفجرت ضاحكة بصوت عال ، فدهش وسألها ما بالها ؟ قالت لا شيء سوى أنك ستبقى سجيناً هنا حتى يأتي رئيس الشرطة للقبض عليك ، ثم ألقت عليه نظرة مخيفة هائلة ، فعجب لأمرها ، ولم يعلم أمازحة هي ، أم نزل بها عارض من عوارض الجنون ، ووثب من مكانه مسرعاً ودنا منها وقال لها ماذا عرض لك يالوسى ، فقد طلبت اليك أن تهبي نفسك للسفر معي فهل فعلت ؟ فقد دنت الساعة ، ولسنا الآن في موقف مزاح ، وأخاف أن تفاجئنا الشرطة الساعة فنفوت الفرصة ، فضحكت ضحكة أخرى ، وقالت قد بلغت رئيس الشرطة أنك عازم على السفر ، وأشرت عليه أن يبادر بإرسال الجنود ليقبضوا عليك ، وأمرت الخدم باغلاق الأبواب حتى لا يتمكن من الهرب قبل حضورهم ، فجن جنونه ، وقد بدأ الريب يدب

فى نفسه . وإن لم يفهم لما يرى سبباً ، فركض إلى الباب ليتحقق الأمر بنفسه ، فوجده مغلقاً ، فأمرها أن تفتحه فأبت ، فهجم عليها هجمة شديدة وهو يصيح . أين المفتاح أيتها العاهرة ؟ فقالت أتريد أن تقتلنى كما قتلت أبى بالأئس ؟ فلم يفهم معنى كلمتها ، ووقف فى مكانه ذاهلاً يقول لها لم أفهم من أمرك شيئاً ، ماذا تريدين ؟ ومن هو أبوك ؟ قالت هو المسيو كابرينى وكيل مصرفك بالأئس الذى اتهمته ظلاماً وعدواناً بالسرقة وأنت تعلم أنه رجل شريف مستقيم لو علم أن شرب الماء يفسد مروءته ما شربه ، فكانت نهاية أمره أن مات فى سجنه ميتة الأثقياء البؤساء ، لا يعود من أهله عائد ، ولا يختضنه إلى صدره فى ساعة نزع محتضن ، ولا يوجد بجانب مضجعه من يسمع منه وصيته الأخيرة

فاصفر وجه لورين ، وظل جسمه يرتعد ارتعاداً شديداً وأخذ يحدق النظر فى وجهها ، ويتراجع شيئاً فشيئاً ، ويقول بصوت مضطرب متقطع ، إذن أنت لست . . . فقاطعته

وقالت نعم لست حبيبتك « لوسى » كما تعتقد ، بل عدوتك « إيلين » التى تريد أن تنتقم منك لفجيعتها فى أبيها وفى نفسها ، أنا إيلين التى جثت تحت قدميك منذ سبعة أعوام تسألك أن ترحم أباهما وترحمها ، فأبيت إلا أن تساومها فى عرضها ، فلما ضنت به عليك أردت النكاية بها فاتهمها بتهمة القتل كذباً وافتراءً كما صنعت بأبيها من قبلها ، فصدق القضاة الاغبياء دعواك ، فحكموا عليها بالسجن خمس سنوات كابدت فيها من صنوف العذاب وأنواع الآلام مالا يستطيع أن يحتمله بشر ، ثم خرجت من سجنها مصفرة اليد من كل شيء . من يديها وأهلها ، وكرامتها وشرفها ، وكل ماتملك يدها حتى من القوت الذى تقيم به صلبها بياض يومها وسواد ليلتها ، وكان لابد لها من المغامرة بنفسها فى إحدى الهوتين ، إما هوة الموت لترتاح من هموم الحياة وآلامها ، أو هوة الفساد لتنتقم لنفسها من عدوها الذى نكبها ، وأفسد عليها حياتها ، فأثرت الانتقام على الموت ، لان نفسها

الطاهرة الطيبة قد استحوالت إلى نفس شريرة حاقدة لا تريد
أن تسمح لعدوها أن يبني سعادته على أنقاض شقاها ، وأن
يُفلت من العقوبة التي هي النتيجة الطبيعية للذنوب والآثام ،
وهاهي ذى قد انتقمت لنفسها ، وروحت عنها همومها
وآلامها

فنكس رأسه ملياً ثم رفعه وقال إذن ما أحببتى قط
يالوسى ؟ قالت نعم ، بل ما اتصلت بك إلا لأسوقك إلى
هذا المصير الذى صرت اليه اليوم ، أنت الآن متألم جداً ،
بل لا يوجد فى العالم كله ألم مثل الألم الذى يعتلج فى أعماق
نفسك ، لانك فقدت فى يوم واحد شرفك وكرامتك ،
ومالك وحریتك ، وموضوع حبك ، ووجهة آمالك فى حياتك ،
وهذا ما كنت أريد وأرجوه ، وهذه هى الساعة الوحيدة
التي شعرت فيها بلذة العيش وهنائها من بين ساعات
حياتى

فنظر إليها نظرة منكسرة دامعة وقال لها ما كنت لأحفل

بخسران شيء في الحياة لو أنى ربحتك يالوسى ، أما وقد أصبحت يدي صفراً منك فلا خير في العيش من بعدك ، ثم تهافت على مقعد بجانبه وانفجر باكياً ما تهدأ دموعه ، ولا يفتر نشيجه ، حتى حضر الجند فاعتقلوه ، وساقوه الى سجنه وهو صامت واجم لا يرفع طرفه ، ولا يلتفت وراءه ، وإيلين تشيعه بنظرات السرور والاعتباط حتى انقطع أثره

٥

نعم إن الانتقام لذيذ جداً كما يقولون ، ولكنه اللذة التي يعقبها الندم والاسف ، وتأتى على أثرها الحسرات والآلام ، وما استطاع منتقم قط أن يزن عمله بميزان العدل والحكمة فهدأ نفسه ويستريح ضميره بعد فراغه من انتقامه كما تهدأ نفس القاضى العادل بعد صدور حكمه بالعقوبة التي يراها ، والفرق بينهما أن القاضى يصدر فى رأيه عن نفس هادئة مطمئنة ، قادرة على الروية والاناة ، والمقارنة والمقابلة ، والوزن والتقدير ، والمتقم يصدر فى عمله عن روح هائجة

محتدمة لاهم لها إلا أن تلثم وتستأصل ، وتأتى على كل ما تستطيع الاتيان عليه ، فهو يقضى قضاءه لا ليعاقب المجرم على جريمته ، ولا ليدفع عن المجتمع شروره وآثامه ، بل ليجرح نفسه ويؤلمها ، وينال منها أقصى ما يرى أنه كاف لشفاء حقه ، وإطفاء غلته ، فيجازى على الشتم بالضرب ، وعلى الضرب بالقتل ، وعلى القتل بالتشويه والتمثيل ، ولا يأتى أن يأخذ البريء بذنب المجرم ، والجار بذنب الجار ، فلا انتقام جريمة كيفما كان الباعث عليه ، والدافع له ، وكل جريمة تترك فى نفس صاحبها نصيباً من الألم والحسرة بمقدارها ما من ذلك بدء ، ولقد صدق الذى يقول إن العفو مرارة ساعة ، ثم السعادة إلى الابد ، وإن الانتقام لذة ساعة ، ثم الشقاء الدائم الذى لا يفنى

عادت إيلين إلى غرفتها بعد ذهاب « لورين » وكان الليل قد أظلمها جلست تراجع فهرس حياتها الماضية ، وتقلب صفحاتها صفحة صفحة ، فشعرت بديب السامة والممل

فى نفسها، وخيل اليها أنها ستعيش بعد اليوم عيشة نافهة مملولة
 لاطعم لها، ولا لذة فيها، ورأت كأن محابة سوداء من شقاء
 الحياة وبؤسها تدنو منها شيئاً فشيئاً، وأخذت تسائل نفسها
 هل أصابت فيما فعلت أم أخطأت؟ وهل سعدت بالانتقام
 أم شقيت؟ وهل كان خيراً لها أن تلقى بنفسها فى عباب الماء
 عند ما فكرت فى ذلك يوم خروجها من سجنها؟ أم تعيش
 لتضحي بعرضها وشرفها وكرامتها فى سبيل انتقامها؟ وهل
 خرجت من المعركة التى خاضتها ظافرة تمام الظفر؟ أم نالها
 من الخسران فيها ما يذهب بيهاء ذلك الانتصار الذى انتصرته؟
 ولم تزل تسائل نفسها هذه الاسئلة فلا تسمع جواباً
 يرضيها، حتى مضى الليل إلا أقله، فحاولت أن تأوى إلى
 مضجعها فلم تستطع، وأن تسرى عن نفسها بعض همومها
 فأعجزها ما أرادت، فلم تنقض دولة الظلام حتى كانت قد
 حكمت بنفسها على نفسها أنها مجرمة آثمة، وأنها لم تستفد
 من كل ما عملت سوى أنها باعت عرضها بأبخس الأثمان

وأدناها ، وأنها لم تسيء إلى الرجل الذى أرادت الانتقام منه بقدر ما أساءت إلى نفسها ، فقررت الالتحاق بأحد المستشفيات الخيرية لتكفر عن ذنبها بخدمة المرضى ومواساتهم طول حياتها ، حتى يوافيها أجلها

٦

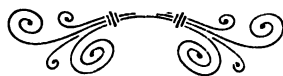
دخلت المستشفى ، وأخلصت إلى الله فى عملها ، فسهرت على المرضى ، وأحسنّت مواساتهم ، وبذلت فى ذلك من الجهد ما يعجز غيرها عنه ، حتى أصبحت مضرب المثل فى صلاحها وتقواها ، ورحمتها وإحسانها

وكانت المحكمة قد حكمت على الميسورين بالسجن عامين ، فلقى فى سجنه من المتاعب والآلام مالا طاقة لثله باحتماله ، فسقط مريضاً لا يحفل به أحد ، ولا يواسيه مواس ، حتى اشتد به المرض ، وأشرف على الهلاك ، فتمقلوه إلى المستشفى الذى كانت تعمل فيه « إيلين » فعرفته حين رآته رغم تغير صورته ، واستحالة حالته ، فلم تستطع أن تملك عينيهما من البكاء ،

وأخذت نفسها بتمريضه والعناية به وظلت على ذلك عدة أيام وهو ذاهل مستغرق لا يشعر بشيء مما حوله ، حتى استفاق في ليلة من الليالي فرآها واقفة بجانب سريرته تمد إليه يدها بالدواء ، فظل يحدق النظر في وجهها طويلا حتى عرفها ، فتناهض من مكانه ، وأكب على يدها يقبلها ، ويسألها العفو عن ذنبه إليها فازداد نشيجها وبكاؤها ، وقالت له إنني أنا التي أسأت إليك ، وأنا التي أطلب منك العفو والصفح ، وكأن حياتها الحديدة التي انتقلت إليها قد أنستها حياتها الأولى وأكاذيبها وأباطيلها ، فلم يبق في قلبها أثر للبغض والموجدة ، وأصبحت سريرتها بيضاء نفية لا تجول فيها غير خواطر الخير والاحسان ، ولا تنطوى إلا على حب الانسانية وحب الله

وهكذا ظلت تعالج هذا المسكين باخلاص لا تضمر مثله الام لواحدتها ، وتقوم على خدمته ليلا ونهارها ، ما تهديا ولا تفتر ، ولكن الداء كان قد تمكن منه ، فلم يغن عنه العلاج شيئا ، وما هي إلا أيام قلائل حتى حضره الموت ، فجلست

بجانبيه تعزیه وتواسیه ، وتلقى فی رُوعه أن الله قد غفر له جميع
 سيئاته فی حياته بما كابد فيها من العلل والأسقام ، والهموم
 والآلام ، وأن جوار الله فی دار جزائه خير له من جوار
 هذه الحیاة الباطلة الفانية ، حتى أسلم روحه بین ذراعيها
 وفي صباح اليوم الثانی رآها الناس سائرة بهدوء
 وسكون فی طریق الدیر ، وقد لبست مسوحها وسوادها ،
 وعلقت صليبها علی صدرها ، حتى بلغت ، ففتُح بین يديها بابُ
 العظیم الذی لا یخرج منه داخله إلى الابد ، فدخلته وكان
 هذا آخر عهدا بالعالم وما فيه



الخطبة الصامتة

لما بلغ أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير نعتي أخيه مصعب
ابن الزبير أمير العراق صعد المنبر فجلس عليه ، ثم سكت ،
فجعل لونه يحمر مرة ، ويصفر أخرى ، فقال رجل من قريش
لآخر بجانبه ماله لا يتكلم ، فوالله إنه للخطيب اللبيب ، فقال
له الرجل لعله يريد أن يذكر مقتل سيد العرب فيشتد ذلك
عليه ، وغير ملوم إن جرع

ووقف ليلة أمس سعد باشا زغلول في حفلة تأبين
أخيه فتجى باشا زغلول ، وأراد أن يقول كلمة قصيرة يشكر
فيها القامئين بتلك الحفلة فاختنق صوته بالبكاء وأرتج عليه ،
وهو الرجل الجلد الصبور الذى ما جزع في حياته قط ،
والخطيب المفوه الذى ما أرتج عليه مرة في أصعب المواقف
وأخرجها ، وأذهبها بالعقول والالباب ، فما أشبه هذا البطل
الباكي ، بذلك البطل الجازع

وكذلك عظماء الرجال يضنون بدموعهم على نكبات
 الدهر وأرزائه أنفة وإباء، حتى إذا نزلت بهم كارثة من
 الكوارث التي لأمر فيها إلا لله وحده لا يستحيون أن
 يقفوا بين يديه باذلين من شؤونهم ما كانوا يضنون به
 من قبل

على أن البكاء الذي حال بين سعد باشا وبين كلمته التي
 أرادها لم يحل بينه وبين أن يكون أفصح القائلين في ذلك
 الموقف وأنطقهم، فقد خطب الخطباء وأنشد الشعراء من
 قبله ساعتين كاملتين، فكان كل ما كان لكلماتهم من الأثر
 في النفوس أن كان السامعون يتهايمسون فيما بينهم بالاعجاب
 بفصاحة الفصيح، أو نباهة المؤرخ، أو بلاغة الشاعر، أو إبداع
 المبدع في معانيه، أو إحسان المحسن في القائه، حتى وقف
 هو وأرسل من جفنيه تلك الدمعة الحارة فبكى الناس جميعاً
 لبكائه كباراً وصغاراً، شيوخاً وشباناً، وكان مشهداً مؤثراً
 لم نر مثله في حفلة تأبين قبل اليوم، فكان لتلك الخطبة

القصيرة الصامتة المتفجرة من قلب مصدوع مكلوم من
الآثر في النفوس ما لم يكن لتلك الخطب الناطقة الطوال
ليس الذي يبكي صديقاً كان يأنس بحديثه ، أو عالماً
كان ينتفع بعلمه ، أو كريماً كان يستظل بظلال مروءته
وكرمه ، كمثل الذي يبكي شظيةً قد طارت من شظايا قابله



اللفظ والمعنى

لم أر فيما رأيت من الآراء فى قديم الادب وحديثه
أغرب من رأى أولئك الذين يفرقون فى أحكامهم بين
اللفظ والمعنى ، ويصفون كلا منهما بصفة تختلف عن صفة
الآخر ، فيقولون ما أجل أسلوب هذه القصيدة لولا أن
معانيها ساقطة مردولة ، أو ما أبدع هذه القطعة لولا أن
أسلوبها قبيح مضطرب ، كأنما يخيل اليهم أن اللفظ وعاء ، وأن
المعنى سائل من السوائل يملأ ذلك الوعاء ، فتارة يكون
خمرًا ، وتارة يكون خلا ، ويكون حينًا صافيًا ، وأخرى
كدرًا ، والوعاء باق على صورته لا يتغير ، وما علموا أنهما
متحدان ممتزجان امتزاج الشمس بشعاعها ، والخمر بنشوتها ،
فكما لا يجوز أن نقول ما أجل الشمس وأقبح شعاعها ،
ولا ما أعذب الخمر وأمرّ نشوتها ، كذلك لا يجوز أن

نَصِفَ اللفظ بالجمال ، والمعنى بالقبح ، أو نعكس ذلك ،
 فليعلم الناشئ المتأدب انه ليس للفظ كيان مستقل ، ولا حيز
 خاص ، فجعله جمال معناه ، وقبحه قبحه ، وأن القطع الأدبية
 الشعرية أو النثرية التي نصف أسلوبها بالجمال إنما نصف
 بذلك معانيها وأغراضها ، وأن الذين يزعمون من الشعراء أو
 الكتاب أن أساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة تشتمل على
 معان شريفة عالية كاذبون في زعمهم أو واهمون

لا يضطرب اللفظ الا لأن معناه مضطرب في نفس
 صاحبه ، ولا يغمض إلا لأن معناه غامض في نفسه ، ومحال
 أن يعجز الفاهم عن الافهام ، ولا المتأثر عن التأثير ، ولا المقتنع
 عن الاقتناع ، وما البيان الا المرآة التي ترسم فيها صورة
 النفس ، فحيث تكون جميلة فهو جميل ، أو قبيحة فهو
 قبيح ، أو مضيئة فهو مضيء ، أو مظلمة فهو مظلم ، فاذا
 استطعنا أن نتصور مرآة تكذب في تمثيل الصورة
 الماثلة أمامها ، استطعنا أن ننصور بياناً يختلف في وصفه عن
 وصف نفس صاحبه

يقول القائلون بمذهب التفريق بين اللفظ والمعنى عن
مثل هذه القطعة

ولما قضينا من منى كل حاجة
ومسح بالاركان من هو مسح
وسدت على حُجب المهارى رحالنا
ولم يعلم الغادى الذى هو راح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا
وسالت بأعناق المطى الأباطح

إنها جميلة الأسلوب ، ولكنها تافهة المعنى لا تشتمل
على أكثر من الوصف والتصوير ، كأنهم لا يعلمون أن
النصوير نفسه أجمل المعانى وأبدعها ، بل هو رأس المعانى
وسيدها ، والغاية الأخيرة منها ، وقد رسم الشاعر فى كلمته
هذه صورة واضحة ناطقة للحجيج فى حاهم ومرتحاهم ،
يسمعها السامع باذنيه ، وكأنه يراها بعينه ، فقد أتى بأجمل
المعانى فى أجمل الأساليب

وإنّ وصفاً قصيراً لحركة صغيرة من حركات النفس
كقول الشريف

وتلفتت عيني فمذخفيت عنى الطلول تافت القلب
خيراً ألف مرة من قصيدة طويلة مملوءة بالمعاني الغريبة ،
والخواطر المبتكرة ، لاتمثل الحقيقة ، تلتئم مع النفس
ومزاجها ، كقصيدة المتنبي التي مطلعها « أيطمع في الخيمة
العذل »

ويقولون أيضاً عن هذا البيت
أنى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد
إنه قبيح اللفظ ولكنه جميل المعنى ، وهم واهمون فيما
يقولون ، فان ذاك المعنى الجميل الذى يتوهمونه ليس معنى
هذا البيت ، بل المعنى الذى خطر على أذهانهم وأنبعث فى
أفئدتهم عند سماعه ، فالصقود به إصاانا ، وتوهموه له توها ،
أما البيت نفسه فلا معنى له مطلقاً ، وهذا شأن جميع المعانى
التي يتوهمها متوهموها عند سماع بيت مستغلق ، أو كلمة

غامضة ، فهي بأن تكون معانى السامعين ، أولى من أن تكون معانى القائلين

إذا سمعت بيتاً من الشعر فأطربك ، أو أحزنك ، أو أقنعك ، أو أَرْضاك ، أو هاجك وأنت ساكن ، أو هداروعك وأنت ثائر ، أو ترك أى أثر من الآثار فى نفسك ، كما ترك النعمة الموسيقية أثرها فى نفس سامعها ، فاعلم أنه من بيوت المعانى ، وان هذا الذى تركه فى نفسك من الآثار إنما هو روحه ومعناه ، وان مررت ببيت آخر فاستغلق عليك فهمه ، وثقل عليك ظله ، وشعرت بجمود نفسك أمامه ، وخيل إليك أنك بين يدي جثة هامدة لاروح فيها ، فاعلم أنه لا معنى له ، ولا حياة فيه . فان وجدت صاحبه واقفاً بجانبه يحاول أن يوسوس لك أن وراء هذه الظلمة الحالكة المتكاثفة نوراً متوهجاً يكمن فى طياتها ، فكذبّه ، وفر بنفسك وأدبك وذوقك منه فراراً لا عودة لك من بعده

هذا هو الميزان الذى يجب أن تزن به الكلام ، ونصيحتي

إليك ألا تصدق تعريفاً واحداً من تلك التعريفات المتعددة المتناقضة التي يضعها واضعوها من الأدباء لاشعارهم خاصة ، ويزعمون أنها للشعر عامة ، واجعل شعور نفسك هو الميزان الذي تزن به ما تسمع ، فكما أنك لا تعتمد على تعريف من تعريفات الجمال ، ولا تلجأ الى قانون من قوانينه عند وقوع نظرك على وجه امرأة لمعرفة درجتها من الحسن ، كذلك لا تعتمد في استحسان ما تستحسن من الكلام ، واستهجان ما تستهجن منه ، الا على شعور نفسك وإلهام حسك

الشعر نعمة موسيقية قبل كل شيء ، ثم يأتي بعد ذلك جمال الوصف ، وحسن التصوير ، وتمثيل الحقيقة ، واكتناؤه أسرار الكون ، وتحليل مشاعر النفس ، وأمثال ذلك من الأغراض والمقاصد ، على أن تكون تلك النعمة الموسيقية أساسها ، والروح السارية فيها ، ليتحقق الفرق بين الشعر والفلسفة ، فالفلسفة غذاء العقل برزائنها وهذوها ، وحججها

وبراهينها ، والشعر غذاء النفس برناته ونغاته ، وأهازيجه
ونبراته

نظم الشعراء الشعر من عهد الجاهلية الأولى الى اليوم
فمات جميع مانظموا ، ولم يبق منه الا البيت الموسيقى الرنان
الذى لو لم يغنه مغنيه لغنى وحده ، وسيموت شعر جميع
الشعراء فى هذا العصر ولا يبق منه فى المستقبل الا كما بقى
من الماضى فى الحاضر



الآداب العامة

يتحدث كثير من الناس عن فئة من الشبان المصريين المتعامين قد ظهرُوا في هذه الايام واتخذوا لانفسهم في حياتهم العامة طريقاً غير الطريق اللائقة بهم وبكرامتهم وبمنزلة العلم الذى يزاولونه ، فأصبحوا متبذّلين فى شهواتهم ، مستهترين فى ميولهم وأهوائهم ، ينتهكون حرّمات الاعراض ماشاءوا وشاءت لهم نزعاتهم ، ويعبثون بها فى كل مكان عبث الفماتك الجريء الذى لا يخاف مغبة ، ولا يخشى عاراً ، وأهول ما يتحدثون به عنهم فى هذا الشأن أنهم يُغرون الطالبات الصغيرات اللواتى لا يرلن يختافن إلى مدارسهن ، أو اناواتى انقطعن عنها منذ عهد قريب إلى منازلهن ، وينصبون لهن صنوف الحبائل وأنواع الاشراك لاصطيادهن وإسقاطهن

فى هرة الاثم والعار ، وهذا ماأريد أن أتكلّم عنه قليلا
أصحیح مايقولون عنكم أيها الفتیان التعسوف أنكم
تتخذون صلة العلم التى هى أشرف الصلات وأكرمها صلة
فساد بينكم وبين أولئك الفتيات الضعيفات ، وأن الحباله
التي تنصبونها لهن لاسطيادهن إنما هى حباله القلم الذى هو
أفضل أداة للخير ، وأعظم وسيلة للفضيلة ، وخير واسطة
للأدب والكمال ؟

أصحیح مايقولون عنكم أنكم تكتبون إليهن ليكتبن
اليكم ، وتهدون إليهن صوركم ليهدين اليكم مثلها ، فاذا امتلأت
حقائبكم وجيوبكم بصورهن ورسائلهن أخذتم تشرونها فى
كل مكان ، وتعرضونها فى كل معرض ، وأخذ بعضكم يفاخر
بعضاً بكثرة مايملك منها أو بجماله ورويقه ، كما يفخر المرء
بأفضل المزايا وأشرف الخصال ؟

أصحیح انكم تقفون لهن بكل طريق ، وتأخذون عليهن
كل سبيل ، وتضايقونهن فى مغداهن ومراحهن ، وحيث

ذهبن إلى عمل ، أو خرجن لزيارة ، أو برزن في مجتمع ،
 فإذا عجزتم عنهن في الطريق أرسلتم وراءهن الرسل في
 منازلهن يخادعنهن ويخارتلنهن ، وربما توسلتم اليهن بأخواتكم
 وبنيات أعمامكم ليسفرن بينكم وبينهن ويدارخنهن مداخله
 الاصدقاء حتى يجتذبنهن إلى منازلكم ؟

أصحیح أنكم تقضون أكثر لياليكم مكبين على كتابة
 رسائل الغرام ، وأكثر أيامكم حائمين حول المنازل تنتظرون
 خدمها الذين اصطنعتموهم ليحملوا رسائلكم إلى ساكنيها ،
 وربما جاستم على أبوابها بجانب البوابين والحوذيين ترقبون
 نوافذها وكواها عليها تنفرج لكم عن تحبون ؟

أصحیح أنكم أصبحتم لا تقنعون في أمراؤلك الفتيات
 البائسات اللواتي يقعن في مخالبتكم بافساد أخلاقهن حتى
 تسجلوا عليهن ذلك الفساد تسجيلا موقعاً عليه بتوقيعاتهن ،
 مستشهداً عليه بصورهن وخطوطهن ، لتلكوا عليهن أمرهن
 بعد ذلك ، وتحولوا بينهن وبين التفلت من أيديكم ، والحياة

بعيداً عنكم ، في جو غير جوكم ، وجوار غير جواركم ، عذارى
أو متزوجات ؟

أصحح أنكم لا تكتفون بافساد نفوسهن وضماثرهن ،
حتى تفسدوا عايهن عقولهن وصحتهن ، قتشركوهن معكم في
شرب الخمر وتناول المخدرات سائلها وجامدها ، فلا تلبث
أن تنتهي حياتهن بما تنتهي به حياة النساء الساقطات اللواتي
يلفظن أنفاسهن الأخيرة في أقبية الحانات أو بين جدران
المواخير ؟

أصحح أنكم فقدتم في تلك السبيل التي تسلكونها
خلق الرجولة والشهامة ، فأصبحتن تتجملون للنساء بأخلاق
النساء ، وتزدلفون اليهن بمثل صفاتهن وشمائلهن ، وأصبح
الرجل منكم لاهم له في حياته إلا أن يتجمل في ملبسه ، ويتكسر
في مشيته ، ويرقق من صوته ، ويلون ابتساماته ونظراته بألوان
التضعضع والفتور ، ويقضى الساعات الطوال أمام مرآته

متعهداً شعره بالترجيل ، وبشرته بالتنضير ، وثناياه بالصقل
والجلاء ، حتى صار ذلك عادة من عاداتكم التي لا تنفك عنكم ،
وحتى سرى التأنيث من أجسامكم إلى نفوسكم ، فلم يبق فيكم
من صفات الرجولة وأخلاقها غير الاسماء والالقب
إن كان حقاً ما يقولون كله أو بعضه فرحمة الله عليكم
أيها الفتيان المساكين ، وسلام على الفضيلة والشرف سلام
من لا يرجو عودة ، ولا ينتظر إيابا

إن هذه الفتاة تحترق ونها اليوم وتزدرونها ، وتعبثون
ماشئتم بنفسها وضميرها ، إنما هي في الغد أم أولادكم ، وعماد
منازلهم ، ومستودع أعراسكم ومروآتكم ، فانظروا كيف
يكون شأنكم معها غداً ، وكيف يكون مستقبل أولادكم
وأنفسكم على يدها

أين تجدون الزوجات الصالحات في مستقبل حياتكم
إن أنتم أفدتم الفتيات اليوم ! وفي أى جو يعيش أولادكم
ويستنشقون نسيمات الحياة الطاهرة إن أنتم لو تم الاجواء

جميعها وملاّتموها سموماً وأكداراً ؟

لا تتكون أخلاق الفتاة في عهد طفولتها أو في عهد شيخوختها ، بل في عهد شبابها ، فإذا سلم لها ذلك العهد فقد سلم لها كل عهد بعد ذلك ، فدعوها تجتزّ هذه المرحلة الوحيدة من مراحل حياتها شريفة طاهرة تجدوا فيها بعد قليل من الزمن خير زوجة أزواج ، وخير أم للولد ، وخير سيدة للمنزل

لا تعجلوا عايبها وانظروا بها قليلاً لتستطيعوا أن تجدوها غداً زوجة طاهرة شريفة في منازلكم ، بدلاً من أن تجدوها فناة ساقطة مزدرة مطرحة على أعتاب المواخير والحانات

لا تزعموا بعد اليوم انكم عاجزون عن العثور بزوجات صالحات شريفات يحفظن لكم أعراضكم ، ويحرسن سعادتكم وسعادة منازلكم ، فذلك جنابة أنفسكم عليكم ، وثمرّة ما غرست أيديكم ، ولو أنكم حفظتم لهن ماضيهن لحفظن لكم حاضرکم ومستقبلکم ، ولكنكم أفسدتموهن ، وقتلتم نفوسهن ،

ففقدتموهن عند حاجتكم اليهن

إني لأفزع في أمركم إلى القانون ، فالقانون في هذا البلد مدني لأدبي ، ولا إلى الحكومة ، فالحكومة مشغولة بشأن نفسها عن شأن غيرها ، ولا إلى الدين ، فقد ضعف شأنه في نفوسكم حتى هان أمره عليكم ، ولا إلى آبائكم وأولياء أموركم ، فقد عجزوا عنكم ، وأصبحوا يبتكون مع الباكين عليكم ، بل أفزع في أمركم إلى ضمائركم التي هي الأمل الباقي لنا بعد فقد جميع آمالنا فيكم ، فاصغوا إلى صوتها ساعة تسمعوا منها هذا الرجاء الذي نرفعه اليكم ، وصوت الضمير أقوى من كل صوت في العالم

أصغوا إليه تسمعه يقول لكم : إن هؤلاء الفتيات اللواتي لا تستحيون أن تمدوا اليهن أعينكم وأيديكم إنما هن أخواتكم الحميات يجمعكم وإياهن أب واحد وهو النيل ، وأم واحدة وهي البلد ، وشرف الأخوة هو الملجأ الأمين لأعراض الأخوات وشرفهن

يجب أن لا يُفتح قلب الفتاة لاحد من الناس قبل أن يفتح لزوجها لتستطيع أن تعيش معه سعيدة هائلة لا ينقصها ذكرى الماضى ، ولا تختلط فى مخباتها الصور والالوان . ولا أعرف فتاة فى هذا البلد بدأت حياتها بغرام قط فاستطاعت أن تتمتع بعده بحب شريف

ولا أزال أذكر حتى اليوم حادثة ذلك الفتى الذى أهدت اليه حبيبته رسمها موقعا عليه ، بتوقيعها ، فلما تزوجت وكان لا يجب ذلك منها أراد الانتقام منها فقطع رأس الصورة ووضعها على جسم عاربتلك الطريقة الفنية المعروفة ، ثم أرسلها مع كتاب وشاية الى زوجها ليلة عرسها ، فالبثت أن خسرت فى لحظة واحدة سمعتها وسعادتها

وحدثنى من أثق به ان كثيراً من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن الا بعد أن يأخذن على أنفسهن عهداً أما ، أخلائهن أن يكنَّ لهم بعد الزواج ، أى بعد أن يصبحن مطلقات من قيود العذرة وروابطها ، وقلما تزوج فتاة

ذات صلات فاسدة من رجل إلا وردت عليه ليلة البناء بها
أو في صبيحتها كتب الوشاية بها من الاشخاص الذين
اتصت بهم ، وأخلصت اليهم ، فانهى أمرها في حياتها
الجديدة بالشقاء والعار

نحن في حاجة الى ان نعلم بناتنا ، لاننا لانريد ان
يعشن جاهلات متأخرات ، فتنجوا عن طريقهن أيتها
الغواة المفسدون ليستطعن ان يختلفن الى مدارسهن آمنا
مطمئنات على نفوسهن وأعراضهن ، ولا تزعجهن بفضولكم
وإسفافكم ، فاننا لم نبعث بهن في تلك السبيل ليفسدن شرفهن
وعفتن ، بل ليضفن الى فضيلة الأدب والكمال فضيلة
العلم والمعرفة

أفسحوا الطريق لهن ، وأفسحوها للعامة الخارجة في
طلب رزقها ، والارمل المسترزقة لبنائها ، والفقيرة العاجزة
عن قضاء حاجتها إلا بنفسها ، والذاهبة لصله رحمها ، والسائرة
لزيرة قبر فقيدها ، ولا تكونوا حبر عترة في سبيل حرية

المرأة في ذهابها وحيثها واضطرابها في مذاهب الارض.
 سعياً وراء رزقها ، وقضاء مصالحها ، فان أيتّم عاينها ذلك
 فاعترفوا أنكم أعداؤها القساة المنوحشون ، لانكم تأبون
 عليها إلا إحدى الخطتين القاتلتين ، إما الجهل الدائم ، أو
 السقوط العظيم

الفضيلة الفضيلة أيها القوم ! فمضى العزاء الوحيد لهذه
 الامة المسكينة من جميع آلامها ومصائبها ، والامل الباقي
 لها إن ضاعت لا قدر الله جميع آمالها وأمانيتها ، والشرف
 الشرف فربما جاء يوم ندير فيه أعيننا من حولنا فلا نجد مما
 تملك أيدينا شيئاً سواه

المؤتمر الاسلامى

سرى منظر ذاك الرجل ^(١) العظيم ، والداعى الكريم ،
وهو قادم الى مصر ، يجتاز النخوم ، ويتخطى البلدان ،
ويطوى الفراء ، طى الكواكب الخضراء ، يقوده الامل ،
ويسوقه الرجاء ، وبين جنبيه هممة عالية ، ونفس كبيرة ، وقلب
مشيع ، وفؤاد فى الافئدة ، كالنسر فى الطيور ، يخلق فى جو
الاسلام تخليق من يحاول أن يظلمه بجناحيه

سرى منظره ، وإن لم أره ، وهو قائم بين جماعة المسلمين
يحاول أن يرأب صدعهم ، ويلم شعثهم ، ويجمع كلمتهم ،
ويؤلف بين قلوبهم ، ويدعو الى الله تعالى دعوة النبوة
الأولى ، إلا أن تلك عربية تدعو الاعجمية ، وهذه
أعجمية يدعو العربية الفصحى

(١) كتبت لماسة حصور المصلح الاسلامى الشهير اسماعيل بك غصرسكى الروسى
أنى مصر فى سنة ١٩٠٨ للدعوى الى مؤتمر إسلامى عام

هنا ذكرت الاسلام ومجده ، والاسلام وجنده ،
والاسلام ودولته ، والاسلام وصولته ، وذكرت أبا بكر
وهو يقاتل أهل الردة ويقول . والله لو منعوني عقال بعير
لقاتلتهم عليه ، وذكرت عمر وهو واقف فى مرائب المدينة
فى حمارة القيظ يستقبل شجاعاً أسود يرفعه الآل ويخفضه ،
ويطويه الأديم وينشره ، حتى اقترب منه فتبينه فاذا هو
أعرابي قادم من سواد العراق فجعل يسايرده وهو راجل
والأعرابي راكب لا يعرفه ويسأله ما فعل الله بسعد وجنده ،
فيحدثه القادم عن فتح القادسية والمدائن ، وما أفاء الله به
على المسلمين من عرش كسرى وذخائره ، وتراث مرابته
ودهاقينه ، وعمر لاه عن نفسه سروراً بما سمع ، وفرحاً بما
تم ، وذكرت صلاح الدين وهو يقود الجحفل اللجب ،
والجيش العرمرم ، إلى حيث يستنمذ الثغور ، ويستخلص
الأمصار ، ويخوض حمرة الحرب المتأججة ليفتدى بنفسه

أجساما ان لم تلتهمها النيران فكان قد ، وذكرت محمداً
 الفاتح وهو يلعب بكرة الأرض لعب الصبي بكرته ،
 ويخترق بسفائن البحر ، رمال القفر ، حتى نزل بالقسطنطينية
 نزول القضاء ، من السماء ، وسجد فى معبد آياصوفيا سجدة
 الشكر لله على نعمته وحسن توفيقه ، وذكرت صقر
 قريش وقد طار من الشرق إلى الغرب ، فأنشأ وحده
 دولة خضعت لها أفريقيا وبعض أوربا ، وذكرت مع
 أبطال الحرب أبطال السلم ، وذكرت عمر بن عبد العزيز
 وعدله ، والمأمون وفضله ، والغزالي وحكمته ، وابن رشد
 وفلسفته ، ومعاوية وسياسته ، وعبد الملك وكياسته ،
 وذكرت مدارس بغداد وبخارى والاسكندرية والقاهرة
 وقرطبة واشبيلية وقرطبة ، وذكرت مترجمى كتب إقليدس
 وبطليموس وإرسطو ، وواضعى علوم الجبر والمقابلة
 والكيمياء ، وذكرت مخترعى البندول والبوصلة « بيت
 الأبرة » والساعة الدفاعة التى أهداها الرشيد الى شارل كان

ملك فرنسا ففزع منها سامعوها فزعا شديداً ، وسموها شيطانا رجما ، أو آلة سحرية ، أو مكيدة عربية ، إلى كثير من أمثال هذه الآثار العربية ، والمفاخر الاسلامية

ثم ذكرت الاسلام إذ ضربه الدهر بضرباته ، ورماه بنكباته ، فأصبح أثرنا من الآثار ، وخبراً من الأخبار ، وعليلا حار فيه أطباؤه ، ومله عواده ، وظل مترجماً بين داهيتين ومضطراً بين غائتين ، إما أن يموت موة أبدية وبالله العياذ ، أو يحيا حياة مادية ، لاحياة أدبية ، وينهض جامعة تجارية ، لاجامعة دينية ، مادامت المادة قاعدة الحكومات ، ومادامت الحكومات عدوة الأديان ، ومادامت الأديان لا تستطيع التحليق إلا في فضاء من الحرية لا ينتهى البصر فيه الى مدى. لذلك أحزننى عند سماع خطبة الخطيب ما يحزن الأثيب من ذكرى الشباب إذا عثر بين أوراقه البالية على رسائل الحب ، وأناشيد الغرام ، وأمضى ما يمضى العاشق المفارق ، إذا مر بالآثار ، واطلال الديار ، فرأى النوى والأحجار ،

وموقد النار ، ومجال الخيول ، ومجر الذبول ، فذكر ما كان
ناسياً ، وهاج من وجده ما كان كامناً ، فبكى واستعبر
وودَّ بمجدع الأنف لو عاد عهدا

وعاد له فيها مصيف ومربع
ليست الجاهلية الأولى بأحوج الى الإصلاح الدينى
من الجاهلية الأخرى ، بل ربما كانت هذه أحوج من
تلك اليه

كانت الجاهلية الأولى تعبد الأوثان لتقربها الى الله
زلفى ، وجاهليتنا تعبد الأحجار والأشجار ، والأحياء
والأموات ، والأبواب ، والكوى ، والقواعد والأساطين ،
تبركا ، أو تقربا ، لفظان مترادفان ، مختلفان لفظا ، متفقان
معنى ، ومن ظن غير ذلك فقد خدع نفسه

كانت الجاهلية الأولى متفرقة قبائل وشعوبا ، وجاهليتنا
متفرقة منازل وبيوتا ، بل آحاداً وأفراداً ، فلا تراحم ولا
تواصل ، ولا تعارف ولا تعاطف ، حتى بين الأخ وأخيه ،
والأب وبنيه

كانت جاهليتهم تسفك الدماء فى طلاب الأوتار ،
 وجاهليتنا تسفكها فى سبيل السرقات ، وقضاء الشهوات ،
 وكان أفضع ما فى جرائمهم وأد البنات ، فصار أخف ما فى
 جرائمنا الأنتحار ، وكان بعضهم يبنى على بعض بسرقة ماله ،
 أو استيقاق ماشيته ، ففعلنا مثل ما فعلوا ، وفوق ما فعلوا ، ثم
 فضأناهم بعد ذلك بتزوير الأوراق ، وتحريف الصكوك ،
 وتقليد الأختام ، والبراعة فى النصب والاحتيال ، يكاد يستوى
 فى ذلك العالم والجاهل ، والشريف الهاشمى ، والفلاح القروى
 ولينا إذ أخذنا جاهليتهم أخذناها كما هى رذائل
 وفضائل فيهن على المصلحين أمرها ، ولكننا أسأنا الاختيار ،
 فلنا خرافاتهم الدينية ، وأدواؤهم الاجتماعية ، وليس لنا
 كرمهم ووفائهم ، وغيرتهم وحميتهم ، وعزتهم ومنعتهم ،
 فكيف لا يكون الأمر خطيراً ، وكيف لا تكون الجاهلية
 الأخرى ، أحوج إلى دعوة كدعوة النبوة من الجاهلية الأولى
 نبثنى عن الاسلام أين مستقره ومكانه ، وأين مسلكه

ومضطربه ، وفى أى موطن من المواطن حل ، ومعهد من
المعاهد نزل

أفى الحانات والمواخير التى يغص بها الفضاء ، وتن
منها الأرض والسماء ، والتى ينتهك فيها المسامون حرمت
دينهم بلا خجل ولا حياء ، كأنما هم يشربون الماء الزلال ،
وينفشون البضع الحلال ، ولقد هان عليهم أمر أنفسهم حتى
لو وجدوا بينهم من يرى النقيّة فى عمله ، أو الاحتشام فى أمره ،
سموه جباناً جامداً ، أو متكلفاً بارداً ، كل ذلك على مرأى
ومسمع من الحكومة الاسلامية ، والمعاهد الدينية ،
والقضاءين الشرعيين والنظام

أم فى حوانيت الباعة حيث الغش الفاضح ، والغبن
الفاحش ، مزخرفاً بالأقوال الكاذبة ، والايمان الباطلة
أم فى مجالس الأحكام حيث للدينار الأحمر السلطان
الأكبر على سلطان العدل وسلطان الذمة وسلطان الشرائع ،
اللهم الا ما كان من تلك الألواح المكتوب فيها (العدل

أساس الملك أو (واذا حكتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)
 أم فى المساجد حيث يعتقد المصلون أنه لو كان بين
 الصلاة والصلاة مائة عام ، وكانت تلك الأعوام مملوءة بالآثام
 والجرائم ، والمفاسد والمظالم ، لكفت تلك الحركات التى
 يسمونها صلوات ، ومحسبونها حسنات ، لغفران تلك
 السيئات

أم فى معاهد الدين حيث يتلقى المتعلمون الدين جسماً
 بلا روح ، وعلماً بلا عمل ، كأنما يتلهون بدراسة إحدى
 الشرائع الدائرة ، أو أحد الأديان الغابرة ، وحيث يتلقون
 كشكولاً عجيباً وخلقاً غريباً من الأكاذيب والترهات ،
 فلا تكاد تسمع من أفواههم إلا حديثاً موضوعاً ، أو قولاً
 مصنوعاً ، أو خرافة تاريخية ، أو بدعة دينية ، وحيث
 يقضون حياتهم فى المناظرات والمجادلات ، والتحاسد
 والتباغض ، والتقاطع والتدابر ، وهى بعينها الأخلاق
 والذائل التى ما جاءت الأديان إلا لمحاربتها ، والقضاء عليها ،

فهم يهدمون من حيث يظنون أنهم يبنون ، ويسيثون
ويحسبون أنهم يحسنون صنعا

أم فى مجالس المتصوفة حيث الألعاب الجبازية ،
والحركات البهلوانية ، والسرققات باسم العادات ، وانتهاك
الحرمات بعموان البركات

إن أراد المصاحون لأنفسهم نجاحا ، وللاسلام صلاحا ،
فليبدأ واعمالهم بهذيب العقائد الدينية ، وتربية النشء الحديث
تربية اسلامية ، لا تربية مادية ، أى انهم يدخلون الى الاصلاح
من باب الدين ، لا من باب الفاسفة ، حتى يجمعوا للمسلمين
بين صلاح حالهم وماآلهم ، ودنياهم وآخرتهم ، وحتى يكون
الدين هو الزاجر والمؤدب ، والمعلم والمهذب ، والاسلام
وان كان دين العقل والفطرة ، والتهذيب والاصلاح ، ألا ان
اخطر كل اخطر على المسلمين أن يكون فى نظرهم تابعا
للعقل ، وان يكون العقل هو الحكم بينهم وبينه ، واخير
كل اخير فى أن يكون الدين حاكما ، والعقل مفسرا ومبينا

فاذا تم ذلك للمصلحين بالرفق والأناة ، والحكمة والسياسة ، فقد تم لهم كل شيء ، وتم للمسلمين ما يريدونه من الجاهليتين الدينية والسياسية ، كما تم لهم ذلك في العهد الأول من هذا الباب نفسه ، وفي هذا الجادة المستقيمة ، فهل يستطيع دعاة الإصلاح في الجاهلية الحاضرة أن يكونوا لدعائه في الجاهلية الأولى ، وهل يستطيعون أن يخلصوا الله في عملهم جادين مثابرين ، لا تأخذهم فيه هواة ، ولا عنه سنة ، وأن لا يرى أحدهم لنفسه على أخيه فضلا إلا بالآيمان والتقوى ، وأن يرى كل منهم نفسه بمنزلة المجاهد في سبيل الله ، يتحمل الأذى ويستسهل الوعر ، ويحتمل الكريهة ، ولا يجعل لليأس الى قلبه سبيلا ، ولا للهوان على نفسه سلطانا

هل يستطيع المصلحون أن يكونوا كذلك ليصلحوا في الآخرين ، ما أصلح المصلحون في الأولين « لست أدري ولا المنجم يدري »

لعمرك ما تدري الطوارق بالخصى

ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

في أكوخ الفقراء

« مترجمة »

مضى الليل إلا قليلا والظلام مخيم على السكون بأجمعه ،
والكواكب متلعة بأردية السحب ما يستشف منها الناظر
بصيصاً ولا قبساً ، والفضاء بحر خضم متراعى الأرجاء إلا أنه
ساكن الصفحة ، هادئ النأمة ، يقصر فيه قاب العين ،
وتضل في تيهه أشعة النظر حتى عن نفسها ، والغيوث منهأة
متواصلة ، تهمل بقوة واحدة ، وقوام واحد ، لا تغزُر ولا ترق ،
ولا تضرب خيوطها ، ولا تختلف نعمتها ، كأنما هي شباك
ممتدة بين السماء والأرض ، وكوخ السماك « فيليب » جاثم
في مجتمه بين الأكوخ المحيطة به ، لا يرى فيه الداخل غير
مصباح ضئيل يجاهد ذبالبته جهاداً شديداً في تمزيق قطع
الظلام المتكاثفة حولها ، وغير مجرّة هامدة قد خبت نارها إلا

بقايا جمرات شاحبات قد التفت بأكفانها البيضاء ، وأخذت طريقها في مدرجة الفناء ، وقد يرى الناظر على ضوء ذلك المصباح الضئيل بضع شبكات معلقة باخدران كأنها الأشباح الماثلة ، ومنضدة عارية قد نُشرت فوقها بضعة آنية نحاسية تلمع لمعاناً ضعيفاً في ذاك الحندس كأنها عيون الجنادب ، فاذا دار الواقف بنظره حوله رأى حشية مبسوطة على الأرض قد اضطجع فوقها ثلاثة أطفال متلاصقين أخذ بعضهم بأعناق بعض ، كما تتأخذ الافراخ في أعشاشها ، وكما يضم الخوف الضلوع بعضها الى بعض ، وعلى مقربة من فراشهم امرأة صفراء شاحبة جائئة على ركبتها تصلى وتبتهل ، وتدعو الله تعالى بصوت خافت متهافت أن يرد لها زوجها سالماً ، وكان قد خرج كعادته لصيد السمك من البحر فلم يعد حتى الساعة

وإنها كذلك إذ هبت الزوبعة هبوباً عظيماً ، فاهتزت لها جوانب الكوخ اهتزازاً شديداً ، وأن لوقعها الأطفال

في لفائفهم ، فطار قلبها فزعاً ورعباً ، وخيل إليها أن هدير
 الأمواج ، ودمدمة الرعود ، وزفيف الرياح ، وقعقة السقوف
 والجدران ، إنما هي نذُرُ السوء تنذرُها بمصير زوجها المسكين
 في أعماق ذاك الأوقيانوس العظيم ، فظلت تُردد بينها وبين
 نفسها رب إني بأئسة مسكينة لاسند لي ولا عضد ، وإن
 هؤلاء الأطفال الصغار عاجزون لا يستطيعون أن يقولوا
 أنفسهم ، ولا أن يعتمدوا على حولهم وحيلهم في شؤون
 حياتهم ، فاحفظ لي ولهم حياة ذاك الرجل المسكين الذي
 أسلم أمره اليك ، وأودع حياته بين يديك ، وخرج في طلب
 الرزق من ساحتك ليعود به على هذه الأسرة الفقيرة المدممة ،
 فلم يعد حتى الساعة ، ولا ندري ما فعلت به يد الاقدار
 ما أعظم بؤسنا وشقاءنا نساء الصيادين وأولادهم !
 إنهم يتركوننا وحدنا في هذه الاكواخ الموحشة ،
 ويذهبون لطلب العيش في ذلك التيه المائت العظيم الذي لانهاية
 لعمقه ، ولا حد لاتساعه ، ولا عاصم من مخاعره ، ويحاولون .

انتزع أروافهم من بين ماضى تلك الامواج الثائرة الفائرة
 أفواهاها كالذئاب الجائعة ، تحاول التهام كل ما يدنو منها .
 ولعل القدر الذى نخشاه عليهم فى هذه الساعة قد نزل بهم ،
 فلم تغن عنهم شيئاً تلك الرقائق الخشبية المتلاصقة التى
 يسمونها زوارق . ولعلمهم لبثوا ساعات طوالا يصارعون
 الامواج وتصارعتهم حتى غابتهم على أمرهم ، فداروا بأعينهم
 حولهم ليفتشوا عن زوارقهم المنقلبة فلم يروا منها الا بقاياها
 المتطايرة فى مهاب الرياح ، فحاولوا أن يسبحوا اليها فأفلتت
 من أيديهم ، فنال منهم العياء ، فهووا إلى ذلك القاع العميق
 ليصبجوا فيه طعاما للأسماك التى كانوا يظنون منذ ساعة
 أنها ستصبح طعاما لهم

هناك يأتينا نعيهم فنبكى وندب ، ونهرع إلى
 الشاطئ والهين مدلهين ، ونقف أمام ذلك العالم المجهول
 الغامض صائحين أن رُدَّ إلينا أيها الوحش المقترس ببعولتنا
 وأولادنا ، وأفلاذ أكبادنا ، أو تكشّف عن نفسك ، قليلا

عانا نرى جشهم في قاعك العميق ، فلا نسمع مليياً ولا مجيياً
وهنا هدأت الزوبعة قليلاً ، وخفتت أصوات الرياح ،
فسكن بعض ما بها ، ونهضت من مكانها فتناولت المصباح
وفتحت باب الكوخ وقلبت وجهها في السماء لترى كم بقي
بينها وبين الصباح ، وكان الظلام لم يزل حالكا ، والمطر
لم يزل منهلاً ، فمدت يدها بالمصباح أمامها لترى هل من
مقبل يتقدم ، أو شبح يتحرك ، فلم يقع نوره إلا على كوخ
بعيد منفرد لا نور فيه ولا حركة ، فتذكرت حينما وقع نظرها
عليه أنه كوخ تلك الارملة المسكينة « جانت » التي مات
زوجها غريقاً منذ بضعة شهور وخاف لها أطفالاً صغاراً
تقاسى الآلام الشداد والاهوال العظام في تدبير عيشهم ،
وتقويم أودهم ، فربخاظرها ان تزورها وتتعرف حالها ، لانها
كانت تعلم انها مريضة مدنفه ، وانها كابدت ليلة أمس من
دائها عناء عظيماً ، وأقرب ما تكون النفوس إلى النفوس إذا
جمعتها في صعيد واحد هموم الحياة وآلامها ، فأخذت طريقها

إلى ذلك الكوخ حتى باغته ، فوقفت على بابه وقرعته مراراً فلم يرد عليها أحد ، فدفعته ففتح ، فدخات رافعة مصباحها أمامها فأنازلها ما حولها فرأت بين يديها ما أرعد فرائصها ، واستوقف دقات قلبها ، وأمسك الدم عن جريانه في عروقها

رأت الكوخ يهتز ويضطرب في أيدي الرياح المتناوحة ورأت مياه الأمطار تسيل من سقفه الواهي الآخرق فتبلل كل شيء فيه ، ورأت فراشاً قدراً من القش قد رقدت فوقه الأرملة « جانت » رقدة ساكنة جامدة لاحس فيها ولا حركة ، فدنت منها ولمستها بيدها فإذا هي ميتة ، وإذا قطرات من الماء تتحدر من السقف على جبينها ورأسها وغطائها البالي الممزق ، فوقفت امام هذا المنظر الخيف المرعب ذاهلة مشدوهة ثم صاحت :

هذه نهاية الفقراء على ظهر الأرض ، وهذا مصيرهم الذي يصيرون إليه بعد جهادهم في سبيل الحياة زمناً طويلاً

إنهم يعيشون في هذا العالم مجهولين مغمورين لا يعرفهم
أحد ، ثم يخرجون منه متسلاين متلاوذين ، لا يشعر بخروجهم
حتى أهلوهم وذوو أرحامهم

ما يدريني ألا يكون مصيرى ومصير أولادى غداً
هذا المصير الذى أراه الآن ، وقد لا تدخل على فى تلك
الساعة جارة من جارأتى ترانى وترثى لحالى كما أرثى الآن
لحال هؤلاء المساكين

ثم خلعت رداءها فأسبلته على جثة الميتة ، ودارت بمصباحها
فى أنحاء الغرفة فرأت طفليها الصغيرين نائمين على فراشهما
وجهاً لوجه ، وعلى ثغر كل منهما ابتسامة صغيرة ، كأن شبح
الموت الهائم حول مضجعهما لا يخيفهما ، ولا يزعج سكونهما ،
ورأت رداء أمهما وكانت تعرفه قبل اليوم مسبلاً عليهما
نخيل إليها أنها ترى منظر تلك المرأة المسكينة قبل ساعة أو
ساعتين وهى تعالج فى فراشها سكرات الموت ، ثم تلتفت من
حين إلى حين إلى طفليها النائمين ، والمطر يتساقط عليهما

والبرد يعيث بأعضائهما ، فتشفق عليهما ، وترثي لهما ، حتى ضافت بها ساحة الصبر ، نخلت عنها رداءها وهي أحوج ما تكون إليه ، وألقته عليهما ، ثم ألت بنفسها على فراشها وأسلمت روحها

وقفت ماري أمام هذه المناظر المؤلمة ، والريح تن أنين الوالدين المتسائين ، والموج يعج عجيج أجراس الموت ، وقطرات الماء تنحدر من جبين الميتة إلى خديها الشاحبين كأنما هي تذرف دموع الحزن على فراق ولديها ، وكان الفجر قد أخذ يمسح عن وجهه صبغة الظلام ، ويرسل بعض أشعته في جوانب الكوخ ، فأطفأت ماري المصباح الذي بيدها ووضعت جانبا ، ثم جثت بجانب الميتة وصلت لها ماشاء الله أن تفعل ، ثم نهضت ومشت إلى مكان الطفلين وحملتهما برفق وسكون ومشت بهما حتى باغت كوخها ، فاضجعتنهما بجانب طفليها ، وأسبلت عليهن جميعاً رداء واحداً

ثم جلست بجانبهم تقول بينها وبين نفسها : لا أدرى
أأصبت فيما فعلت أم أخطأت ، وإنما أدرى أن المرأة التي
أودع الله قلبها شعور الأمومة وإحساسها لا تستطيع أن ترى
طفلين طريحين على فراشهما في كوخٍ عارٍ من كل شيء إلا
من جثة أمهما فتتركهما وشأنهما دون أن تعلم ما مصيرهما
بعد ذلك

إن المنظر الذي رأيته ما كان يسمح لي بالتفكير في
نتيجة العمل الذي أعمله ، فإن تبين لي بعد ذلك أنني مخطئة
فليس معنى هذا أنني كنت أستطيع تجنب الوقوع في هذا
الخطأ ، لأن قلبي من لحم ودم ، لا من فولاذ وصوان
نعم إن زوجي فقير ، وإن طفلي معدمان بألسان
لا يكادان يشبعان من الخبز ، وإن عناءنا في تربية أربعة أطفال
سيكون ضعف عنائنا في تربية طفلين ، ولكن لا يجوز لنا
ضناً براحة أنفسنا أن نترك طفلين صغيرين يموتان على مرأى
منا ومسمع برداً وجوعاً

ذلك ما سأقوله لزوجي عند رجوعه ، وما أحسبه
 قاسياً ولا متوحشاً فينكر عليّ فعلى هذه ، ويأمرني بالقائماً
 خارج الباب

ثم وقفت عن الكلام فجأة لأنها سمعت صير الباب
 وهو يدور على عقبه فارتعدت ، ثم علمت أنها الريح ، فأطرقت
 برأسها ساعة ذهبت فيها بتصوراتها وأفكارها كل مذهب ،
 فبكت وضحكت ، وغضبت ورضيت ، وأملت ويئست ،
 ورحمت وقست ، وحمدت فعلتها ، وندمت عليها ، وأحسنت
 الظن بزوجها ، وأسأته به ، وظل فؤادها نهياً مقسماً في يد
 الهموم والأفكار ، حتى شعرت بسواد يتقدم نحوها ،
 فاستطير قلبها خوفاً ورعباً وانتبهت فاذا زوجها داخل يحمل
 شبكته على ظهره والماء يقطر منها ، فهضت إليه وعانقته ، ثم
 ألقت نظرها على وجهه فأنكرت شحوبه وتضعضه كما
 أنكر ذلك منها حين رآها ، وسألته كيف كان حظه
 الليلة ، وماذا كان شأنه مع العاصفة ، فألقى بشباكه وقصبه

على الأرض وظل يقول لها : أما الليلة فكانت مزعجة جداً لم
أر في حياتي مثلاً ، وأما الصيدُ فهاهي يدي صفر منه كما تريّن ،
ولولا رحمة الله بي وبكم لهدكت ، وما أنا بأسف على شيء
ما دمت أراكم بخير ، وكيف حال الولدين ؟ فارتعشت وقالت
هما بخير ، قال مالي أراك شاحبة صفراء ، وكيف قضيت لياتك ؟
فأطرقت برأسها وقالت : قضيتها في خياطة قميصين الولدين ،
وكنت كلما سمعت صوت العاصفة وهدير الأمواج خفت
عليك ، أما الآن فقد زال كل شيء والحمد لله ، ثم نظرت
إليه وبين شفيتها كلمة تحاول أن تنطق بها فلا تستطيع ، ثم
استنصرت جلدّها وقوتها وقالت . وشيء آخر أحننني جداً ،
قال وما هو ؟ قالت قد علمت الساعة قبل رجوعك بقليل أن
جارتنا « جانت » قد لبثت دعوة ربها ، وأن ولديها الصغيرين
قد أصبحا وحيدين في هذا العالم لا عائل لهما

فاضطرب عند سماع هذه الكلمة ، ونهض من مكانه
وتمشى قليلاً ، ثم ألقى بقبعته المبللة بالماء على سريره ، وظل

يعبث بشعر رأسه ، فيشده حيناً ، ويمسحه أخرى ، وهي تتبعه
بنظراتها لتفحص صورة نفسه المرتسمة على وجهه ، ثم جلس
على المائدة القائمة في وسط الكوخ ، وظل يقول بينه وبين
نفسه بصوت ضعيف متهدج

رب إني وإن كنت رجلاً جاهلاً فذماً لا أستطيع
أن أفهم حكمتك في حرمان هذين الولدين البائسين من أمهما
إلا أنني معترف بوجود تلك الحكمة لأنكرها ، ولا بد أن
الذين يعلمون أكثر مما أعلم ، يفهمون من شؤونك
وتصرفاتك فوق ما أفهم

نعم إنني فقير مسكين أعيش تحت رحمة المصادفات
والاتفاقات ، وربما مر على وعلى أولادى أيام لا نجد
فيها ما نأتم به ، ولكن ماذا أصنع وقلبي يتألم لحال هذين
اليتيمين الصغيرين أكثر مما يتألم من الجوع والسغب
ثم التفت إلى زوجته وقال لها : إنني متألم جداً
يامارى ، ونحيل إلى أن روح تلك المرأة المسكينة واقفة

الآن أمام هذا الباب تقرعه وتضرع إلينا أن نأخذ ولديها
إلينا، ونكفلهما من بعدها، ولكن كيف العمل يا إلهي ؟
فقلت إني أكاد أسمع هذا الصوت الذي تسمعه يافيليب ،
وإني ألى عظيم كأملك ، فصمت هنيهة ثم انتفض انتفاضة
شديدة ودنا منها وقال لها : ألم يمت لنا طفلان في العامين
الماضيين يا ماري ؟ قالت بلى ، قال ماذا كنا نصنع لو أنهما
بقيا حيين حتى اليوم ؟ قالت لأشياء سوى أننا ننزع إلى الله
في أمرهما ، قال فانهزع إلى الله في أمر هذين الطفلين
اليتميين ، وكأنّ ولدنا لا يزالان حيين حتى اليوم ، أو كأنهما
بعثا من قبرهما بعد موتهما

اذهي إليهما يا ماري وأحضريهما ، فربما استيقظا بعد
هنيهة من نومهما فرأيا منظر أمهما الميتة في فراشها فماتا
خوفاً ورعباً

اذهي إليهما واحمليهما برفق وهدوء دون أن توقظيهما
وأضعيهما على فراش ولدنا فسيكون منظرهم جميعاً جميلاً

جداً حينما يستيقظون من نومهم وينظر بعضهم في وجوه بعض ، وحرام على النبيذ واللحم بعد اليوم لأستطيع أن أقوم بنفقة هذه الأسرة الكبيرة التي أصبحت سيدها وعائلها ، إذهي يامارى وثقى أن الله سيملاً علينا بيتنا خبزاً وخبزاً بركة هؤلاء الأطفال الطاهرين

فهلل وجهها بشراً وسروراً ونهضت من مكانها ومشت إلى مضجع الأطفال رفعت عنهم الغطاء ، ونظرت إلى زوجها صامته لا تقول شيئاً ، فما وقع نظر « فيليب » على هذا المنظر الغريب حتى استطير فرحاً وسروراً ، وهرع الى زوجته واحتضنها الى صدره وقال لها ما أشرف قلبك يامارى !

ياسكان القصور : ليتكم من سكان الأكوخ لتستطيعوا أن تكونوا من الراحين المحسنين

الضمير

أتدري ما هو الخلقُ عندى ؟

هو شعور المرء أنه مسئول أمام ضميره عما يجب أن

يفعل

لذلك لا أسمى الكريم كريما حتى تستوى عنده
صدقة السر وصدقة العلانية ، ولا العفيف عفيفا حتى يعف
في حالة الأمن كما يعف في حالة الخوف ، ولا الصادق
صادقا حتى يصدق في أفعاله صدقه في أقواله ، ولا الرحيم
رحيما حتى يبكي قلبه قبل أن تبكي عيناه ، ولا المتواضع
متواضعا حتى يكون رأيه في نفسه أقل من رأى الناس فيه
التخلق غير الخلق ، وأكثر الذين نسميهم فاضلين
متخلقون بخلق الفضيلة ، لافاضلون ، لأنهم انما يلبسون هذا
الثوب مصانعة للناس ، أو خوفا منهم ، أو طمعا فيهم ، فان

ارتقوا عن ذاك قليلا لبسوه طمعا في الجنة التي أعدها الله
 للمحسنين ، أو خوفا من النار التي أعدها الله للمسيئين
 أما الذي يفعل الحسنة لأنها حسنة ، أو يتقى السيئة
 لأنها سيئة ، فذاك من لا نعرف له وجوداً ، أولاً نعرف
 له مكاناً

لا ينفع المرء أن يكون زاجره عن الشر خوفه من
 عذاب النار ، لانه لا يعدم أن يجد بين الزعماء الدينيين من
 يلبس له الشر لباس الخير فيمشى في طريقت الرذيلة ، وهو
 يحسب أنه يمشى في طريقت الفضيلة ، أو خوفه من القانون ،
 لان القوانين شرائع سياسية وضعت لحماية الحكومات ،
 لا لحماية الآداب ، أو خوفه من الناس ، لان الناس لا ينفرون
 من الرذائل ، بل ينفرون مما يضرّ بهم ، رذائل كان أم فضائل ،
 وإنما ينفعه أن يكون ضميره هو قائد الذي يهتدى به ،
 ومناره الذي يستنير بنوره في طريق حياته

وما زالت الأخلاق بخير حتى خذلها الضمير وتخلي

عنها ، وتولت قيادتها العادات والمصطلحات ، والقواعد
والأنظمة ، ففسد أمرها ، واضطرب حبلها ، واستحالت الى
صور ورسوم ، وأكاذيب وألأعيب ، فرأينا الحاكم الذى
يقف بين يدى الله ليؤدى صلاته وأسواطُ جلاديه تمزق
على مرأى منه ومسمع جسم رجل مسكين لا ذنب له عنده
إلا انه يملك صُباة من المال يريد أن يسلبه إياها ، والامير
الذى يتقرب الى الله ببناء مسجد قد هدم فى سبيله ألف
بيت من بيوت المساكين ، والفقيه الذى يتورع عن تدخين
غليونه فى مجالس القرآن ، ولا يتورع عن مخالفة القرآن نفسه
من فاتحته الى خاتمته ، والغنى الذى يسمع أنين جاره فى
جوف الليل من الجوع فلا يرق له ولا يحفل به ، فاذا أصبح
الصباح ذهب إلى ضريح من أضرحة الأولياء ، ووضع فى
صندوق النذور بادرةً من الذهب قد ينتفع بها من لا حاجة
به اليها ، والمومس التى تنصدق بنفسها ليلة فى كل عام على
روح بعض الاولياء تمدها أنها قد كفرت بذلك عن سيأتها
طول العام

الى كثير من أمثال هذه النقائص التى يزعم أصحابها
 ويزعم لهم كثير من الناس أنهم من ذوى الاخلاق الفاضلة ،
 والسيرة المستقيمة

الخلق هو الدمة التى تترقق فى عين الرحيم كلما وقع نظره
 على منظر من مناظر البؤس ، أو مشهد من مشاهد الشقاء
 هو القلق الذى يساور قلب الكريم ويحول بين جفنيه
 والاغتماض كلما ذكر أنه ردّ سائلا محتاجا ، أو أساء الى
 ضعيف مسكين

هو الحمرة التى تلبس وجه الحىّ خجلا من الطارق
 الانتاب الذى لا يستطيع رده ، ولا يستطيع مد يد المعونة اليه
 هو اللجاجة التى تعترى لسان الشريف حينما تحدّثه نفسه
 بأكذوبة ربما دفعت إليها ضرورة من ضرورات الحياة

هو الشرر الذى ينبعث من عيني الغيور حينما تمتد يد
 من الايدى الى العرش بعرضه أو بكرامته

هو الصرخة التى يصرخها الأبنى فى وجه من يحاول

مساومته على خيانة وطنه ، أو ممالة عدوه

الخلق هو أداء الواجب لذاته ، بقطع النظر عما يترتب
عليه من النتائج ، فمن أراد أن يُعلم الناس مكارم الأخلاق
فليُحِثْ ضمائهم ، وليبث في نفوسهم الشعور بمحب الفضيلة ،
والنفور من الرذيلة ، بأية وسيلة شاء ، ومن أى طريق أراد ،
فليست الفضيلة طائفة من المحفوظات تُحْشَى بها الأذهان ،
بل ملكات تصدر عنها آثارها صدور الشعاع عن الكوكب ،
والأريج عن الزهر



مدرسة الغرام

كنت لأسأل الله تعالى إلا تقدم هذه الأمة وارتقاءها ،
وبلوغها في المدنية مبلغاً يؤهلها لمجارات الأمم الغربية في عظمتها
وسلطانها ، فأصبحت أسأله ألا يستجيب دعائي وألا ينيلها
من تلك المدنية فوق ما أنا لها

أصبحت أعتقد أن مفاصد الأخلاق والمدنية الغربية
شيئان متلازمان ، وتوأمان متلاصقان ، لا افتراق لأحدهما
عن صاحبه إلا إذا افترقت نشوة الخمر عن مرارتها ، فكيف
أتمناها لأمة هي أعز على من نفسى التي بين جنبي

قرأت حوادث الانتحار في الغرب ، فقلت قوم ضعفت
قلوبهم عن احتمال حوادث الدهر وأرزائه فلم يستطيعوا
الوقوف في طريقها وقفة الشجاع المستقتل ففروا من وجهها
إلى حيث يجدون الراحة الدائمة في أعماق القبور ، وما أكثر

الجنباء فى مواقف الحرب وميادين الجهاد

قرأت حوادث المبارزة فقلت قوم قد عجزت يد
المدنية الحاضرة أن تستل من بين جنوبهم ما كانوا يعتقدون
فى عهد الحمجية الأولى من أن العرض إناء إذا ألم به القذى
لا يغسله إلا الدم المسفوح، وكثيراً ما أوردت العقائد النفوس
موارد الخوف

قرأت حوادث عشاق الموتى الذين يتسللون تحت جناح
الظلام إلى المقابر فينبشونها عن رفات الفتيات المقبورات ،
شوقاً إلى لثمة من خد يرشح صديده ، أو رشفة من ثغريتناثر
دودده ، حتى انه ليروقهم من منظر الساكنات تحت الرجام ،
فوق ما يروقهم من منظر المقصورات فى الخيام ، فلم
طاردهم الحكومة عن أمنيتهم ، وحالت بينهم وبين مواطن
غرامهم ، ومواقف عشقهم وهيامهم ، رأوا أن يحتالوا على
الامام بأولئك الموتى خيالا ، لما فاتهم الامام بهم حقيقة .
فأنشأوا لأنفسهم فى باطن الأرض قاعة كبرى كسو

جدرانها بالأستار السوداء ، ووضعوها في وسطها صندوقاً من صناديق الموتى تنام فيه فتاة حية تنصنع الموت باصفرار لونها ، وإسبال جفونها ، وسكون أعضائها ، وتعليق أنفاسها ، فإذا لج بأحدهم الشوق إلى الالم بفتاة ميتة نزل إلى تلك القاعة السوداء ، وعالج مخيلته على أن يتصورها قبراً مظاماً موحشاً ، يضم بين أقطاره فتاة ميتة لأحراك بها ، فيلم بها وهو يسمع نعمات الأحزان من قيادة أعدت وراء القاعة لتجسيم ذلك الخيال

قرأت هذا وقرأت أن منهم من تجاوز به جنونه وهوسه إلى الغرام ببعض أنواع الحيوان ، حتى أنهم نصبوا لأنفسهم مواخير خاصة يهتدون فيها بالدجاج والبط والأوز إمام غيرهم بالنساء البغايا ، فقلت لأعجب في ذلك ، وهل هو إلا فن من فنون الجنون التي لا يجد المرء إلى حصرها سبيلاً إن كنت أعتفر للمدنية الغربية كل ذنوبها فاني لا أعتفر لها ذنبها في مدرسة الغرام التي أنشأها قوم من الأميركيين

فى وسط مدينة من مدن أمريكا ليعلموا فيها النساء والرجال
فنون الحب والمغازلة جهرة من حيث لا يرون فى ذلك بأساً ،
ولا يجدون فيه متلواً ، وقد وضعوا لها البرنامج الآتى :

يوم الاحد — دروس استعدادية

» الاثنين — الغزل

» الثلاثاء — المطارحة

» الاربعاء — صناعة التقبيل والتجميش

» الخميس — فلسفة الدلال والتصى

» الجمعة — اختيار مواعيد اللقاء

» السبت — الامتحان

هذه هى المدرسة الغرامية ، وهذا نظامها ، فهل سمعتَ
فى حياتك أن أمة من الأمم المتوحشة التى يسمونها الامم
البيمية إشارة إلى ما بينها وبين البهائم من الشبه فى حب
الشهوات والاستهتار فيها قد بلغت فى تهتكها وفساد أخلاقها
مبلغ تلك الامة التى يقولون عنها إنها زهرة المدينة الحديثة ،
وتاجها المرصع

لماذا نسمى قبائل الزنوج قبائل متوحشة ، ونحن نعلم فيما
نعلم من أخلاقهم أنهم لا يتركون عزابهم ينامون وسط
البيوت مخافة أن يكون لهم سبيل الى مخالطة النساء ،
فيأخذونهم جميعاً الى مكان خاص بهم خارج القرية يبيتون
فيه فوق هضبة مرتفعة ينثرون حولها تراباً معبداً ، حتى
إذا أراد أحدهم أن يختلس من ظلام الليل رغبة ثم أثردعليه ،
كما نعلم أنهم يَخيطون فروج العذارى حيلة وحذرا
ليحفظوا أعراضهن لازواجهن سالمات بريئات ، ولماذا نسمى
الامة الاميريكية أمة متمدينة ، وهاهى ذى تفتح المواخير
باسم المدارس حتى لا تكون فى نفس أحد من الناس غضاضة
فى دخولها ، والاخذ بنصيبه من لذائذها وشهواتها

ان كان توحش الأولين لاغراقهم فى صون الاعراض
والحيطه لها ، فالآخرون أكثر منهم توحشاً لاغراقهم فى هتكها
وابتذالها ، والاغراق فى الخير ، خير من الاغراق فى الشر

فيايها الزنجى المسكين لقد ظلمك من سماك متوحشاً ،
 ويايها الاميركى المتوحش لقد كذّ بك من سماك متمديناً
 أيها الزنجى الاسود : ان كنت أسود اللون ، فالفضيلة
 أعلى قدرأً من أن تنزل لاعتبار السواد ذنباً تنفر منه ،
 وجريمة لا تغتفرها ، وإن كنت جاهلاً ، فهل استفاد صاحبك
 من علمه الا إمتاع نفسه بشهواتها ولذائذها ، والتفنن فى
 فجور الحياة وفسوقها ، تفنناً لأحسبك تحن اليه ، أو تنقطع
 نفسك حشرات عليه ، وإن كنت عارياً ، فربما لبست من
 الفضيلة ثوباً يحسدك عليه لو يعقل ذلك الذى يفخر عليك
 بخزه وديباجه ودمّقه وحريره

ولو بما عند قدريكما لبت وأعلا كما الاسفل (١)

(١) أى لو برل كل مكانا المعلقة التى يستحقها لآحد الاعلى مكان الاسفل والاسفل

أمس واليوم

مَثَانَا وَمَثَل آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ مِنْ قَبْلِ طُلُوعِ شَمْسِ هَذَا
 التَّمْدِينِ الْحَدِيثِ وَمِنْ بَعْدِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ ضَلَّ بِهِ طَرِيقَهُ فِي لَيْلَةٍ
 لِيَلَاءِ غُدَا فَيَتَلَا هَابَ ، حَالِكَةَ الْجَلَابَابِ ، قَدْ تَجَسَّدَ ظَلَامُهَا
 حَتَّى كَادَ يُلْمَسُ بِالرَّاحِ ، فَانْقَلَبَ جَوْهَرًا بَعْدَ إِذْ هُوَ عَرِضٌ ،
 فَاصْبَحَ كَأَنَّمَا هُوَ خَمٌّ سَائِلٌ ، أَوْ مَدَادٌ جَامِدٌ ، فَانْشَأَ هَذَا
 الضَّالُّ الْمُسْكِينُ يَخْبِطُ فِي ذَاكَ الدِّيَجُورِ ، تَرْفَعُهُ النُّجَادُ ،
 وَتُخَفِّضُهُ الْوَهَادُ ، لَا يَرَى عِلْمًا فِيهِ تَدَى بِهِ ، وَلَا يَتَنَوَّرُ نَجْمًا
 فَيَعْتَمِدُ فِي سِرَاهِ عَلَيْهِ

وَإِنَّهُ لَكَذَلِكَ وَقَدْ اسْتَوَتْ فِي نَظَرِهِ الْجِهَاتُ السَّتْ ،
 فَسَمَاؤُهُ أَرْضٌ ، وَأَرْضُهُ سَمَاءٌ ، وَوَرَاءَهُ أُمَامٌ ، وَأُمَامُهُ وَرَاءٌ ،
 وَإِذَا بَقَرْنَ الشَّمْسُ قَدْ نَجْمٌ فِي جِبْهَةِ الْإَفْقِ ، وَأَفْرَغَ فِي نَازِلِهِ
 الْمَمْلُوءَ بِالظَّامَةِ قَطْرَاتٍ مَلْتَهَبَةً مِنْ ذَائِبِ أَشْعَتِهِ الْمُتَلَأُّثَةِ ،

فَعَشِيَ بَعْدَ أَنْ كَانَ بِسِيرًا ، فَمَا أَغْنَى عَنْهُ ذَلِكَ الضِيَاءُ شَيْئًا ،
وَمَا زَالَ فِي ضَلَالِهِ الْقَدِيمِ ، إِلَّا أَنْ ذَاكَ ضَلَالُ الظَّلَامِ ، وَهَذَا
ضَلَالُ الضِيَاءِ ، وَهُوَ شَرُّ الضَّلَالَيْنِ ، وَأَقْتُلِ الدَّاعِينَ ، فَإِنْ
ضَلَالُ الظَّلَامِ يَتَخَلَّلُهُ بَرِيقُ الْأَمَلِ فِي الضِيَاءِ ، فَأَمَّا وَقَدْ
أَصْبَحَ الدَّوَاءُ دَاءً ، فَلَا أَمَلٌ فِي الشِّفَاءِ

لَوْ بَغِيرَ الْمَاءِ حَلَقَى شَرْقٍ كُنْتَ كَالْفَصَّانِ بِالْمَاءِ اعْتَصَارَى
ذَاكَ مِثْلًا وَمِثْلَ آبَائِنَا مِنْ قَبْلِنَا بَيْنَ يَدَيِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ
الْجَدِيدَةِ الَّتِي هِيَ سِيلُهَا عَلَى هَذَا الْعَالَمِ الْإِنْسَانِي فَرَأَى الْغَرْبَ
تَرْبَةً طَيِّبَةً صَالِحَةً فَسَقَاَهَا فَاهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ ، وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ
زَوْجٍ بِهَيْجٍ ، وَرَأَى الشَّرْقَ تَرْبَةً صَامِتَةً مَتَحَجَّرَةً قَدْ نَجَّمَ فِيهَا
كَثِيرٌ مِنَ الْأَعْشَابِ الضَّعِيفَةِ ، وَالْجُذُورِ الْفَاسِدَةِ ، فَأَمَّا
مَا تَحْجَرُ مِنْهَا فَلَمْ تَعْنِ عَنْهُ السُّقْيَا شَيْئًا ، وَأَمَّا مَا اخْضَرَّ وَتَرَعَرَ
فَقَدْ نَمَّا فَاسِدًا كَأَصْلِهِ ، وَكَانَ خَيْرَ آلِهِ لَوْ ذَهَبَ ذَلِكَ الْفَيْضَانُ
بِهِ وَبِجُذُورِهِ

أَيُّ إِنْ الْمَدِينَةُ الْحَدِيثَةُ تَمَشَّتْ فِي صَدْرِ الْغَرْبِ بِقَدَمِ

متثاقلة فما خفق لها قلبه ولا اضطرب ، ثم وضعت يدها في أيدي الغريبين فصعدت بهم الى سماءها خطوة خطوة كما يعود الطفل الصغير على المشي ، وما أعجبتهم عن أمرهم كما أعجبتنا ، فباغوا ما أرادوا ، وهوينا الى أعماق مما كنا ، كالحجر الثقيل يُرى به في الجو ، فاذا ارتد ارتد الى حفرة يدفن نفسه فيها
 أى إن الغريبين أحسوا ، فهضوا ، فجدوا ، فأثروا ، فتمتعوا بثمرات أعمالهم ، ونحن أغفلنا جميع هذه المقدمات ، ووثبنا الى الغاية وثباً فسقطنا

فهما كان نصيب آبائنا من الجهل ، وانفراج المسافة بينهم وبين هذه المدنية الحاضرة ، فقد كانوا على علاقتهم أسعد منا حالا ، وأروح بالاً ، وأهنأ عيشاً ، وأسدّ خطوات في سبل الحياة ، وكانت المعيشة فيهم اجتماعية ، أكثر منها فردية ، فكانت الأسرة الواحدة أشبه شيء بالملكة الدستورية المنظمة يديرها عقل واحد في جسوم كثيرة متفقة في الرأى والدين والمذهب والاخلاق والعادات ، تجتمع حول المائدة كما تجتمع في نادى

المسامرة ، وتتلاقى في قاعة الصلاة ، كما تتلاقى في ساحة المتنزه ،
يحبون الله ، ولا يختلفون الا في الطريق الى رضاه ، ويحبون
الوطن ، ولا يختلفون الا في الطريق الى خدمته ، ويحترمون
عاداتهم وأخلاقهم ولغتهم المكشوفة نهيتهم الاجتماعية ، ويفرون
من العادات والمشارب الغريبة عنهم فرارهم من الاسد ، مخافة
أن يرق هذا الحاجز القائم بينهم وبين الأمم الأخرى
فتنحل جامعتهم ، فهتدا حميتهم ، فتجمد نفوسهم ، فاذا هم
ميتون ثم لا يبعثون

وكان بين الصغار في الأسرة والكبار فيها معاهد درجة
واحترام ، يحترم الصغير الكبير في كبر عمله و ارادته و مذهبه ،
فاذا أنزل نفسه منه هذه المنزلة أصبح بحكم الطبيعة مرآة له
تنطبع فيها تلك الاعمال والارادات والمشارب ، حتى اذا
أصبح الصغير كبيراً وجد من صغيره ما وجد منه كبيره ، فلا
تزال سلسلة التوارث في الأسرة متصلة اتصالاً تعيابه الحوادث ،
وتكبو دونه عادات الليال

ويرحم الكبيرُ الصغيرُ فلا يألوه نصحاً في حاضره
ومستقبله ، ولا يفتأ يطلب عنده ما عند نفسه حتى يتم بينهما
التناسخ فاذا هو هو ، حتى إذا قضى الله فيه قضاءه لا تفقد
الأُسرة بنقده شيئاً

فمن لنا اليوم بتلك السعادة التي أثلكتنا إياها المدينةُ
الغربية يوم أظلتنا بعلومها ومعارفها ، ومخترعاتها الخالية ،
وزخارفها اللامعة الباطلة ، فانقلبت المعيشة البيتية الاجتماعية
فردية محضة ، فالأخوان متناكران ، والزوجان متنافران ،
والولد شقى بأبيه ، والابن شقى بولده ، وكأن ساحة المنزل
ساحة الحرب ، لا ترى فيها غير وجوه مقطّبة ، ونفوس
منقبضة ، وأشلاء فوق أشلاء ، ودماء إثر دماء ، وشقاء ليس
يَعْدله شقاء

ومن كان في شك من هذه الحقائق فاني أكله الى
جداول القضايا في المحاكم ، فان لم ير أن أكثر المخاصمات فيها

خصوصاً المدنية منها واقعة بين الاقارب وذوى الرحم فله حكمه ما شاء

وإن أبيت إلا أن تتمثل لك الحقيقة بأكمل وجوها
فاسمع قصة رجل مصري كان ذا ثروة متوسطة عاشت آباءه
أجيالاً متعددة ، فما كانت تضيق بهم ، وما كانوا يضيقون بها ،
وكان له ثلاثة أولاد و « امرأة جديدة » متعلمة تعرف كل
شئ إلا واجباتها وواجبات منزلها وزوجها وأولادها ،
وليتها جهلت كل شئ إلا هذا فنكون قد علمت كل شئ ،
وتحب مطالعة الروايات الغرامية الفاسدة حباً ملك عايتها
مشاعرها وخوالجها ، فربما عرض لها المهم من الامر فلا تخف
له قبل فراغها من الفصل الذى تطالعه ، وتحب التمثيل فنقضى
ليلاً فى مشاهدته ، ونهارها فى سرد وقائعه ومشاهده على
صواحبها وأترابها ، وربما كانت تهمس فى آذانهن أن ليتها ترى
(روميو) فتكوزله (جوليت) ^(١) ، وتبغض الحجاب بغض

الحرائر للسفور ، فيومها نصفان ، نصف للخروج ، ونصف
للهي له ، فهي خارج المنزل من مطامع الشمس الى مغربها ،
بنى بها زوجها بعد وفاة زوجه الأولى فلم يعتبط بها غير عام
واحد ، ثم ضرب الدهر ضرباته فاذا بينهما ديشة لاأظن ان
الجحيم أشد نكالا منها .

أما أولادُه فأدخالهم مدارس مختلفة تعلموا فيها لغات
مختلفة ، الانكليزية والفرنسية والالمانية ، ثم تخرجوا ، هذا
انكليزى بفضاظته وخشونته ، وهذا فرنسى بخلاعه
واستهتاره ، وذلك ألمانى بخيلائه وكبريائه ، وجميعهم متفرنجون
مشربا ومذهبا ومطعما وملبسا ومسكنا ، وما فيهم من تفرنج
همة وعملا

خرجوا من المدارس بلادين ولا وطن ، أما الدين
فلأن أكثر مدارسنا حتى الالهية منها مادية محضة لاتعلق
لدين بشأن من شؤونها ، والدين خلق شأنه كبقية الاخلاق ،
لا يرسخ فى النفس الا بتكرار الصور الدينية وتداولها عليه ،

فان بعد عهدها به أغفلته وأنكرته ، وكذلك كان شأن
هؤلاء الاولاد المساكين ، فتمست قلوبهم ، وجمدت نفوسهم ،
وفقدوا بنقد دينهم أطيّب عزاء يستروحه الانسان في هذه
الحياة المملوءة بالمصايب ، الحافلة بالكوارث والهموم
والانسان مهما طال حوله ، وكثر طوله ، واتسعت
مذاهب قوته ، فليس ببالغ من دهره المعاند ما يريد ، لولا
زهرة الأمل التي يتعهد بها الدين بالسُّقيا في قاب المؤمن ،
فيستروح منها ما يروح عن قلبه ، ويسرّي عن نفسه ، ولولا
يقينه أن هناك حولاً أكبر من حوله ، وطولاً أعظم من
طوله ، وإلها قادراً يقرب اليه ما يريد مما ضاف به ذرعه ،
وعَيّت عنه قوته

وأما الوطن فلأن المدارس عندنا تديرها من وراء
ستار أيدٍ أجنبية تربي التلاميذ لها لا لأوطانهم
فكنت ترى منزل الرجل كأنما هو مجمع من مجامع
السفراء ، تركي متمسك بتركيته ، وانكليزي يهتف ليله

ونهاره بأن الدولة الانكليزية سيدة البحار ، وان الشمس لا تغيب عن أملاكها ، وفرنسى بعبد فرنسا ويسبح بحمدها ، ويصفها بأنها أمة العدل والرحمة ، وان أسعد المستعمرات مستعمراتها ، وأما انى يستفخر خطب الامبراطور ، ويتكهن ان المستقبل لألمانيا يوم يمجى اسم انكلترا وفرنسا من مصورات الجغرافيا ، وكثيراً ما يقع بين المتفرنس والمتألن النزاع الطويل فى شأن الازاس واللورين ، وبين المتألن والمتكلنر الشقاق العظيم فى واقعة واترلو ، وأى القائدين كان له الفضل فيها ، بلوخر أو والنفتون ، ولا يتفقون الا فى الساعة التى يذكرون فيها أمتهم ، فانهم يمثلونها لأنفسهم والناس أقبح تمثيل ، ويلبسونها ورجالها قديما وحدينا أثواب المرافع المضحكة ، غير مستحيين من أنفسهم ولا من الناس ، ولا مباينين بالأدمع المنهلة من عين والدهم الجمالس ناحية يندبهم ، ويندب نفسه معهم ، فبئس الاختلاف حين يختلفون ، ولا حبذا الاتفاق يوم يتفقون

وهكذا انحلت الجامعة في هذا المنزل ، وتفرق أفراد تلك الأسرة أيما تفرق ، وانقسموا على أنفسهم كل الانقسام ، فلا يصطحبون في متنزه ، ولا يجتمعون لصلاة ، ولا يتصافون في سمر ، ولا يتفقون في شأن من شؤونهم البيتية ، حتى أصبح لكل منهم من المأكل والمشرب والملبس وجميع مرافق الحياة ما يطالبه به خلقه المباين لخلق أخيه أو أبيه

فأنى لهم التعاضد الذى كان لأبائهم من قبل فى خوض غمرات الحياة ، وأنى لوطنهم ان يسعد بهم بعد عجزهم عن إسعاد أنفسهم ، والمنزل قوام الأمة تسعد بسعادته ، وتشقى بشقائه

وأى شأن لهذه المعلومات الكثيرة التى حشوا بها أذهانهم ، وهل أفادوا ^(١) بها إلا هذراً فى المنطق ، وثرثرة فى اللسان ، وشغلا للأذهان ، لا يغنى عن سعادة الحياة وهنائها فتيلًا

ولو عقلوا لعلموا ان ذاك العلم القليل الذى كان يعلمه آباؤنا ونسبهم نحن جهلا وهمجية هو خير من علمنا الكثير المستفيض الذى نساجلهم به ، وننمى عليهم تاريخهم من أجله ، لأنهم كانوا بقليلهم هذا يعملون ما نعجز عنه نحن بكثيرنا

أجل أنهم كانوا يجهلون عدد أقسام الأرض، وان مصر فى شمال أفريقيا ، وسوربا فى جنوب آسيا ، ولكنهم كانوا يعلمون ان وطنهم حيثما حل من أقسام الأرض محبوب لديهم ، وان أبناء وطنهم إخوة لهم يسعدون معاً ، ويشقون معاً ، وان سعادتهم فى استقلالهم ، وشقاءهم فى امتداد اليد الأجنبية اليهم ، وكانوا يعتقدون كثيراً من الخرافات والأوهام ، وأن هناك أرواحاً خيرية وشرية تنفع وتضر ، وكانوا يتمسحون بالمعابد والمشاهد ، ويطأطئون رؤوسهم بين يدي رؤساء الأديان تحمناً وتعبداً ، وعندى أن ديناً خرافياً خير من لا دين ، لأن لهذه المعبودات الوهمية فى نفوس العابدين لها سلطاناً قاهراً يقاوم أهواء الشر فيها ، ويطهرها من كثير من

الرزائل التي تعيا بها القوانين الشرعية والوضعية ، كالخيانة والكذب. والحقد والحسد ، وسفك الدماء ، واغتيال الأموال ، وغير ذلك من الشرور الانسانية التي لا تنزجر النفس عنها ما لم يكن منها لها زاجر ، والتي فشت اليوم بين طبقات المتعاملين الذين أخذوا العلم مجرداً عن روح التربية وصبغة الاخلاق

ولقد كان آباؤنا على علاقتهم يعتمدون في أكثر عقودهم من بيع وشراء وهبة وقرض ورهن على صدق ألسنتهم ، ووفاء قلوبهم ، فكان الرجل يأمن أن يقرض صاحبه الآلاف المؤلفة من الذهب بلا كتابة صك ، ولا شهادة شاهد ، فأصبحنا نكتب الصكوك ، ونستشهد الشهود ، على الدائق والسجوت ، والويل ثم الويل لصاحب الحق اذا ضاع صكه ، أو أنكر شهوده ، وكثيراً ما يفعلون

وجملة الحال انهم كانوا يجهلون أكثر ما نعلم ، ولكن لم يجن عايتهم جهاهم أكثر مما جنى علينا علمنا ، وكانوا محرومين أكثر ما ننعم به اليوم من مساكن فاخرة ، ومراكب

فارهة ، وملابس زاهية ، وفرش وثيرة ، وآنية صقيلة ،
وأدوات للمأكل والمشرب ثمينة ، ولكنهم لم يكونوا
محرومين فيما بينهم وبين أنفسهم شيئاً من هذا كله ،
لأنهم ألفوا معيشتهم البسيطة ، كما ألفنا نحن هذه المعيشة
المركبة ، فنحن وهم سواء في الرضا بحالنا ، إلا أن معيشتنا
يكدرها الفقر والافلاس الآجل أو العاجل ، ومعيشتهم
لم يكن يكدرها من ذلك شيء ، وهما دفاتر المصارف
ويوت الأموال مكتظة بديون الفلاحين التي كانوا
في غنى عنها لولا المدينة الحاضرة التي قابت الكماليات في
نظرهم إلى حاجيات ، فبنوا القصور ، وشادوا الدور ،
وماشادوا لو يعلمون إلا تبوراً دفنوا فيها راحتهم وهناءهم
ومستقباهم ومستقبل ذريتهم من بعدهم ، فان هؤلاء الأولاد
المساكين بعد أن خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن
أرادوا أن لا يبقوا في قوس الحرية منزغاً ، فأطلقوا لأنفسهم
العنان في سبيل الشهوات واللذائذ ، فكانوا يسهرون الليل

بين رنين الكؤوس ، وضرب الدفوف ، ثم ينامون النهار بين
التمطى والثُّوباء ، حتى نبت بهم وظائفهم التي هي كل ما حصلوا
عليه من علومهم ومعارفهم ، فأبعدتهم عنها ، فأصبحوا كلاً على
أبيهم وعلى الناس ، لم ينفعهم علمهم ، ولم تغن عنهم شهاداتهم ،
بعد أن نفخت الكبرياء في صدورهم ، فأبوا أن يتنزلوا
للاحتراف بما يقوم حيائهم كما يفعل أولئك الذين أنضوا
ركائب شبابهم في طريق تقليدهم ، وباعوا في سوق التشبه بهم كل
ما تملك أيمانهم وقلوبهم ، وبعد أن ملكت الشهوات قيادهم
فما وجدوا في أنفسهم متسعاً لسواها ، أغروا بثروة أبيهم
يأخذون منها بالحق تارة ، وبالباطل تارات ، وكانوا قد قلصوا
ظلالها أولاً بنفقات دراستهم ، ونايماً باتباع ما حسن لفظه
وقبح معناه من السلع الأوربية التي تفي خزائن روكفلر
وروتشلد قبل الوصول الى إشباع بطون تجارها ، فنضب
معينها ولم يبق منها حتى الذمء^(١) ، فتبدل ذلك النعيم شقاء ،

وتلك السعادة والرفاهية فقراً وُعُدماً ، أما الوالد فتضى شهيد
العلوم والمعارف ، والمخترعات والمستجدات ، وأما الأولاد
فاغتالت أحدهم يد الزهرى وكانت لأمثاله من المغتالين ،
واحتوى الآخرَ فراش السل حيث لازائر ولا طيب ،
واقترش الثالثُ ترابَ السجن على أثر جناية دفعه اليها العوز
والحاجة ، وفرت « المرأة الجديدة » الى معرض الاعراض
حيث يبتاعها الشقاء بثمان بخس وهو فيها من الزاهدين
كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا

أنيس ولم يسمر بمكة سامر

هذه قصة منزل من منازلنا ، وكل المنازل بيننا ذلك المنزل
الا ما رحم الله ، فلو أن باكيًا بكى على ما آلت عليه حالة هذه
الأسره الشقية فهو إنما يبكى أسراً متعددة ، وأمة كاملة
لقد لامنى عند القبور على البكا

رفيق لتذarf الدموع السواقك

فقات له ان الأسي يبعث الأسي

دعوني فهذا كله قبر مالك (١)

وجملة القول ان للحاضر سيئات فوق سيئات الماضي ،
فلاخير في العصرين ، ولكنّ ويلاً أخف من ويلين ، والامم
لا تسعد بمعرفة الخير والشر ، فالخير والشر معروفان حتى
لأمة النمل ، وإنما سعادتها في معرفة خير الخيرين ، وشر الشرين ،
وإنّ دام هذا الحال ، واطرد المقياس ، فالنمد شر من اليوم ،
كما كان اليوم شراً من الأمس



المرقص

حدث أحد الأصدقاء قال : ذهبت ذات ليلة الى مرقص
من مراقص الازبكية ولم أكن زرت ولا زرت غيره
من قبل فرأيت على بابه جنديا يتمشى فى عرصته مشية
هادئة مطمئنة ، فذعرت لمراه ، وتراجعت قليلا قليلا ،
وكدت أعتقد أننى أخطأت الطريق إلى المرقص ، وأننى
بين يدي دار من دور الحكومة يحرسها حاجبها ، لولا أننى
لم أر فى وجوه الداخلين ذلك الخوف والاضطراب ، والذل
والانكسار ، الذى اعتدت أن أراه فى وجوه الساكنين
والمتظاهرين

وقفت ساعة أتردد بين الاقدام والاحجام حتى لمس
كتفى لأمس^١ فالتفت ورأى فاذا صديق من أصدقائى يسألنى
ما وقوفك ههنا ؟ فقلت له ماقاله أبو العيناء لصاحبه حينما

سأله عن سبب بكوره « أراك تشاركنى فى الفعل وتُفردنى بالعجب » ، قال أنا أفتش عن ابن عمى ، قلت وأنا أفتش عنك ، فابتسم وقال هيا بنا ندخل قبل أن تمتد سلسلة التفتيش الى حيث مالا نهاية له ، وأمسك بيدي حتى جازبى باب المرقص ، فسألته ما هذا الجندى الواقف أمام الباب ، قال كيف ذهب عليك أن حكومتنا قد أصبحت اليوم حكومة مدنية لأدبية ، فتساوت فى نظرها « المصالح والمراتص ، واختلط عليها الامر بين مواقف القضاء ، ومعاهد البغاء ، فأصبح الجندى يحمى أبواب العاهرات ، كما يحمى أبواب الوزارات ، ويقف أمام البارات ، موقفه أمام الادارات

وإن العين لا تكاد تملك مدامعها سحماً وتذرافاً كلما أبصرت هذا الجندى الشريف ، واقفاً هذا الموقف الذليل ، يسمع قراع الدفوف ، لاقراع السيوف ، ويرى حمرة الصهباء ، لاحمرة الدماء ، ويحمى الفسق والفجور ، لا القلاع

والثغور ، وما أعجب لشيء عجبى لهذه الحكومة التى تضن
 بجنديها أن يشتمه شاتم ، أو يلمسه لامس ، فتغضب له غضبة
 مضرية تتراعى فيها الشهامة والحمية ، والعزّة والفخوة ، ثم لا تضن
 به أن تؤجّر دنايئة فى الجنائز ، أو قواداً فى المراقص ، وهو هو
 بعينه الذى يمثلها فى وقفاته ، وينوب عنها فى غدواته وروحاته
 هذا ما كان يحدثنى به ذاك الصديق وهو سائر بى
 إلى قاعة المرقص حتى وصات إليها ، فماذا رأيت ؟

إن كنت لم تسمع فى حياتك أن فداناً واحداً من الأرض
 يبتلع فى جوفه ستة ملايين من الأقدنة فاعلم أنه المرقص
 الذى يأكل وحده جميع ما تنبتة تربة مصر من الخيرات
 والبركات ، فكأنه العين التى تسع الفضاء بأرضه وسماؤه ،
 أو القلب الذى يحمل فى سويدائه علم ما كان وما يكون
 رأيت الدنانير ذائبة فى الكؤوس ، والعقول جامدة
 فى الرؤوس ، والحبائل منصوبة لاستلاب الجيوب ، والسهم
 مسدده لاصطياد القلوب ، ورأيت من كنت أحسبه

أوفر الناس عقلاً ، وأذكاهم قلباً ، ومن كنت أُرَاد فأغضى
 بين يديه إجلالاً وإكباراً ، واقعاً في حباله بنه^٢ تقيمه وتقعده ،
 وتطويه وتنشره ، وتعبث به بعبث الطفلة بلعبتها ، وهو في
 غير هذا المكان قيصر الرومان عزة ونخاراً ، وكسرى فارس
 أنفة واستكباراً

رأيت من يزعم أن الله قد وهبه عقلاً تخترق أشعته
 حجب الغيب ، وعلماً تتساوى أمامه المادة وما وراءها ، ومن
 لا يزال يتمثل صبحه ومساء ، بقول الشاعر

وعلمتُ حتى ما أسائل واحداً

عن حرف واحدة لكي ازدادها

يجهل قضية من القضايا الأولية التي تشترك في فهمها
 الأذكياء والأغبياء ، والعلماء والجهلاء

رأيتَه يجلس في المرقص فتمر به البغي^٣ فما هي إلا لحظة
 طرف ، أو غمزة كف ، حتى تحدثه نفسه أنه قد وقع من
 نفسها ، وملاً فراغ قلبها ، فيدعوها اليه فتجلس بجانبه ، فما هي

إلا ابتسامة خالبة ، أو كلمة كاذبة ، حتى يقسم بكل محرجة من
الأيّمان ، أن نفسه صادقة فيما حدثته ، وأن الفتاة قد علقت
به علوقاً لا نجاة لها من بعده إلى يوم يبعثون

هنالك يبذل لها ما يشاء من نفسه وشرفه وماله ،
ويرى أن ذلك قليل في جانب ما تبذل له من دقائق تقضيها
بين يديه ، وابتسامات تجود بها عليه

لقد كذبتك نفسك أيها الرجل ، فها هي المرأة بجانبك
فهل ترى فيها منظاراً رائعاً ، أو جمالاً ساطعاً ، يأسر أقيس
النساء قلباً ، وأعصاهن عناناً

ان الفتاة التي أسمعتك كلمة الحب قد أسمعته قبلك
وستسمعها بعدك كل صاحب جيب مثل جيبك ، وعقل
مثل عقلك

وإن كنت في شك مما أقول فأمسك عن فتح الزجاجات
لحظة قصيرة ثم انظر بعد ذلك أين مكانك من نفسها ،
وموقعك من قابها ، فإن لم تمطر عليك سحائب اللعنات ،

وتجعلك غرضا لسهام التهجمات ، فأنت أصدق الصادقين ،
وأنا أكذب الكاذبين

رأيت هنالك كل حاسة من الحواس قد لبست منظاراً
يكبر المنظورات ، ويضاعف المسموعات ، تغنى المغنية
بصوت مضطرب النغمات ، بارد الترجيعات ، ثقيل الحركات
والسكنات ، فتمتلئ أرجاء القاعة بالآهات ، وتدوى
فيها الصيحات المزعجات ، وتطل العجوز الدرديس على
الناس بوجه مغضن ، وجفن مقرح ، وسن بارز ، وخد
غائر ، فتطير حولها القلوب ، وتنحلب لها الافواه ، وتترامى
تحت أقدامها الوجوه ، فقلت فى نفسى أهذا هو المرقص
الذى تخرب فيه البيوت العامرة ، وتذبل فيه الرياض
الزاهرة

أهذا هو الذى تتدفق فيه الأموال الغزار ، تدفق
الانهار فى البحار ، وتقبّر فيه نفوس الكرام ، قبل أن تقبر
تحت الرجام ، والله لا يبلغ العدو منا بخيله ورجله ، وأساطيله

وقنابله ، ولا تبلغ السماء منا بصواعقها ورجومها ، ولا
الارض بزلازلها وبراكينها ، ما يبلغ منا المرقص بيناياه
قال المحدث : والحق أقول إني دخلت المرقص وأنا
أحسب أني أنفست عن نفسي كربة ، فرأيت ما زاد نفسي
هماً ، وملاً قاي غمضاً ، ففقت لصاحبي هل لك في القيام ،
فقام وقت وأنا أقول ، والله ما أدري ما ترك هذا المكان ،
للمارستان



الماضى والحاضر

عندى أن الفضيلة والذيلة كالجمال والقبح أمران اعتباريان، يختلفان باختلاف الأمكنة والأزمنة، فكما أن الجمال في أمة قد يكون قبحاً في أمة أخرى، كذلك الفضيلة في عصر، قد تكون رذيلة في عصر آخر

ليست الفضائل والرذائل أسماء توقيفية كاسماء الله تعالى لا يمكن تغييرها ولا تبديلها، وليست الفضيلة فضيلة إلا لأنها طريق السعادة في الحياة، ولا الرذيلة رذيلة إلا لأنها طريق الشقاء فيها، فحيث تكون السعادة في صفة فهي الفضيلة، وإن كانت صفة اللؤم، وحيث يكون الشقاء في صفة فهي الرذيلة، وإن كانت صفة الكرم

اعتاد علماء الأخلاق في كل زمان وفي كل مكان من

عهد آدم الى اليوم أن ينشروا لنا فى كل كتاب يؤلفونه أو رسالة يدونونها جدولين ثابتين لا ينتقلان ولا يتلحاحان ، يكتبون على رأس أحدهما عنوان « الفضائل » وتحت كلمات الشجاعة والكرم والأمانة والوفاء والعفة والمروءة والصدق والعدل والرحمة ، وعلى رأس ثانيهما عنوان « الرذائل » وتحت كلمات الجبن والبخل والخيانة والغدر والطمع والكذب والظلم والقسوة ، وأرى أنه قد آن لهم أن يعلموا أن الناس اليوم غيرهم بالأمس ، وأن أساليب الحياة الحاضرة ، غير أساليب الحياة الماضية ، وأن كثيراً من الصفات التى كانت فى عهد البداوة والسذاجة رذائل يجتويها الناس ، ويتبرمون بها ، ويستثقلون مكانها ، قد أصبحت فى هذا العصر عصر المدنية المادية المؤسسة على المنافع والمصالح حالة واقعة مقررة فى نظام المجتمع البشرى ، وأساساً ثابتة تبنى عليها جميع أعماله وشؤونه ، فلا بد للناس منها ، ولا غنى لهم عنها ، ولا مندوحة لهم إن أرادوا أن يخوضوا معترك الحياة مع

خائضيه من أن يتعلموها تعاماً نظامياً ، ويدرسوها مع
ما يدرسون من علوم الحياة التى يتوزف عايتها نظام عيشهم ،
ويتألف منها شأن سعادتهم وهنائهم



كان الكرم فضيلة يوم كان الناس يحفظون الجليل
لصاحبه ، ويعرفون له يدَه التى أسداها إليهم ، فاذا هوى
به كرمه فى هوة من هوى الفقر لا يعدم أن يجد من بين
الذين أحسن إليهم أو عَظُمَ فى نفوسهم شأنُ إحسانه من
يمد إليه يد المعونة ليستنقذه من شقائه ، أو يرفهه عليه ، أما
اليوم وقد أنكر الناس الجليل ، واستثقلوا حمله على عواتقهم ،
بل أصبحوا يشمتون بصاحبه يوم تزل به قدمه ، ويصبون
على رأسه جميع ما فى كتب المترادفات من أسماء الجنون
وألقابه ، فليس الكرم فضيلة ، وليس من رأى الدعاء له ،
والحض عليه

وكانت الرحمة فضيلة يوم كان الناس صادقين فى أحاديثهم

عن أنفسهم ، فلا يعترف بالبؤس إلا البائس ، ولا يابس
 القديم إلا من عجز عن لبس الجديد ، أما اليوم وقد ذلت
 النفوس ، وسفلت المروءات ، فابس ثوب الفقر غير الفقير ،
 وانتحل البؤس غير البائس ، وأصبح نصف الناس كسالى
 متبطلين لا عمل لهم إلا اللجوء إلى ظلال القلوب الرحيمة
 يعتصرونها ويحتابون درتها حتى تجف جفاف الحشف البالى ،
 فالرحمة هي الفقر العاجل ، والخسران المبين

وكانت الشجاعة فضيلة يوم كان الناس ينصرون الشجاع
 ويؤازرونه ، ويتبعون خطواته في طريقه التى يذهب فيها ،
 فلا يتخلون عنه ولا يخذلونه حتى يتم له الظفر الذى يريد ،
 أما اليوم وقد فترت هم الناس ، ووهت عزائمهم ، وماتت
 فى نفوسهم الحفائظ والغير ، ووكل كل أمره الى صاحبه ،
 فان رأوه قائما بدعوة وطنية أو اجتماعية أغروه بالمضى فيها ، ثم
 وقفوا على كثر ينظرون ماذا يفعل ، فان ظفر هتفوا له ،
 وانحدروا اليه يقاسمونه الغنية التى غنمها ، وإن فشل خلدوا ،

وتنكروا له ، فالشجاعة جنون لا يجد صاحبها من وراءها
إلا التهلكة والشقاء

وكانت القناعة فضيلة يوم كان الفضل هو الميزان الذى
يزن به الناس أقدار الناس وقيمهم ، ويوم كان الفقر مفخرة
للاشراف إذا عفت يده ، وعزفت نفسه ، والغنى معرة
للدنى إذا سفلت مساعيه وأغراضه ، أما اليوم فقد مات
كل مجد فى العالم إلا المجد المالى ، وأصبح الناس يتعارفون
بأزيائهم ومظاهرهم ، قبل أن يتعارفوا بصفاتهم وأعمالهم ،
فالقناعة ذل الحياة وعارها ، وبؤسها الدائم ، وشقاؤها
الطويل

وكان الغضب رذيلة يوم كان الناس يعرفون فضيلة
الحلم ويقدرونها قدرها ، ويطأطئون رءوسهم إجلالا
لصاحبها ، أما وقد أصبح الناس أشراراً يحملون شرورهم
على كواهلهم ، ويدورون بها فى كل مكان يطلبون لها رأساً
يصبون عليها ، ولا يعجبهم مثل الرأس الضعيف المتهاك

الذى لا يحسن الزيادة عن نفسه ، فلا خير فى الحلم ، ولا خير كل
الخير فى الغضب

الحياة معتزلة أبطاله الاشرار ، وأساحتهم الرذائل ،
فمن لم يحاربهم بمثل سلاحهم هلك عند الصدمة الأولى
يجب أن يكون الناس جميعاً إما فضلاء ليسعدوا
بفضيلتهم ، أو أدنياء ليتقى بعضهم بأس بعض ، أمّا أن يتعبد
سوادهم سلاح الرذيلة ، والنزرة القليل منهم سلاح الفضيلة ،
وهو أضعف السلاحين وأوهاهما ، فليس لذلك إلا معنى
واحد ، هو أن يهلك أشرف الناس وفضلاؤهم ، فى سبيل
حياء أدنيائهم وأنذالهم

إن الدعاء إلى البر والاحسان ، والرحمة والشفقة ، والعدل
والانصاف ، والصدق والاخلاص ، فى هذا البصر ، إنما هو
حيلة ينصبها الاقوياء الماكرون للضعفاء الساذجين ليخدعوه
بها عن مائدة الحياء التى يجلسون عليها ، فيستأثروا بها من
دونهم ، فلا يدعوا الداعى إلى الكرم إلا لينتقل ما فى جيوب

الناس إلى جيبه ، ولا إلى العفو إلا ليصيب بشره من يشاء
دون أن يناله من الشر شيء ، ولا إلى القناعة إلا ليقال من
سواد المزاحمين له على أغراض الحياة ومطامعها ، ولا إلى
الصدق إلا ل يتمتع وحده بثمرات الكذب ومزاياه

كلنا يكذب ، فلم يعيب بعضنا بعضاً بالكذب والتلفيق ،
وكلنا يبسم لعدوه وصديقه ابتسامه واحدة ، فلم نستذكر
الرياء والمصانعة ، وكلنا يطمع في أن تكون له وحده جميع
خيرات الأرض وثمراتها ، فلم نستفزع الطمع والجشع ، وكلنا
يتربص بصاحبه الغفلة ليختله عما في يده ، فلم نشكو من
الظلم والارهاق

إننا لا نفعل ذلك إلا لأننا نريد أن نستخدم الفضيلة في
أغراضنا وما ربنا كما كان يستخدم رجال الدين الذين
في العصر الماضي

يجب أن يتعلم الطفل من أول يوم يجلس فيه أمام
مكتب مدرسته أن الموجود في الحياة ، غير الموجود

فى الكتب ، وأن قصص الفضائل التى يقرؤها ونوادر
المروءات والكرام والايثار ، وأحاديث الشهامة والشجاعة
وعزة النفس وإباءها ، إنما هى روايات تاريخية قد مضت
وانقضى عهداها ، حتى لا يصبح ناقماً على العالم يوم ينكشف
له وجهه ، ويرى سوءاته وعوراتها ، وحتى لا يضيع عليه عمره
بين التجارب والاختبارات

وليت الذين يعرفون من شؤون الرذائل ودخائلها فوق
ما أعلم يضعون للناس كتاباً مدرسياً على نمط كتب التاريخ
يوضحون لهم فيه كيف يكذب الناجر ، ويغش الصانع ، ويلفق
المحامي ، ويدجل الطبيب ، ويختلس المرابي ، ويرأى الفقيه ،
ويصانع السياسى ، ويتقلب الصحافى ، ثم يقولون له هذه
هى الحياة ، وهذا هو ما يجرى فيها ، فان أردتها على علاقتها
فذاك ، أولاً ، فدونك مغارد موحشة فى قمة من قمم الجبال
فعمش فيها وحدك بعيداً عن العالم وما فيه ، وكل مما تأكل
حشرات الارض ، واشرب مما تشرب منه ، حتى يوافيك أجنالك
(٣٥ ك — الطرقات)

الشر لا يقاوم الا بالشر ، والظلم لا يدفع الا بالظلم ، وحامل
السيف لا يغمده فى غمده الا أمام حامل سيف مثله ، والسيل
الجارف لا يقف عن جريانه إلا إذا وجد فى وجهه سداً يعترض
طريقه ، والظالم لا يظلم إلا إذا وجد بين يديه ضعيفاً ، والمحتال
لا يحتال إلا اذا وجد أمامه غيباً ، والناس لا يتحامون ولا
يتحاجزون ولا يأمن بعضهم بأس بعض الا اذا برزوا
جميعاً فى ميدان واحد ، يتقلدون سلاحاً واحداً ، من نوع واحد
من أراد الفضيلة للفضيلة فسيبيلها المقدس الشريف
معروف لا ريبه فيه فليسلكه كما يشاء ، ومن أرادها على أن
تكون وسيلة من وسائل العيش ، فى عصر مثل هذا العصر ،
وناس مثل هذا الناس ، فليعلم أنه قد أخطأ الطريق ، وأضل
السبيل

ما أجمل الفضيلة وما أعذب مذاقها وما أجمل العيش
فى ظلالها لولا أن شرور الاشرار وويلاتهم قد حالت
بيننا وبينها ، فرحمة الله عليها ، ووا أسفاً على أيامها ونهوها ،

الشيخوخة المتمردة

حدث منذ عهد قريب أن أحد الوجهاء الريفيين كان يمتدح إلى أسرة كريمة ليخطب إليها فتاة من فتياتها لابنه ، ثم اتفق له أن وقع نظره على تلك الفتاة عرضاً فشغف بها حباً وخطبها لنفسه ، فلم ير أهلها مانعاً من أن يزوجه منها ، على تقدم سنه ، وإدبار أمره ، لأنه أكثر من ابنه مالا ، وأوسع جاهاً وسلطاناً ، فكانت نتيجة ذلك أن هجر الابن منزل أبيه هجرة لا رجعة له من بعدها ، لأنه كان يحب الفتاة حباً جماً ، وأصاب الفتاة ذهول شديد لا يزال ملازماً لها حتى اليوم ، وأصبح الشيخ حزيناً يائساً لأنه أصبح بلا زوجة ولا ولد

سمعت بهذه الحادثة فتألمت لها كثيراً ، ثم قرأت حادثة أخرى وقعت في فرنسا في العام الماضي سأقصها عليك

لتوازن بين الحادثتين كما وازنت ، وتستمتع منهما
ما استمتعت

فجعت سيدة اسمها « مارجريت بونفيل » بوفاة
زوجها وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها ، وكانت امرأة
بارعة الجمال ، رائعة الحسن ، لا يراها الرأى حتى يخيل اليه
أنها الكوكب المشبوب رونقاً وبهاء ، وانها لا تزال في مستهل
العقد الثالث من عمرها ، فاستوحشت لوفاة زوجها استيحاشاً
شديداً ، وبدأت تختلف إلى بعض الاندية العامة عليها تروح
عن نفسها وحشتها وكآبتها ، فاتصلت هناك بفتى من نبلاء
الفتيان أعجبها منه جمال صورته وعذوبة أخلاقه وحلاوة سمره
ورقة آدابه ، فأحبهته وافتنت به ، وأضمرت في نفسها أن تتدرع
بكل ما تعرف من الوسائل للزواج منه ، وان كان أصغر منها
سنا بنحو عشر سنين . فلم تزل تتودد اليه ، وتستدنى قلبه ،
حتى نزلت من نفسه المنزلة التي تريدها ، وكانت إذا جلست
إليه للحديث معه يَرِدُّ على لسانها كثيراً ذكرُ ابنتها التي

خلفتها من زوجها المتوفى ، فكان يخيل إليه أن تلك الابنة طفلة في الخامسة أو السادسة من عمرها ، حتى زارها في منزلها يوماً من الأيام فحمل معه لطفاتها هدية من اللاعب التي يحبها الاطفال ويطربون لها ، فلما وقع نظر مرجريت عليه وعلى ما يحمل ضحكت وقالت ما هذا الذي تحمل ؟ قال إنها هدية لمارى أريد أن أقدمها إليها ؟ وأين هي فأرادت العبث به وقالت له إنك تجدها في الجهة الشرقية من الحديقة على شاطئ الجدول ، فاذهب إليها وقدم لها هديتك بنفسك فذهب حيث أشارت ، فראה أنه لم يجد أمامه طفلة في السادسة من عمرها كما كان يظن ، بل فتاة كاعباً رائعة الجمال في السادسة عشرة ، فوقف أمامها موقف الحائر الذاهل لا يدري ماذا يفعل ، ولا ماذا يقول ، حتى رنت من ورائه ضحكة مرجريت ، وكانت قد تبعته من حيث لا يشعر فرفض جبينه عرقاً ، وتقدمت مرجريت نحو ابنتها وقالت لها أقدم لك يا مارى صديق جورج الذى حضر اليوم

ليهديك حصاناً خشبياً ، جميلاً ، فهل تحسنين ركوب الخيل
 الخشبية ؟ فابتسمت ماري وفهمت القصة ، فأثرت في نفسها
 خجل جورج وارتباكها ، فمشت إليه ووضعت يدها في يده
 وقالت له أشكر لك هديتك ياسيدي ، وأتقياها منك باغتيال
 وسرور ، وأعدك أنني سأحفظها لك عندي تذكيراً دائماً
 لأنساء ، فسرى عنه ما لحقه من الخجل ، وجلسوا جميعاً ،
 يتحدثون ويسمرون ، ومر لهم أطيب يوم مرّ لأحدٍ حتى
 أظلمهم الليل فاستأذن جورج وعاد إلى منزله

وأصبح بعد ذلك يختلف إلى منزل مرجريت لا من
 أجل الأم وحدها ، بل من أجل الأم والبنات . حتى حضر
 صباح أحد الأيام . وكانت الأم قد خرجت لبعض شأنها ،
 فوجد ماري وحدها ، فشعر في نفسه بشيء من الارتياح لم
 يكن يشعر بمثله من قبل ، وكأنه كان يتمنى أن يجدها خالية
 فوجدتها ، وكانت جالسة على شاطئ الجدول في المكان الذي
 رآها فيه أول ما رآها ، فجلسا معاً يتحدثان حديثاً طويلاً

ذهبا فيه مذاهب مختلفة ، حتى أشرف على ذلك المورد العذب من حديث الحب ، فَوَرَدَاهُ ، فاذا كل منهما يضر لصاحبه من الوجد فوق ما تضر الأفتدة والقلوب ، وإنهما لمضطجعا وجهاً لوجه على ذلك البساط الأخضر الجميل ضجعةً يتمنى المصور أن يراها في رسمها في رسم فيها صورة السعادة الكاملة التي يفتش عنها الناس جميعاً فلا يجدونها ، إذ وقفت بهما الأم من حيث لا يشعران ، فراهما منظرهما ، وخيل إليهما أنهما يتجددان في شأن غير الشأن الذي يأخذان فيه عادة أمامها ، فأصغت إليهما فألمت بطرف من حديثهما ، فدارت بها الأرض الفضاء دورة كادت تصعق فيها ، وتمثل لها أن صرح حياتها الشامخ العظيم قد خرّ بين يديها دفعة واحدة فنارت من حولها غبرة قائمة حجبت عن عينها كل شيء فاملست من مكانها املاسا ومشيت تتجامل على نفسها حتى وصلت إلى غرفتها فتهافتت على فراشها وبكت ما شاء الله أن تفعل حتى هداً بعض ما بها ، فمسحت عبرتها بيدها فاذا المرأة أمامها ، وإذا شعرات بيض سائحات

في رأسها تهتف بها أن قد انقضى عصر شبابك أو كاد ، وقد
خطوت الخطوات الأولى إلى شيخوختك ، فأخلي مكانك
لابنتك ، فهي أولى به منك ، وحسبك من السعادة أن
تفرحي لفرحها ، وتهنئي لهنائها ، واعلمي أن للطبيعة حكما
قاسيا لا يختلف عليه مختلف ، ولا يتمرده عليه متمرد ، إلهاك
ومرت بها على حالتها تلك ساعة كانت عواطف قلبها ونوازعه
تعترك فيها اعتراكا ، وكان يميل بها الميزان نحو نفسها مرة ،
فتشور نائرتها ، وتأبى إلا أن تتمتع بالحياة الطيبة كما يتمتع بها
أمثالها ، ونحو إبنتها أخرى ، فتلين عريكتها ، ويساس قيادها
وتقول في نفسها إنها أولى به مني ، لأنه خلق لها وخلقت له
حتى غلبت نزعة الخير فيها على نزعة الشر ، نخرجت من غرفتها
باسمة متطلقة حتى وصلت إلى مكانهما ، فرأتهما مستغرقين في
شأنهما الذي كانا فيه لا يشعرا بشيء مما حولهما ، فصاحت
بهما : أأنتما هنا يا ولدي ، فاضطربا إذ رأياها ، فابتسمت لهما
ووضعت يدها في أيديهما وعادت بهما إلى غرفتها ، وجلست

تحدث إليهما حديثاً طويلاً انتهى بعقد الخطبة بينهما ، وما
 هى إلا أشهر قلائل حتى زفت إليه ، ووُلدت لهما بعد عام واحد
 طفلة كان نصيبها ذلك الحصان الخسبيُّ الذى أهدها أبوها
 لأمها منذ عامين حين ظن أنها طفلة فى السادسة من عمرها
 وكانت قد بقيت بقية من مرارة الألم فى أعماق قلب
 مرجريت لم تزل تتضاءل شيئاً فشيئاً حتى رنّ فى أذنها يوماً
 من الأيام صوت حفيدتها تدعوها « جدتى » فكان هذا آخر
 عهداها بها

وكذلك استطاعت مرجريت أن تعيش بعد ذلك سعيدة
 هائلة فى ظل سعادة ابنتها وهنائها

ذلك ما فعل الرجل فى السبعين من عمره ، وهو يخطو
 الى القبر خطوات حثيثة ، وهذا ما فعلت المرأة وهى نصف
 لا إلى الشيخوخة ولا إلى الشباب ، فجوزى هو على تمرده
 على الطبيعة ، وخروجه عن سنتها شر الجزاء ، وجوزيت هى
 على تعلقها ورزانتها ، وتأديبها بأدب الحياة ، أحسن الجزاء
 (٢٦ لك — الطرقات)

عجائز بوشنج

القاعدة المطردة في هذا البلد أن الرجل إذا ابتسم له
دهرد من الأيام فننله من أرض الخصاصة والفقر ، إلى سماء
الثروة والغنى ، بنى بينه وبين ماضيه سداً محكماً لاتنال منه
المعاول ، ولا تعصف به العواصف ، ثم ألقى وراء ذلك السد
جميع متعلقات ذلك الماضي ، زيّه وهياتّه ، ولغته ، ولهجته ،
ومناخه ومسكنه ، وعاداته وأخلاقه ، وأصحابه ، وعشرائه ،
وجميع صلاته وعلاقته ، ولو استطاع أن يلقى بالأثرين الوحيدين
الباقين له ، صورته وإسمه لفعل

يريد أنه قد أصبح إنساناً غير ذاك الإنسان الأول ،
لا صلة له به ، ولا شأن له معه ، وأنه قد خلق خلقاً جديداً
إنها خلة رديئة جداً ما رأيت في الخلال أقبح منها
إنه يفعل ذاك لأنه يعتقد أن الفقر عيب وعار ، والفقر

ليس بعيب ولا عار ، فان كان لا بد له أن يرى ذلك فليعلم أنه قد قضى على أبويه وأهله وعشيرته وأصدقائه ، بل على السواد الأعظم من أمته ، بل على نفسه أيضاً ، لأنه قضى عصر شبابه ، والشباب هو الحياة من مبدئها إلى منتهاها . في الفقر والخصاصة ، والعُدم والاقلال

ولا أدري ما ذا يكون شأنه غداً إذا استرد الدهر هبته منه ، وكثيراً ما يسترد الدهر هباته وعطاياه ، بل لا يكاد يهب هبة ، أو يمنح منحة ، حتى يستردها

عذّرتَه في ثوبه الذي خلعه ، وقلت قد لبس لكل حالة لبوسها ، وفي داره التي هجرها ، وقات لا بد أن يكون هناك فرق بين حياة السعة وحياة الضيق ، وفي لهجته التي غيرها ، لأنه يعيش في قوم غير القوم الذين كان يعيش فيهم وفي خده الذي صعره ، وصدره الذي أبرزه ، وأنفه الذي شمخ به . لأن لثروة طغياناً كطغيان الشراب ، لاسبيل إلى دفعه والخلاص منه ، ولكنني لا أستطيع بحال من الأحوال أن

أعذره في زوجه التي طلقها واستبدل بها سواها
 إنها رفيقة حياته ، وعشيرة صباه ، وشريكته في سرائه
 وضرائه ، ويسره وعسره ، وشبعه وجوعه ، وريه وظمئه ،
 وأحسب أنها كانت إذا خلت بنفسها وخلاتها وجه السماء
 بسطت يديها بالدعاء إلى الله تعالى أن يبدل عسره يسراً ،
 وضيقه سعة ، وشدته رخاء ، فليس من الرأي ولا من الوفاء
 أن يخلعها فيما يخلع من أثوابه وأرديته ، وإن يلقيا وراء ذلك
 السد كما يلقى نعله وأداته

إنها شاركتة في شدته ، فيجب أن تشاركه في رخائه ،
 واحتماته والدهر مدبر عنه ، فيجب أن يحتملها والدهر مقبل
 عليه ، وأقرضته الصبر على عشرته ، فيجب أن يوفيهما الصبر
 على عشرتها ، إن كان يرى أنها عبء ثقیل عليه
 أريد أن يتمنى النساء جميعاً لا زواجهن دوام الفقر
 والفاقة حتى لا يستبدلوا بهن يوم يجدون السبيل إلى ذلك ؟
 إنهن يتهنين ذاك فعلاً ، بل يسمعن له سعيهن ، لأنهن

يجدن الأمان على أنفسهن في ضاحية الفقر ، أكثر مما يجدنه في ظلال الغنى ، فياللفظاعة والهول ! ويا للمعيشة النكدة المريرة ! ويا للشقاء الذى يهدد الحياة الزوجية وينذرهما بالمحو والفناء !

حدثني من أثق به انه دعى إلى وليمة أقامها أحد أوائك الحديثي النعمة فلما قضوا ليلتهم وانصرفوا لفت نظرهم منظر امرأة بأئسة واقفة تحت جدار البيت تتحدث الى بعض الناس وتقول لهم : إنها سيدة هذا البيت بالأمس ، وإن زوجها طلقها وطردها هي وطفلها الصغير في اليوم الذي أنعم الله فيه عليه بنعمة الغنى ، وليته صنع بها ما يصنع الكريم بأهله ، فكفها مؤونة العيش ، وحماها عادية الشقاء ، بل تركها في قريتها وحيدة ممتقطة ، لا يعود عليها بقليل من المال ولا بكثير ، ولا ذنب لها ولا لولدها عنده سوى انه أصبح ذا روجة جديدة ، وولد جديد ، وقالت إنها تحاول منذ ساعتين أن تدخل المنزل لتقابله وتسأله المعونة والمساعدة فيمنعها الخدم

انه لموقف مؤلم جداً أن تقف امرأة على باب البيت
الذى كانت سيدته بالأمس موقف السائل المنكف فلا تجد
من يمنحها ما يمنح السائلين المتكفين

لا يجد المرء لذة الطعام الا اذا ذكر الجوع ، ولا لذة
الماء الا اذا ذكر الظأ ، ولا لذة السعادة الا اذا تمثل أمام
عينيه عهد الشقاء ، فما أحوجه اذا انقل من عذاب الفقر
الى نعيم الغنى الى أصدقاء عهده الأول وعشرائه ، ليجاس
اليهم من حين الى حين ، ويتحدث معهم عن ماضيه وحاضرده ،
فيشعر بلذة الانتقال من حال الى حال ، وما أحوجه الى
زوجه التى قضى معها عهد شقائه ، أن تبقى معه فى عهد سعادته ،
ليرى فى مرآة وجهها صورتيه القديمة والحديثة فيعلم حين
يقارن بينهما أن فضل الله عليه كان عظيماً

وتعجبني كثيراً قصة خالد بن برمك جد البرامكة وكان
رجلاً أعجمياً من قرية من قرى فارس اسمها « بوشنج » وفد
الى بغداد وحظى عند الخليفة فولاه الوزارة فلما ركب

فى الموكب الذى اعتاد أن ىرك فىه الوزراء يوم العهد الىهم
بذلك المنصب العظمى ، وقف الناس له صفوفا على جانبى
الطريق ، وأطل علىه النساء من نوافذ الدور والقصور، وهو
مطرق واجم ، فقال له أحد أصدقائه وكان ىسير بجانبه ، ألا
ترى هؤلاء النساء الجميلات المشرفات عليك من نوافذ
قصورهن ؟ قال نعم أراهن ولكننى كنت أفضل أن أرى
بدلاً منهم عجائز « بوشنيج »

أى انه كان ىتمنى أن العيون التى رآته بالأمس وهو
وضىع ، تراه اليوم وهو رفىع



الاجواء

مازلت منذ حدثت تلك الحادثة الكبرى التي رجف لها قلب مصر، وسال لها دموع الفضيلة حزنا وأسى، وتحدث المتحدثون عن أولئك الفتيات الساقطات اللواتي يعشن في تلك السجون العميقة التي يسمونها بيوتا عيش البؤس والفاقة، أعجب لهن ولأمرهن، وأقول في نفسي ليت شعري لم يرضين لأنفسهن هذه الحياة الشقية النكدية التي لا يجدن فيها علاة من العيش يتعلان بها عما فقدن من شرفهن وكرامتهن، ولم يصطبرن على ظلم ذاك الرجل الجبار الذي يستبد بهن، ويستأثر بجميع شؤونهن ومصالحهن، ويسوقهن بين يديه سوق الراعي ماشيته، ولم لا يهربن من وجهه ويذهبن في مذاهب الأرض حيث شئن، يطلبن لأنفسهن الحياة في جو حر مطلق، واللاجواء الحرة المطلقة كثيرة، وأسباب العيش فيها متنوعة،

بما على وجه الأرض جو أسوأ من جو هن الذى يعشن
 به فيخفن أن يصرن اليه ، ولم أصدق ما يقوله بعض الناس
 أن تأويل ذلك من أن ذلك الرجل الجبار قد ضرب حولهن
 طاقاً من بأسه وقوته فلا سبيل لهن الى اختراقه فى البلاد
 حكومة نظامية لاتسمح بقيام حكومة أخرى بجانبها ،
 وأنه وضع فى أعناقهن أغلالاً من الديون وليس فى وسعهن
 أن يبرحن مكانهن حتى يؤدينها فان من لا يبالى بحق الله
 لاحق عرضه لا يبالى بحقوق الناس ، ولم أزل فى حيرتى هذه
 حتى قرأت بالأمس قصة وقفت منها على سر هذا الخلق
 الغريب فى النساء فأنا أروى لك خلاصتها لتقف منها على
 مثل ما وقفت



توفيت زوج أحد الدوقات العظام فى فرنسا فحزن عليها
 حزناً شديداً لأنها كانت أحب اليه من نفسه التى بين جنبيه ،
 فكان يروح عن نفسه بالاختلاف الى الأندية الخاصة

والعامة حتى ملها وسئمها ، فر بخاطره يوماً من الأيام أن يزور حي « مونمارتر » وهو القرارة التي تنصب فيها جميع قاذورات باريس الاجتماعية وفضلاتها ، فظل سائراً بمركبته يستطرق من زقاق الى زقاق ومن معبر الى معبر حتى وقف بباب حان في زقاق مظلم مهجور سمع من داخله ضوضاء عظيمة تكاد تتصدع لها أركانها ، فأنحدر اليه وأطل من بابه فوقع نظره على طوائف كثيرة من الصنائع والعمال والفوغاء والمتبطلين والمتشردين وأشباه اللصوص والمجرمين ، ما بين قائم وقاعد ، وصائح وهاتف ، وممسك قدحه بيده يجرع منه الجرعات الكبار ويصرخ صراخ المجانين ، ولا بط بالارض قد بلغ منه السكر مبلغه فكبه على وجهه ، وراقص يوقع حركات قدميه على نعمة شبابة ينفخ فيها آخر ، وقد عقدت الأبحرة المتصاعدة في سماء الحان سحباً متكاثفة يرى الرائي من خلالها بعد لأي مائدة خشبية مستديرة في وسط المكان ترقص عليها فتاة بأثارة عارية الثياب الا قليلا ،

وتنثر على الناس نثرات من الورق الرقيق الملون ، واناس من حولها طائرون بها فرحاً ، يداورونها ، ويعايشونها ، ويخاطبونها بأقبح ما خاطب به أحدٌ أحدًا ، وربما مد بعضهم اليها يده فجذبها من ثوبها جذباً شديداً حتى يكاد يزلقها من مكانها ، أو دفعها في صدرها بعصاه فآلمها ، وهي تبتسم مرة ، وتقطب أخرى ، فلم يدر الرجل أهو في مارستان من مارستانات المجانين ، أم في حظيرة من حظائر الوحوش الضارية ، ولكنه رأى على كل حال منظرًا غريباً لم ير مثله قط فأعجبه وسكن اليه ، وكذلك الملول يعجبه كل ما يطرد عن نفسه عادية الملل ، ولو كان منظر الجحيم ، فانتبذ في الحال مكاناً قصياً ، وجلس الى مائدة منمردة ، وألقى نظره على تلك الفتاة الراقصة فاذا هي رائعة الجمال ، إلا انه جمال مبعث مذال ، كما يعثر العائر بالاولوة الثمينة بين القمامات المجمعمة ، فلم يزل ناظرًا اليها لا يقلع حتى فرغت من رقصتها ، ونزلت تدور بعينها عليها تجد من يدعوها الى لقمة تسد جوعتها ، أو كأس تبل

بها غُلَّتْها ، حتى مرت على مقربة من الدوق فدعاها للجلوس معه ، فاستطيرت فرحا وسرورا ، لأنها لم تر قبل اليوم زائراً مثله في نخامة هيئته ، وجلال منظره ، وأخذ يتحدث إليها ويسألها عن نفسها ، فعلم أنها تكابد أشد ما كابد امرؤ قط في حياته من بؤس وشقاء ، وقد سمع في صوتها نغمةً تختلف بعض الاختلاف عن تلك النغمة الفاجرة الوقحة التي يسمعها السامعون من أفواه النساء الفاجرات ، فوقع في نفسه أنه إن أنقذ تلك الفتاة المسكينة المتألمة من بؤسها وشقائها فقد أحسن إليها وإلى الإنسانية إحساناً عظيماً ، فسألها أَلها بأحد من الناس صلةً من زواج أو مخالّةٍ ، فأطرت برأسها وأجابت أن لا ، فعرض عليها رأيَه الذي رآه لها ، فاستطارت به فرحاً وسروراً ، وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى كانت بجانبه في مركبته فسار بها إلى منزله

وهناك تغير من شأنها كل شيء ، فأصبحت تلك الفتاة البائسة المسكينة الضاوية الصفراء ذات الاسمال البالية ،

والقبة القذرة ، والحذاء المرقع ، سيدة نخمة يتلأأ وجهها
بنور العزة والكرامة ، وتسيل على أعطافها مخائل النعمة
والرفاهة ، حتى ظن كثير من الناس أنها من ذوات الشأن
فى الحياة ، وان الدوق يوشك أن يتزوج منها

وكان الدوق يعيش وحده فى قصره لا يعاشره الا خدمه ،
ولا يختلف إليه إلا القليل من أصدقائه القدماء من حين الى
حين ، لأنه كان منقطعاً لزوج له ولا ولد ، ولا قريب ولا
نسب ، فكانت « مارسيل » ملهاته التى يتلهى بها فى وحدته ،
وأنسه الذى يأنس به فى وحشته ، وكانت هى سيدة المنزل
والآمرة الناهية فيه لا ينازعها فى ذلك منازع . وظل الأمر
بينهما على ذلك شهوراً عدة

وكانا يخرجان أصيل كل يوم فى مركبتهما الى ضاحية
المدينة يرتاضان فى غاباتها وبساتينها ساعة أو ساعتين ثم
يعودان ، فانهما لعائدان ليلة من الليالى من متنزههما اذمرت
بهما المركبة على مقربة من حى « مونمارتر » فاقتربت عليه

«مارسيل» أن يمر بذلك الحى ليلها بمنظر الغريبة، ومشاهده العجيبة ، فأذن لرغبتها ، وظلا سائرين يخترقان شوارعه وأزقته حتى بلغا الحان الذى وجدها فيه ، فطلبت اليه أن يأذن لها بدخوله لترى ما حل بأصحابه وزائريه من بعدها ، فلم ير فى ذلك بأسا ، ودخل معها ، فوجداه على هيئته التى تركا عليها ، واتجها الى بعض الموائد المنفردة فجلسا اليها ، فواقع نظر الناس على مارسيل حتى هاجروا هياجا عظيما ، وهتفوا لها هتافا شديداً ، وأقبلوا عليها يحيونها ويعتقونها ، وهى تبسم لهم ، وتعطف عليهم ، وتطرب لنغمات أحاديثهم الوحشية المزعجة ، ثم لم يلبثوا أن جذبوها من مكانها ، وأصعدوها الى المائدة لترقص لهم ، فكأنما ثارت فى نفسها نائرة الطرب القديم ، فرقصت واقتننت فى رقصها ما ساءت ، حتى أتمت دورها ، ثم نزلت وودعهم وداعا لطيفاً وانصرفت هى والدوق وهنا بدأت تشعر بمال شديد من حياتها الحاضرة التى تحياها فى قصر الدوق ، حتى أصبح يخيل اليها ان هذا القصر

الذى تعيش فيه انما هو سجن ، وأن هذا الرجل الذى يحبها ويكرمها وينزل على حكمها فى جميع ما تحب وتشتهى انما هو سجانها ، وأن هذا السكون الذى يحيط بها انما هو سكون الموت الذى يخيم فى فضاء القبور ، فكانت اذا خلت بنفسها تراهى لها فى فضاء خيالها منظر الحزن ومنظر زائريه وموقفها فوق المائدة الخشبية بين جماعة الاشرار والغوغاء وهم يجاذبونها ثوبها ، ويشدون يدها ، ويصبون عليها فضلات كؤوسهم ، فتضطرب لنك الحياة الهائجة الثائرة ، وتحن اليها حنين العاشق المفارق ، ولم تزل هذه الفكرة تنمو فى نفسها شيئاً فشيئاً حتى أخذت مكانها من قلبها ، فعزمت على الفرار بنفسها والعودة الى عيشتها الأولى ، فنهضت من فراشها ذات ليلة والقصر ساكن هادئ قد هجم كل من فيه ، نخلت أثوابها وحلاها وألقته على بعض المقاعد ، وارتدت بدلامنها أثوابها الاولى التى جاءت بها ، وكانت لاتزال ملقاة فى بعض الغرف ، وتسالت من باب القصر من حيث لا يشعر أحد

بمكانها ، وأخذت سيّلتها الى حي مونمارتر
وهكذا قضى عليها أن تشقى ، بل هى التى قضت
بنفسها على نفسها

ولقد كان أسف الرجل عظيماً جداً حينما تفقدها فى
صباح اليوم الثانى فلم يجدها ، خصوصاً عند ماراى ثيابها
وحلاها ملقاة على بعض المقاعد وعلم أنها هى التى آثرت
الفرار واختارته لنفسها ، فبكاه كثيراً ، وعادت له وحشته
التى كان يعالجها من قبل

ومر على ذاك عام وبعض عام ، وبينما هو مقبل على قصره
فى ليلة من الليالى إذ لمح على عتبة الباب امرأة مسكينة تن
وتتوجع ، وتحاول أن تمد يدها إلى حلقة الباب لتطرقه فلا
تستطيع ، فدنا منها ليتبينها فاذا هى مارسيل ، وهى شبح متهافت
باق منها ، فلما أحست به مدت ذراعها اليه وقالت له بصوت
خافت ضعيف : اغفر لى ذنبى يا مولاي ، فدهش لمنظرها
دهشة شديدة ، ورق لحالتها ، فأمر الخدم بحملها الى القصر ،

فحملوها الى غرفتها التى كانت تنام فيها ، وهى فى حالة من
البؤس والشقاء تذيب الالكباد ، وتستدرف الدموع ، ثم جلس
اليها يسألها عن شأنها ، فقالت انها مريضة مدنفه منذ شهور
عدة ، وانها قد عجزت عن أن تجد سييلا الى علاجها من داءها
لفقرها وفاقتها ، فما زال المرض يأخذ منها مأخذه حتى مزق
صدرها تمزيقاً ، فلم تجد بداً من أن تأتى اليه لتستغفره من ذنبها
وتسأله أن يعينها على أمرها ، لأنها لاتعرف فى الدنيا لها
راحما سواه ، فسألها لم فرت من قصره ، وما الذى كانت
تنقمه منه فقالت لأعلم ، وانما هو قدر قدره الله ، ولا حيلة
لامرئ فيما قدره وقضاه ، فسألها أين كانت تعيش بعد
فراها ؟ قالت فى المكان الذى أنقذتنى منه ، فأيت لشقوتي
وبلائى الا أن أعود اليه لتنفيذ فى ارادة الله ، فرئى لحالها .
وأمر باستدعاء الطبيب لينظر فى أمرها ، فلم يستطع الطبيب
أن يصنع شيئاً ، لأنه جاء بعد الاوان ، وما أصبح الصبح حتى

صعدت روحها الى خالقها ، وخلفت للدوق حسرة فوق حسرته
 الاولى بوفاة زوجته ، فلم ينتفع بحياته طويلا بعد ذلك
 لكل جو من الاجواء رائحة خاصة به يألفها أصحابه
 ويستنيمون اليها ، فحولوا أيها الرجال بين نسائكم وبين
 تلك الأجواء الخبيثة ، ولا تقولوا إنهن سيجزن منها
 ويهجرنها حين يستنشقن رائحتها ، فالرائحة الخبيثة لا يتألم
 منها الا البعيد عنها



الرسائل

كتاب فى النقاضى

أنا إن سألتك حاجتى أعزك الله ، وبسطت إليك يد
 رجائى ، فتمدطرتُ باب المكارم ، واستمطرتُ غيث المراحم ،
 ورجوت واحد الدهر همة وحزماً ، ونادرة الوجود كرمًا
 وفضلاً ، فان أنجزتها فليست أولى المهم ، ولا واحدة النعم ،
 فلكم سبقتُ الى منك أيادٍ تخرس دونها السنة الشكر ،
 وتضيق بها جرائد الحصر ، ولقد مثلتُ أيدك الله بين أن
 أستشفع اليك بذوى الجاه عندك ، والزلفى لديك ، وبين
 أن أكل ذلك الى كرمك وفضلك ، وما طبعت عليه نفسك
 الشريفة من خلال الخير ، وسجايا البر ، فرأيت أن الثانية
 بك أحرى ، وبفضلك أجدر ، والسلام

كتاب مقاطعة

أتانى كتابك وقد أبليتُ من مرض حبك ، وصحوت

من رقدةٍ طال على الغيب فيها حتى خفت أن تتصل برقدة الموت ، فلم ترُ عني روائعك ^(١) ، ولا أجدي عندي اعتذارك ، ولا أخذ حديثك من قلبي مأخذه من قبل ، ولم أر بين سطورك ذلك النور الذي كان يملأ عيني روعة ^(٢) ، وقلبي هيبة ، فالحمد لله الذي أدانى منك ، وأعتقني من رقلك ، وكشف لي من مكنونك ما كشف غشاء الهوى عن بصرى ، فجفت الدموع التي طالما أذلتها ^(٣) بين يديك ، وقرت العين التي كنت أساهر بها الكوكب شوقاً إليك ، ولم يبق في خاطري من ذكرك إلا كما بقي في قلوب الناس من الوفاء ، والحب شجرة يفرسها الامل في القاب ، ثم يغذوها بمائه وهوائه ، فلا تزال تشتمجر أغصانها ، وترف ^(٤) ظلالتها ، وترن أطيارها ، حتى يعصف بها عاصف من اليأس فتموت ، ولقد عاجلت هذا القلب الشموس ^(٥)

(١) أى لم تعجى محاسنك (٢) الروعة المسحة من الجمال (٣) ادلها اهتمامها

(٤) رف السات اهتر واضطرب (٥) شمس امتنع وانى

فى الرجوع الى سالف عهدك ، وسابق ودك ، فجمح
 جموح المهر الارن^(١) وركب رأسه إلى حيث لامطمع
 فى أوبته ، وله العتبى فيما فعل ، فقد ملكنى قياده برهة من
 الزمان فأسأتُ عشرته ، وخفرت ذمته ، وأرغمت معطسه ،
 وركبت به فى سبلك أخشن مركب ، وأنهلته من جفائك
 وكبريائك شر منهل ، فما هو الا أن أمكنته الغرة فانطلق
 انطلاق السجين من سجنه ، والطائر من قفصه ، فلا أوبة
 حتى يؤوب القارطان ، ويبلى الجديدان

إذا انصرفت نفسى عن الشئ لم تكد
 إليه بوجه آخر الدهر تقبل

كتاب تهكم

علمت أن ساسانياً^(٢) طرق بابك بالامس ، وما زال
 يكيد لك ويماحلك ، ويتغلغل فى مواضع الضعف من
 قلبك ، حتى خدعك عن نفسك ، واقتطف زهرة من

(١) المهر الارن النشيط (٢) النسبة الى ساسان وهو رجل كان معروفاً بالفقر
 والبصر والاحتيال على الصدقات

روضة مالك ، وراح يفتر عن ثغر باسم ، ورحت تقرع
سن نادم ، فما هذا الخلق الغريب الذى تخلقته ، وما هذا
المذهب الجديد الذى اعتنقته ، ومتى أقامك آدم وصيا على
أولاده من بعده ، تكسو عاريهم ، وتشبع جائعهم ، على
أن الفقراء فى الدنيا كثير قد ضاقت بهم خزائن الأرض
والسماء فكيف تسعهم خزائنك ، وهل بين الدرهم الذى
أعطيت ، والدرهم الذى أبقيت ، إلا حرف واحد ^(١) ، فليت
شعري من أين دُهِيت ، ومن أى باب نفذ هذا الشيطان
الى قلبك ، وإن أخوف ما أخاف عليك أن تكون أُتيت
من باب الخدعة الشيطانية التى يسمونها الرحمة ، فان كانت
هى فالخطب عظيم ، والبلاء جسيم ، فانك حينما ذهبت ،
وأنى حلت ، لاتقع عينك الا على يد شلاء ، ورجل بترء ،
وعين عمياء ، وصورة شوهاء ، وثوب مخرق ، وشلو ممزق ؛

(١) يشير الى ان الفرق بين مفرد الدرهم وجمعه حرف واحد وهو الالف اللينة
فى الجمع . ويريد بذلك تعظيم شأن الدرهم وانه لا يستهان به لان الدرهم وان كثرت
فهى ليست الا درهما على درهم

وطريح على التراب سقيم ، وجسم أعري من أديم ، فان لم
تفارق الرحمة قابلك ، فارق المال جيبك ، فطفت مع الطائفين ،
وتسولت مع المتسولين ، ثم لا تجد لك راحماً ولا معيناً ،
فارحم نفسك قبل أن ترحم سواك ، ولا تنس أن تردد في
صباحك ومساءلك ، وفي مستأنف خطواتك ، وفي أعقاب
صلواتك ، كلمة ابن الزيات « الرحمة خور في الطبيعة »

وعلمت أنك دعيت إلى وليمة فلان فنحلب لها فوك ،
ورقصت لها أشداقك ، فطرت اليها ، ثم وقعت على خبزها
وشوائها ، وفاكمتها وحلوائها ، مثلج الصدر ، ثابت القدم ،
ساكن القلب ، طيب النفس ، كأنك لا تعلم أنها لذة الساعة ،
ومرارة العمر ، وشبع اليوم ، وجوع الابد ، وأنتك إنما طعمت
ما في الحباله من الحب ، تأكله اليوم لئلا كلك غداً ، فمن لك
بالنجاه من مضيفك إذا جاءك يوماً يتقاضاك دينه ، وقد حفت به
كوكبة من خلانه وصحبه ، فطار لمرآه لبك ، وتمشى له قلبك
في صدرك ، وخيرك بين لحم شاتك ولحمك ، فالفقر إن منحت ،

والعار إن منعت ، وأعجب من ذاك أنك ما برحت الوليمة حتى
أخذ المغنى مجلسه ، فسمعت وطربت ، ومن طرب شرب ،
ومن شرب وهب ، ومن وهب خرب ، ولقد كان لك في
انزوائك واعتزالك ، واكتفائك بقرصك وزيتك ،
وخلوتك بصندوقك في كسريتك ، من حيث لا تزور ولا
تزار منادح عن هذه اللقمة التي أسهرت ليلك ، وأقضت
مضجك ، وأقعدتك على مثل روق الظبي خيفة وحادراً ،
فاياك والعود الى مثلها يطل غمك ، ويسود عيشك ، والسلام
كتاب يأس

كتابي الى سيدى ومولاى والنفس بين جنة من الأمل
تغن أشجارها ، وترن أطيافها ، وتشتجر أغصانها ، وتعتنق
غدرانها ، وهاجرة من اليأس تتلغى نارها ، ويعتلج أوارها ،
وتحول بين الجفون واغماضها ، والجنوب ومضاجعها ،
والقلب يهبط به الخوف فيتمشى بين الاضالع مشية الطائر
الحذر ، ثم يدركه الأمن فيقر فى مستقره ، قرار الماء فى نهاية

نجدده ، وحالى كحال هذه الدنيا تضطرب ما بين فرح وهم ،
وسرور وحزن ، وقبض وبسط ، ومد وجزر ، أذكر الله
ورحمته وإحسانه ، ورأفته وحنانه ، فيشرق لى من خلال
ذكره وجه الحياة الناضر ، وتغرها البارق ، وجالها الساطع ،
وبشرها الضاحك ، ثم أذكر الدهر وصروفه ، والعيش
وحتوفه ، والأيام وما أعدت فى طياتها لبنها من عثرات ،
فى الخطوات ، ونكبات ، فى الغدوات والروحات ، وما
أخذته من العهد على نفسها من الوقوف بين النفوس وآمالها ،
والقلوب وأمانها ، فألمس صدرى بيدى لأعلم أين مكان
قلبي من أضالعى ، ثم أنثنى على كبدي من خشية أن تصدعا ،
فليت الله يصنع لى فيمطر على قطرة واحدة من غيوث
رحمته وإحسانه أبل بها غلتى ، وأطفى بها لوعتى ، أوليت
القدر ينشب أظافره بين سحري^(١) ونحري نشوباً لا يستبقى
بعده عرفاً نابضاً ، ولا نفساً متردداً ، فيستخلصنى من

موقف أنا فيه كالمرضى المشرف ، لاهو حى فيرجى ، ولا
ميت فيبكي

يقولون ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل ، وأقول
ما عذب الله عباده بنازلة القضاء ، وصاعقة العذاب ، وطاغية
الطوفان ، والزلال الأَكبر ، والموت الأحمر ، والخوف
من الجوع ، والنقص فى الأموال والأَنفس والثمرات ، بمثل
ما عذبهم بالأمل الباطل ، وما ليلة نابغة ضرير نجمها ، حالك
ظلامها ، يبيت منها صاحبها على مثل روق الظبي خيفة
وحذاراً ، فوق أرض تعزف جنّاتها ^(١) : وتحوم عقباتها ،
وتزأر سباعها ، وتعوى ذئابها ، وتحت سماء تهاوى نجومها ،
وتتوالى رجومها ، وتتراكم غيومها ، بأسوأ فى نفسه أثراً
من رجاء كاذب يتردد بين جنبيه . تردد الغصة بين لحبيه ،
لاهى نازلة فيطعمها ، ولا صاعدة فيقذفها

قد أصبحت أحسد الوحوش الهائمة على وجوها

في بطون الأودية، وقن الجبال، أن أراها سارية في مسارحها،
 سارحة في مسارحها، تتناول رزقها رغداً من بوارق
 المصادفات، ومفاجآت المقادير، لا يعنينا الأسف على فائت
 من العيش، ولا يقلقها الطمع في آت من الرزق، قد قنعت
 من الماء بالكدر، ومن العيش بالجش^(١)، فتساوى لديها
 شحمها ولحمها، وشيخها وقيصومها، وسعداء ونحسها،
 ونعيمها وبؤسها، فما تحفل بنوازل القضاء، ولا رجوم السماء،
 ولا تبالي أسقطت على الموت أم سقط الموت عليها

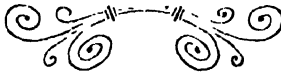
فمن لي بهذا العيش من عيش مثلي فيه كمثل رجل زلت
 به قدمه فسقط في جوف بئر بعيد غورها، ناء مكانها، فما
 زال يتخبط ويضطرب، ويهب ويثب، حتى عثر بمرقاة علقت
 رجله بها، ثم تلمس أخرى غيرها فما وجدها، حتى بلغ منه
 الجهد أو كاد، فلم يصبر على الثانية صبر على الأولى، فسقط،
 نخاف الغرق، فعاد إلى تلمسه، فعاد إلى سقوطه، فلا هو

بالغ رأس البئر فينجو من الموت ، ولا هو بالغ قرارة الماء ،
فينجو من الشقاء

إرم بطرفك حيث شئت من الناس هل تبصر إلا
صريعاً صرعه أمله ، أو قتيلاً قتله رجاؤه ، أو صديقاً يشكو
غدر صديق كان يعده لنوائب الدهر فأصبح عون النوائب
عليه ، أو باكياً يبكي وليداً كان يرجوه لمستقبل دهره
ففجعته الأيام فيه ، أو ساعياً دائباً وراء عاية يطالبها من
الدهر فلا يقرب منها حتى يبتعد عنها ، ولا يمسك بها حتى
تقلت من يده ، أو ساهراً متماملاً لولا أمله أن تنيله الأيام
ما يشتهي من هواد ما بات ليده شاكياً باكياً ، داعياً مناجياً ،
لا تراه إلا عين السماء ، ولا تسمعه إلا أذن الجوزاء

هذه حالتي ، وذلك همي ، وهذا ما وسوس لي أن أعزل
الناس جميعاً ، وأفارق عشيرتي وصحبتى ، ويراعى ومجبرتي ،
على أجد في البعد عن مشاراة الأمانى ، ومباعد الآمال ،
راحة اليأس ، فاليأس خير دواء ، لأمرض الرجاء

فهائذ أقابع في كسر بيتي لأمؤنس لى إلا وحشتى ،
ولا أنيس إلا وحدتى ، أتخيل البيت قبراً ، والثوب كفناً ،
والوحشة وحشة المقبورين فى مقابرهم ، لأعالج نفسى على
نسيان الحياة ، وأمانها الباطلة ، ومطاءعها الكاذبة ، حتى
يبلغ الكتاب أجابه ، وهذا آخر عهدى بك وبغيرك ، والسلام



الكلمات

الجرائد

لا أرى الصحف في مصر إلا نادياً من أندية القمار، ولا هؤلاء الكتاب إلا جماعة من اللاعبيين، قد وضعوا رؤوس المضرين على مائدة اللاعب كما توضع الأكر على طاولة « البليار »، ثم داروا حولها يلعبون بها ويتدافعونها، فيكسبها في الصباح « زيد » ويخسرها في المساء « عمرو »، وربما لا يأتي آخر الليل حتى يدور النجس دورته عليهم جميعاً، فيخسرها الكل ويكسبها صاحب النادي

عبد الحميد

حضرت منذ أشهر قلائل تمثيل رواية في مسرح عربي اختتمها جوق التمثيل بنشيد لاسلطان عبد الحميد يصفه فيه ناظمه بالعدل والرحمة، والرفق والاحسان، ويدعو له بسلامة

عرشه ، وطول بقائه ، فما سمع الناس باسمه حتى هتفوا له
هتافاً يصم المسامع ، وصفقوا له تصفيقاً كاد يضم أضلاع
المسرح بعضها الى بعض ، وحضرت ليلة أمس منظاراً من
مناظر الصور المتحركة فرأيتهم يمثلون ذلك السلطان بعينه
رجلاً ظالماً سفاحاً ، ضعيف الهمة ، ساقط النفس . زمرن المروءة ،
جباناً مستطاراً ، ورأيتهم قد عمدوا الى صورته فجعلوها
مواطىء أقدامهم ، وهضارب سيوفهم ، فما رأى الناس هذا
المنظر حتى راق في أعينهم ، وابتهجوا المرآة ابتهاجاً ملاً فضاء
صدورهم ، فتعشى في أعصاب أدمغتهم ، حتى وصل الى
أعصاب أيديهم ، فصفقوا له تصفيقاً شديداً بتلك الألف
التي رأيتهم يصفقون بها في مسرح التمثيل

أنا لا أعلم ان كان عبد الحميد ظالماً أو عادلاً ، كريماً
أو لئيماً ، شريفاً أو ضيعاً ، وإنما أعلم أنني سأموت قبل أن
أقف على حقيقة تاريخية في أمره ، مادام الناس عامتهم وخاصتهم ،
كتابهم وشعراؤهم ، علماءهم وجهلاؤهم ، هم الناس الذين
يقول فيهم القائل

والناس من ياق خيراً قائلون له
ما يشتهى ولأُمّ المخطيء الهبل

الشهرة

لا يمكن أن تكون الشهرة بحال من الأحوال ميزاناً
للفضل في مصر ، خصوصاً في عالم الأدب ، ولن يجرى الفضل
والذكر في ميدان واحد الا اذا سلم السباق من كيد العاثر ،
وخدعة الاريب ، وأتّى لنا ذلك وفي شعراء مصر من
يغتصب الشهرة اغتصاباً ، ويلصقها بنفسه إصاقاً ، وينزع اليها
بوسائل لو عرفها الناس لأنزلوه منزلته ، وألبسوه حلته ،
بينما ترى الآخر قد قنع من أدبه بلذة نفسه ، وإمتاع وجدانه ،
فلا يترنم بقصائده في المتدييات والجامع ، ولا يبتاع من
الصحف الاسماء والالقاب ، ولا يستخدم الكتاب لاطرائه
والاشادة بذكره ، ولا يتم ما يجده من النقص في أدبه
بالغض من أدب غيره ، فترى للاول في هذا البلد الساذج
دويّاً كدوى الرعد ، وترى الآخر مطرّحاً مجفوّاً لا يؤبه له ،

والدر في الصدف أغلا قيمة ، وأرفع قدراً ، من جميع ما على
وجه الارض من ألواح البلور ، وان كان ملء العيون حسناً
وبهاء ، ورونقاً وماء

فكاهة

حدثني بعض الأصدقاء انه دخل في أيام الحرب الروسية
اليابانية حانوت حلاق معروف بالثرثرة أكثر من أفراد
طائفته ليخلق له رأسه ، وكان عنده جماعة من زائريه ، فأجاسه
على كرسى أمام المرأة وأمسك بالموسى وأنشأ يخلق له رأسه
حلقاً غريباً لا عهد له بمثله من قبل ، فكان يخلق بقعة ويترك
الى جانبها أخرى مستطيلة أو مستديرة وأخرى مثلثة أو مربعة
حتى ريع الرجلُ وظن أن الحلاق قد أصابه مس من الجنون ،
فارتعد بين يديه ؛ وخاف أن يمتد به جنونه الى مالا تحمد
عقباه ، واعتقل لسانه فما يستطيع أن يسأله عن سر عمله

فما انتهى الحلاق من أشكاله الهندسية ، ورسومه
الجغرافية ، حتى التفت الى جلسائه وقال لهم كأنه يتم حديثاً
(٤٠ لك — الطران)

سابقاً بينه وبينهم : لأجل فض النزاع بيننا ها قد رسمت لكم خريطة الحرب الروسية اليابانية في رأس « الزبون » هنا طوكيو ، وهنا بور آرثر ، وهنا انكسر كروباتكين ، وهنا انتصر أوياما ، وفي هذا الخط مر الاسطول الروسى ، وفي هذه البقعة تلاقى الاسطولان ، وهنا أخذ يتكلم بجدة وحماسة عن شجاعة اليابان وبسالتهم ، ثم أردف كلامه بقوله « وفي هذه البقعة ضرب اليابانيون الروس الضربة القاضية » وضرب بمجمع يده أم رأس الزبون ، فقام صارخاً يولول ويهرول . مكشوف الرأس يلعن السياسة والسياسيين . والروس واليابانيين ، والناس أجمعين

لأعلم ان كان المحدث هازلاً أو مجداً ، وإنما أعلم أنه قد أجاد التمثيل

الاقسام

لا أعرف فرقاً بين حنث الحانث في يمينه ، وكذب الكاذب في حديثه ، كلاهما ضعيف المنة ، وكلاهما ساقط

الهمة ، وكما لا يستطيع الكاذب أن يكون صادقاً ، كذلك لا يستطيع الخائن أن يكون باراً ، وناقض العهد أن يكون وفياً ، نخداع من المتكلم أن يزعم أن لاهادئته من الشأن فى مواقف الأقسام ما ليس لها فى غير تلك المواقف ، وأنه يتخرج فى الخنث ، ما لا يخرج فى الكذب ، فان من يستصغر جرم الكذب لا يستكبر من بعده جرماً الدين

أبها الناشئ : إن من الناس قوما قد ضعفت نفوسهم عن احتمال ثقل الدين ، وسلطان أمره ونهيه ، فخرجوا عليه ، ونبذوا طاعته ، ثم علموا أن الناس سيأخذون عليهم ضعفهم وعجزهم ، فلم يجدوا معذرة يعتذرون بها اليهم غير دعوى إنكار الدين وجحوده استثقالا وتبرما ، لا تقلداً وتمذهاً ، وما هم بمفكر به ولا جاحد ، فاعلم أن الله سيدبتليك بهم ، وأنهم سيزينون لك إنكار ما يزعمون أنهم ينكرونه ، وسيخيلون اليك أنك لن تستطيع أن تبلغ ما تريد من هذه المدينة الحاضرة ، وأن

تنال الخطوة الباسقة في نفوس أصحابها ، الا اذا تذكرت لديك ،
وتسلّبت منه ، وخفرت ذمته ، فاحرص الحرص كله على أن
لا يعلق بنفسك عالق من هذه الخيالات الباطلة ، واعلم
أنك الى نفسك أحوج منك الى الناس ، وأن الناس لا يفتنون
عنك من الله شيئا إن أنت أثرت مرضاتهم على مرضاته ،
وأن هذه الحياة الحافلة بصنوف الشقاء ، وأنواع الآلام ، والتي
لا يفيق المرء فيها من غمرة الا الى غمرة ، ولا يثل من عثرة
الا الى عثرة ، لا يعين عليها الا عقيدة راسخة يلوذ بها الحائر
كلما عثرت خطواته ، وتداركت عثراته ، ويستروح من
أعطافها رائحة الجنة كلما ضاق ذرعه باحتمال جحيم العذاب
الحقيقة

قال لى بعض الناس ان قوماً يفرقون في مدحك فهلا
زجرتهم ، فقلت له ان آخرين قد أغرقوا في ذمى فلم أصنع
شيئا ، فدع الأ كاذب يقرع بعضها بعضا ، فربما استطارت
من تلك المعركة شرارة تضيء للناس مكان جوهره الحقيقة

المذالة تحت الأقدام فيلتقطونها

الانتقاد

بين نقد المؤلفات هنا وتقدها هناك فرقان ، أحدهما يتعلق بالناقد ، والآخر يتعلق بأثر النقد في الازدهان ، أما الاول فهو أن الناقد هناك ينتقد الكتاب من حيث ذاته ، فلو لم يكن للكتاب صاحب معروف لا تنتقده ، وهنا ينتقده باعتبار شخص مؤلفه ، أى إنه لا ينتقد الكتاب ، بل صاحب الكتاب في كتابه ، وأما الثانى وهو أثر طبيعى للاول ، فهو أن للانتقاد هناك أثراً ظاهراً فى الكتاب من حيث رواجه وكساده ، وشهرته وخموله ، فكما يقول المنتقد يقول الناس بقوله ، وهنا يمر الانتقاد بالازدهان مرّاً فلا يبقى من آثاره فيها إلا أثر واحد ، وهو أن الكتاب جليل القدر ، سنى القيمة ، ولولا ذلك ما احتفل بأمره محتفل ، لذلك رأيت كثيراً من عقلاء الادباء لا يرضون عن أنفسهم إلا إذا انتقد الناقدون مؤلفاتهم ، بل رأيت من يتوسل الى بعض

الناقدين أن ينتقد مؤلفه ، بل رأيت من يبلغ به الامر أن
ينتقد كتابه بنفسه بتوقيع منجول ، أولئك هم الذين يعرفون
قيمة المنتقدين عندنا وأثر انتقاداتهم في نفوسنا ، أما الذين
يغضبهم الانتقاد ويخرج صدورهم فهم الذين لا يعرفون
من هذا ولا ذاك شيئاً

الحزم

ان الدرهم الذى تمنحه من لا يستحقه ، قد خرج من يدك
فلا سبيل لك الى وجدانه فى اليوم الذى ترى فيه أمامك
من يستحقه ، وان الدينار الذى تعطيه الشارب ليشتري
به كأساً يقتل بها نفسه قد استحال عليك أن تعطيه الفقير
العائل ليشتري به رغيماً يسد به جوعاً أولاده

الالم

إن فى كثير من الآلام التى نعالجها لذائد ومسرات
يدركها من عرف أن الانسان غافل بطبيعته عما يهدده من
مصائب هذه الحياة وأرزائها ، وأن الآلام الضعيفة التى تناله

من العثرات الصغيرة ، هي نُذُرُ تأتية من عالم الغيب لتحذّره
من الآلام الشديدة التي تناله من السقطات الكبيرة
الغفران

ليس الحقد واحتمال الضغينة غريزة من الغرائز اللازمة
للإنسان ، فإن الرجل قد يصفح عن سيئات الأطفال لأنهم
لا يملكون الخيار لأنفسهم ، ويذكر لأصحاب السيئات من
الموتى حسناتهم لأن الزمن الذي ذهب بهم ذهب بخيرهم
وشرهم ، فلم لا نتغفر ذنوب أولئك الذين مآذنبوا الأبعد معركة
مستمرة قامت بين عقولهم وقلوبهم ، ثم سقطوا على أثرها
صرعى لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً

الدعوى

إن أردت أن تكون في الامة اجاهلة كل شيء فادّع
لنفسك كل شيء ، تنل بقولك في الزمن القصير ، ما لا ينال
غيرك بفعله في الزمن الطويل ، فإن الكاذب لا يزال يكذب
حتى يصدق الناس ، ثم لا يزال يكذب حتى يصدق نفسه

الدين والوطن

من لاخير له في دينه لاخير له في وطنه ، لانه ان كان
 بنقضه عهد الوطنية غادراً فاجراً ، فهو بنقضه عهد الله وميثاقه
 أغدر وأجفر ، وإن الفضيلة للانسان أفضل الاوطان ، فمن
 لم يحرص عليها فأحر به ألا يحرص على وطن السقوف
 والجدران

الحلم

اذا تَوَرَّدَ متورِّد بكلمة سوء فلا تبتئس بها ، فانك
 في موقفك هذا بين اثنتين ، إما أن يكون الرجل صادقاً
 فيما يقول أو كاذباً ، فان كانت الاولى فاحمد الله تعالى على أن
 قيض لك من أرشدك الى عيبك ، وكشف لك عن خبيثة
 نفسك ، وان كانت الاخرى فاربأ بنفسك أن تكون من
 الجاهلين الذين يتوهمون أن في استطاعة الا كاذب أن تبقى
 زماً طويلاً على ظهر الارض

الأدب

لا تكافىء السفية على سفهه بمثله ، فانك إن فعلت قضيت
 له على نفسك ، وأصبحت شريكه فى الخلعة التى تزعم أنك
 تنقمها منه ، فان كنت لابد منتقما فليكن مثلك مثل الاحنف
 ابن قيس اذ جاءه رجل تد جعل له بعض الناس جُعلا على أن
 يغضبه ، فما زال يسبه ويشتمه ويأح فى ذلك إلحاحا محرجا
 والأحنف ساكت لا يقول شيئا حتى ضاق بالرجل أمره
 فانقلب إلى قومه با كيا نادبا يا كل أصبعه أ كلا ويقول
 والله ما سكت عنى إلا لهواني عليه

الأخلاق

مثل المتعلم غير المتأدب كمثل سجرة عارية لا تورق ولا
 تثمر قد انتصبت للناس فى ماتقى الطرق تعترض الراح ،
 وتصد سبيل الغادى ، فلا الناس بظاها يستظلون ، ولا هم من
 شرها ناجون

الاعتدال

بين الجبن والتهور منزلة هي الشجاعة والأقدام ، وبين
 البخل والاسراف منزلة هي الكرم ، وبين العفو والانتقام
 منزلة هي العقوبة ، وبين العجز والجهل منزلة هي الحكمة ،
 فليكن من أفضل ما تأخذ به نفسك التريث والتثبت عند
 النظر في الفرق بين مشتبه الفضائل والردائل ، واعلم أنك
 لاتزال كريماً حتى تنفق مالك في غير موضعه فإذا أنت
 مسرف ، وأنت لاتزال حليماً حتى تغضب للباطل فإذا أنت
 جهول ، وأنت لاتزال جباناً حتى تقا تل عن عرضك وشرفك
 فإذا أنت شجاع ، وإن كل الناس يعرفون الفضائل والردائل
 ويفهمون معانيها ، أما إدراك الفرق بين غوامضها ومتشابهاتها
 فتلك مرتبة العقلاء الأذكياء

البر

ربما كان لك من أبويك أو من ذوى رحمك ممن تولوا
 شأنك في مفتتح عمرك من لم تساعده شؤون دهره أو

عصور نشأته على أن ينال حظاً من العلم والمعرفة مثل مانات
 فاياك أن يدعوك ذلك إلى تسفيهه أو تجبيبه أو السخرية به ،
 أو الإدلال بنفسك عليه ، فانك إن فعلت خسرت من الأدب
 أضعاف ما كسبت من العلم ، على أنه ربما كان لكبيرك هذا
 الذى عقفته وظلمته وكفرت بفضل نعمته عليك من العلم
 بتجارب الحياة ومقاتلها . وموارد الأمور ومصادرها ، ما يهر
 علمك الذى تعتد به ، وتدل بمكانك منه عليه ، وهنالك تكون
 قد خسرت فوق خسران أدبك ما كان خليقاً بك أن تتلقاه
 بين يديه من علوم التجارب التى ليست علوم الدراسة بالاضافة
 إليها إلا كالنقطة من البحر ، والذرة من القفر

الشقاء

السبب فى شقاء الانسان أنه دائماً يزهد فى سعادة
 يومه ويلهو عنها بما يتطلع إليه من سعادة غده ، فاذا جاء غده
 اعتقد أن أمسه كان خيراً من يومه ، فهو لا ينفك شقياً فى
 حاضره وماضيه

الفتاة والبيت

الكلمة التي قرظ بها المرحوم كتاب الفتاة والبيت
 حضرة صديق الكاتب الفاضل أنطون افندى الجميل
 أهديتَ إلىَّ كتابك . الفتاة والبيت فأهديته إلى
 ابنتي ، لأنه مكتوب لها ولا تراها من الفتيات الناشئات ،
 وربما كانت وكن أقدر مني ومن الرجال جميعاً على فهم مزيته ،
 وتقدير منزلته ، فلما قرأته عادت إلىَّ تقول إنني لم أهد إليها
 في حياتها خيراً من هذا الكتاب

سامحها الله : فقد كان فيما أهديتُ إليها كتاب
 « النظرات » فقد فضّلته على كتاب أبيها : ولكن ما لها
 وللنظرات وأمثالها من كتب الكليات العامة والخيالات
 السائرة : فهي فتاة على باب المستقبل يهملها أن تعرف أسباب
 الحياة المنظمة التي لا تستطيع فتاة في هذا العصر أن تعيش

بدونها والتي عجز أبواها عن أن يرشداها إليها ، لأنهما بقية من بقايا العصر الماضي ، عصر المصادفات والاتفاقات ، ولا يزال عصرهما لاصقاً بهما حتى اليوم ، ويعنيها أن تعلم كيف تنسج من أخلاقها وآدابها ثوباً يغنيها جماله عن الجمال ، وتعيش من عقلها وحكمتها في ثروة تقوم لها مقام ثروة المال ، وكيف تدبر القليل من الرزق وتنتفع به ، إن قدر لها أن تعيش عيش المقلين ، وتحسن التصرف في الكثير منه وتبقى عليه ، إن قدر لها حظ المكثرين ، وكيف تكون شمساً مشرقة في أفق بيتها تضيء نفوس جميع ساكنيه ، من زوجها إلى خادماتها ، فتسعد بهم ويسعدون بها ، وكيف تتولى أمر نفسها بيدها ، حتى لا يخدمها الخدم عن مالها ، إن كانت ذات خدم ، أو تستغنى عن معونتهم ، إن عجزت عن اتخاذهم ، وكيف تستنبط من ثقب الإبرة ، في اليوم الذي تفقد فيه عائلها ومعينها ، قطرات من الرزق تقيم بها أودها ، وتصون بها ماء وجهها وكتابك ، يا سيدي ، هو الجواب عن جميع ما تطلبه ،

وتسائل نفسها عنه ، فلا غرو إن أعجبها وأطربها ، ولا عجب
 إن فضلتها على كل كتاب حتى كتاب أبيها
 أشكر لك ، يا أنطون ، تلك اليد البيضاء التي أسديتها
 إليَّ وإلى أُمّتك ، وأنصح لجميع الآباء والأمهات أن يجعلوا
 كتابك هذا خير هدية يقدمونها إلى فتيانهم ، وأن يأخذوهن
 بتلاوته مع كتب صلواتهن في مطلع كل شمس ومغربها ،
 فما أحرزت الفتاة في بيتها خيراً من كتاب « الفتاة والبيت »



البعث

هي قصة خيالية الغرض منها تمثيل أبي العلاء المعري في أخلاقه وآرائه لم يكتب منها غير هذه الأيام الثلاثة ، وقد نشر في الذيل من كلام أبي العلاء عند المناسبات ما يميز بين الحقائق التاريخية والتصورات الخيالية

﴿ اليوم الأول ﴾

نبا بي مضجعي ليلة لهم نزل بي والههم رسول من رسل الشر ينزل بأهداب العيون فلا يزال يسعى سعيه حتى يوقظ الفتنة بين أشياءها ، فظلمت أساهر الكوكب حتى ملني وملته وضاق كل منا بصاحبه ذرعاً ، فلما تقضى الليل إلا أقله ولم يبق إلا أن تنفجر لمة الظلام عن جبين الصباح سمعت طارقاً يدق الباب دقاً ضعيفاً ماكدت أتينه لولا هدوء الليل وسكونه ، فقلت من الطارق ، قال غريب حائر ضل به سبيله في هذه الرقعة السوداء وأعوزه المأوى يطلب كريماً

يعتمد عليه ، ومصجعاً يأوى اليه ، وقد أعدّ لمن يسدى اليه تلك النعمة ذخيرة صالحة من شكر لا يبلى ودعاء لا يخيب ، فأعجبت بعابر سبيل يمر بعفو لسانه من فصيح القول وصحيحه ما يعي على جهد المتكلفين ، وتزويق المزورين ، ^(١) وقلت في نفسى ما لهذا الرجل بدٌّ من شأن وفتحت الباب فاذا شيخ كُنْتى ^(٢) من حملة أعباء الدهر قصير القامة ، ناحل الجسم ، زرى الهيئة ، قد نيّف على الثمانين من عمره نخيل إلى أن ظهره المحدودب قد قوّس وأن عصاه التى يعتمد عليها وترقد شدّ إلى تلك القوس وأنه قد أعد من هذه وتلك سلاحاً يذود به عن نفسه عادية المنون ^(٣) ، فلما شعر بمكانى رفع رأسه إلى

(١) زور الشيء حسنه وقومه (٢) الرجل الكسنى الكبير العمر نسبة الى قوله كنت في شبانى كيت وكيت (٣) وصف أبو العلاء نفسه في شيخوخته في احدى رسائله بقوله : (وانى لا أعجز اذا اصططحعت عن القعود فربما استعت بانسان فاذا هم باعاتى وسط يدبه لنهضتى ضريت عظامى لأنهن عاريات عن كسوة كانت عليهن) وقوله في لزومياته يانفس جسمك سربال له خطر وما يبدل في حال بسربال قد أخلقه الالىالى فانزكيه لنى فما يزيدك لبس المخلف البالى

ورمانى بنظرة خلت أنها نفذت إلى موضع الأسرار من قلبى
وأحاطت بما بين قمة رأسى وأخص قدمى فرأيت وجهاً أسمر
اللون قد انتشرت فى أكنافه حفائر الجدري^(١) وأسارى
تنطوى تارة على عبر القرون ، وحوادث الدهور ، وتنفرج
أخرى عن أنوار الصلاح والتقوى ، ولحىة بيضاء إلا أنها
شعشاء ، وعينين كبيرتين مستديرتين ينبعث منهما نور ساطع
خفاق لا يراه الرأى حتى يطرق له إجلالاً وإعظاماً ، وسحنة
غريبة لا عهد لى بمثلها فى حمراء الأأم وسودائها وأحسب أن
لو كان بين يديّ مثال من صور الناس فى القرون الغابرة
لنسبتها^(٢) فمشيت اليه مشية الهائب الوجل وقلت على الرب
والسعة يا سيدى لقد حلت بمنزل أنت صاحبه وولى الأمر
فيه ، ثم قدمت اليه يدى فشى معى يتوكأ ويتحامل ويهمس
بهذه الكلمة

(١) اعتل أبو العلاء فى الرابعة من عمره بعلة الجدري فذهبت بصره
وبقيب آثارها فى وجهه بعد ذلك

(٢) نسبتها أى ذكرت نسبتها الى نوع من أنواع تلك الصور

ما أوسع الموت يستريح به الجسد ثم المعنى ويخفت اللجب
 حتى وصلنا إلى غرفة الأضياف فأعاد النظر إلى وقال
 اذهب لشأنك فأنا في حاجة إلى الانفراد بنفسى ، فتركته
 وذهبت إلى غرفة منامى وقد أخذ منظر الرجل مكاناً من قلبى
 وشغلنى من أمره ما كاد ينسينى هموم نفسى فلم أزل أقلب
 النظر فى حاله وأذهب المذاهب فى استبطان سره حتى أخذ
 عيىَّ نومٌ ثقيل لم أستيقظ منه إلا فى صفرة الأصيل

سألت الخادم عن الضيف فعلمت أنه أخذ حظه من
 المطعم والمشرّب والمضجع والمستحمّ وأنه لا يزال فى مصلاه
 فهبطت اليه فى خلوته أهيبَ ما أكون له فرأيتَه جالساً إلى
 قبلته يقاب وجهه فى السماء ، ويكرر هذا الدعاء

اللهم لا رادّ لقضائك ؟ ولا سخط على بلائك ، أمرت
 فأطعنا ، وابتليت فرضيّنا ، فأمرنا غيث إحسانك ، وأذقنا
 برد رحمتك ، وألهمنا جميل صبرك ، وثبت قلوبنا على طاعتك ،
 فلا عون إلاّ بك ، ولا ملجأ إلاّ إليك ، إنك أرحم الراحمين ،

وأعدل الحاكمين^(١)

ثم أطرقَ بعد ذلك إطرافاً طويلاً خلت أنه وصل فيه إلى مقام التجريد وأن الذي أراه بين يديّ جسد هامد قد أسرى بروحه إلى الملاء الأعلى ، فجعلتُ أختبئ الخفي إليه حتى صاقتُهُ ، فرفع رأسه إلىّ ذاهلاً ، وقال أنتَ هنا . قلتُ نعم ، قال في أي سنة نحن من تاريخ الهجرة فعجبتُ لسؤاله وقلتُ في السنة التاسعة والعشرين بعد الثمانيّة والألف ، قال ما إسم هذا المصر الذي تعمرونه ، قلت القاهرة المعزية ، قال أفى هذه الأمة كثير مثلك ، قلتُ لم أفهم ما تريد يا سيدي ، قال لقد استفتحتُ هذه الأبواب التي

(١) حدث القاضي أبو الفتح أنه دخل على أبي العلاء في خلوته فسمعه يقول وهو لا يعلم بمكانه

كم بودرب عادة كعوب وعمرت أمها العجور

يحوّر أن بطنى المنايا والحد في الدهر لاجور

ثم نأوه مران وتلا قوله تعالى (إن في ذلك لآية لمن حاف عذاب الآخرة ، ألا به) ثم صاح وبكى بكاء شديداً وطرح نفسه على الأرض وهو يقول سبحان من هذا كلامه . قال وعلمت صحة دينه وبقية

تليك فلم أجد من ورائها إلا ضعيفاً لا يلبث أن يراني حتى
يرعد منى فرقا فيوصد بابه في وجهي ، أو ضنينا يرى بؤسى
وشكاتي فيزوى ما بين حاجبيه ثم ينصرف عني ، أو أعجياً
لا يفهم ما أقول ولا أفهم ما يقول . قلتُ ما في هذه الحلة
التي تراها أعجى ، قال انهم خاطبونى بلحن لا أعرفه وإن
شئت أعدته عليك كما سمعته ، ثم أخذ يسرد على الكلمات
العامية التي سمعها من الناس في طريقه إلى سرداً متواصلاً
كما تسرد البغواء كلماتها ، فقلتُ أنك قد أعدت يا سيدي
بذكائك هذا عهد أبي العلاء المعري فانهم يتحدثون عنه أنه
كان إذا سمع أعجياً يتكلم حفظ كلامه بدون أن يفهم معناه ^(١)
فما سمع كلنى هذه حتى اضطرب جسمه وانكفاً لونه ^(٢)
ورأراً بمقتليه ^(٣) وزحف إلىّ حتى اصطكت ركبتيانا ،
فعجبت لأمره وما رأيت من استحالة حاله ، ثم قال لي من

(١) ذكر المؤرخون لأبي العلاء قصصاً متعددة تتضمن أنه كان يحفظ

ما يسمعه من الأعاجم بلغتهم فيسقى في دهره رماناً طويلاً حتى يلقى كما سمعه

(٢) انكفاً لونه تفر (٣) رأراً بمقتله حرهما وأدارهما

هو هذا المعري الذي حدثوك عنه ، قلت رجل من علماء
الأمة العربية وشعرائها عاش في القرن الرابع والخامس من
الهجرة تقرأ سيرته في كتب التاريخ والأدب ونعجب بفهمه
وعلمه وذكائه كل الإعجاب ، قال وما ظنكم به ، قلت إن الناس
في أمره مختلفون ، ومن يرفضه أكثر ممن يتشيع له ، قال
ومن أيهم أنت ، قلت ومن يتشيع له ، فقد قرأت كتبه
قراءة مستثبت مستبصر فما شككت في مذهبه ودينه ،
قال أكنت تؤثر أن تكون في عصره أو أن يكون في عصرك
حتى تراه ، قلت ما أعدل بهذه الأمنية غيرها ، قال قد بلغك
الله طلبتك ، قلت لم أفهم يا سيدي شيئاً مما تقول ، قال
أكاتم أنت على سري ؟ قلت نعم ، قال أتقسم ، قلت إن
الموفاء عندي حرمة مثل حرمة القسم ولو كنت متعباً نفسي
لأقسمت ، قال الآن عرفتك . أنا أحمد بن عبد الله بن سليمان
التنوخى المعري ، فما قرعت هذه الكلمة مسمعى حتى أسقط
في يدي وعامتُ أنى قد هلكت ، وكان أول ما كان منى أن

أُتِفَت نَاحِيَةُ الْبَابِ لَا رَى هَلْ أَجِدُ السَّبِيلَ إِلَى الْهَرَبِ إِنْ
 عَرَضَ لِي مِنْ هَذَا الْمَجْنُونِ عَارِضُ سُوءٍ ، وَكَأَنَّهُ أَلَمْ يَمَافِي نَفْسِي
 فَيَقْتُلَ لَا أَلُومُكَ عَلَيَّ مَا ظَنَنْتُ فَقَدْ قَدَرْتُ قَبْلَ أَنْ أَلْقَى إِلَيْكَ
 كَلِمَتِي هَذِهِ أَنَّهَا بِاللُّغَةِ مِنْكَ مَا بَلَغْتَ فَهَلْ تَوْمِنُ بِاللَّهِ ، قُلْتُ نَعَمْ
 قَالَ وَتَوْمِنُ بِالْبَعْثِ ، قُلْتُ نَعَمْ ، قَالَ وَمَا يَرِيْبُكَ مِنْ رَجُلٍ
 أَمَاتَهُ اللَّهُ ثُمَّ بَعَثَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ، قُلْتُ ذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُونَ ، قَالَ
 هَبْهَا قِصَّةَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ (نَخِذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطُّبَرِ فَصِرْهُنَّ
 إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَا تَيْنُكَ
 سَمْعِيًّا) وَبَعْدَ فَوَائِدِهِ يَا بَنِي مَا كَفَرْتَ مَذْأَمَتٌ وَلَا كَذَبْتَ
 مَذْأَمَتٌ أَنْ الصَّدَقَ مِنْجَاةٌ مِنَ النَّارِ وَلَا اسْتَرَدَّ اللَّهُ مِنِّي نِعْمَةً
 الْعَقْلُ بَعْدَ مَا مَحَنِي إِيَّاهَا وَلَوْ كَذَبْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا كَذَبْتُكَ
 فَقَدْ أَسْلَفْتُ إِلَيَّ مِنْ أَيْدِيكَ مَا لَا أَحْتَاجُ بَعْدَهُ إِلَى كَذِبَةٍ
 أَتَفَقَّقَ بِهَا عَلَيْكَ ، أَوْ أَزْدَلِفَ بِهَا إِلَيْكَ ، وَإِنِّي قَاصِدٌ عَلَيْكَ
 قِصَّتِي فَاصْبِرْ لَهَا وَلَكَ بَعْدَ ذَلِكَ حَكْمُكَ ، فَسُرِّي عَنْ قَلِيلًا
 مَا كَانَ أَلَمْ بِنَفْسِي مِنَ الْقَلْقِ فَأَقْبَاتُ عَلَيْهِ بَوَاجِيهِ فَأَنْشَأُ يَقُولُ

لا أزال يا بنيّ حتى الساعة أشعر بمرارة الحساب في في
فقد حوسبت حساباً غير يسير على الكبير والصغير والدقيق
والجليل والقومة والقعدة والخطرة واللمحة وكل ما وجدته
حاضراً بين يدي في صحائفي فكادت حسناتي تكافئ في الميزان
سيئاتي لولا تلك الكلمات التي كنت أرددتها في حياتي الأولى
في تهديد الناس في النسل والزواج^(١) فقد دخلت بها في

(١) لاني العلاء أقوال كبيرة في السهي عن الرواح والبرهيد في السبل
جاء بها على صور محله فتارة كان يفرح بموت الطفل في مهده كقوله :
قدم الفنى ومضى بغير نبه كهلل أول ليلة من شهره
لقد اسزاح من الحياة معجل لو عاش كد شدة في دهره
وتارة كان يفصل بقاءه في عالم العيب كقوله :
وإذا أردنم للبين كرامه فالخزم اجمع تركهم في الأظهر
وباره كان يظهر سروره بأنه لم ينزوح ولم يسبل كقوله :
تواصل جبل السبل مانس آدم ويني ولم يوصل بلاى به
تساءب عمرو ادنساء خالد بعدوى فما أعدتى النوباء
وقوله
بنت عن الدنيا ولا نب لى فيها ولا عرس ولا أخت
وقوله
لقد صرنت في الدنيا غيباً مرءأ فأعفب سلى من اداة

زمرة المفسدين الذين تمكروا لإرادة الله وأغفلوا حكمته
 في خلق النوع البشرى وطال حسابى عليها وحجاجى فيها
 وكان لا بد من العقاب ففزعت إلى الروح الشريفة المحمدية

فان تحكى بالخور في وفى أبى فلى تحكبه فى ساقى وفى انى
 وبارة كان بعد ولادة الوالد لولده خنايه مه عليه كقوله :
 ليديم والدأ ولد ويعتب عابه فبتس عمرى ماسعى له
 وقوله

هذا جباه أبى على وما حيب على أحد
 وظاهر أن الذى أنار هذه الخواطر فى نفسه ما كان يتصوره من
 أن السقاء فى هذا العالم لازم ضرورى من لوازم النوع الانسانى ولا
 خلاص له مه الا من طريق العدم المحض وان اسناده الحيايه الى الوالد
 بولادة ولده ليس على طاهره بل أراد به الامعان فى تصور بهدا السقاء
 وبسبب ضرورة انصائه للانسان وأنه لو لم يولد لما كان شقنا وقد أوضح
 عرضه هذا توجيهاً بنا فى قوله :

ألا تفكرت قل السبل فى رمى به حلب مبرى أن يلقه
 ترجوله من نعيم الدهر متمتعاً وما علمت بأن العاش يسقيه
 سكا لادى فسهرت الليل وانتكرب به المنام الى شمطاء نرقه
 وأمه بسأل العراف قاصه عه الدور لعل الله ينقه
 وأنت أرشد منها حين تحمله الى الطب يداويه ويسقيه
 ولو رى الطفل عيسى أو أعبد له بقرأ ما كان من موت يوقيه

مستشفعاً بها لا أريد رد القضاء ولا كمن أريد اللطف فيه ،
 فتعلق محمد صلى الله عليه وسلم بقوائم العرش الالهي وقال :
 اللهم إنك تعلم أن عبدك هذا عاش في تلك الدار كارهاً
 لها متبرماً بها متسخطاً عليها حابساً نفسه في كسر بيته فراراً
 من أهلها يترقب فراقها في جميع آنائه وفيناته حتى لو رأى
 الشمس طالعة لتنتي ألا يرى مغربها ولو رآها غاربة لتنتي ألا
 يرى مشرقها ، وقد قضى قضاؤك الذي لا مردّ له ولا محيص
 عنه أن تعاقبه على ما اجترح من السيئات في دار العمل
 فأسألك بتمامك النوراني الذي تحو به في لوحك ما تشاء
 وثبت أن تقى جسمه الذي طهره في الحياة الدنيا بالزهد في
 شهواتها ولذائذها والصبر على آلامها وأهوالها من عذاب
 النار^(١) وأن تجعل عذاب قلبه فداء عذاب جسمه فعاقبه

(١) كان أبو العلاء يعتقد ما يعتقد جميع الموحدين أن ما لقيه في هذه
 الحياة من عاء وشقاء وما أخذ به نفسه من الزهد في العيش والرغبة عن
 لذائد الحياة وأنعما مدخر له أجره في دار الخراء كما يظهر من مثل قوله
 (٤٣ : لث — النظرات)

بإرجاعه إلى تلك الدار التي كانت ججيمه ومستقرّ عذابه ،
وحسبه من العقاب أن يلقى فيها آخرًا مألوف فيها أولاً (إنك
بعبادك لطيف خير)

فقبل الله شفاعة نبيه وقضى أن أعود إلى الدار الأولى
لأقضى فيها من الأيام بعدد ما قضيت فيها من السنين وقد
علم سبحانه وتعالى أنني كنت في العهد الأول أحمده على العمى
كما يحمده غيرى على البصر فردّ إلى بصري لتنفيذ مشيئته
في عقابي وتمذيبي فله الحمد على سرائه وضرائه

هذه قصتي قصصتها عليك وهذا أول يوم من الأيام
التي سأقضيها في داركم هذه فاكم على أمرى حتى ينقضى
أجلى وكن لي خير معين على هموم الحياة وبأسائها فقد اغتبطت
بك منذ رأيتك وعلمت أن الله ما قيضك لي إلا وهو يريد
أن يخفف عني العذاب مرة أخرى

أأخشى عذاب الله والله عادل وقد عشت عيش المستضام المعذب

وقوله

أسح في الدنيا كما هو عالم وأدخل ناراً مثل قيصر أو كسرى

فما أتم قصته حتى ابتدرت يديه لثماً وتقبيلاً وعلمت
 أنى قد أحرزت في بيتي كنزاً لا أعدل به كنوز الأرض
 ظاهرها وباطنها وشمرت بما أضاء بين جوانحي من سرور
 ما كان يكدره على إلا خوف انقضائه
 ثم ما زلنا نتحدث حتى كادت تحترق فحة الليل فوضعت
 يدي في يده وعاهدته على كتمان سره ثم ودعته وتركته في
 خلوته على أن نلتقى غداً

﴿ اليوم الثاني ﴾

ما كنت أجهل قبل اليوم رأى الشيخ في الطعام وما
 يحب منه وما يكره ولكنني ظننت أنه بُعث بطبيعة غير
 طبيعته ورأى غير رأيه فقدمت إليه في طعام العشاء دجاجات
 ربلات ^(١) كنت أعددتهم للضيفان من قبل ، فلما أخذ
 بصره المائدة صار ينظر إليها مرة وإلى أخرى ثم قال ما إسم

(١) الربل الكثير اللحم

هذا الطعام الذى تقدمه إلى ، قلت انهنّ دجاجات لم يكن
للخادم الصغرى عندى شأن غير رعايتهنّ والقيام عليهنّ
والحلب بهنّ ، فكانت تؤثرهنّ بأفضل ما تؤثرها به من
طعام وشراب وتنزلهن من نفسها منزلة الواحد من أمه حتى
امتلائن واكتنزن^(١) واستدرن للذبح ، وقد كنت أبقى عليهنّ
كلما طرقتى طارق إبقاءً على الفتاة أن ينفجر صدرها حزناً
على أترابها الصغيرات ، أما اليوم فلم أرَ من ذلك بدءاً فذبحتهنّ
إكراماً لك فسال من دموع الفتاة عليهنّ أكثر مما سال
من دماهنّ

فوجم الشيخ ثم أطرق إطراقاً طويلاً سمعته يهيم^(٢)
فيه بهذه الكلمات

وارحمته ، ألا تزال هذه المدى موكلة بهذه الأعناق ،
ألا يزال الحيوان الناطق ينكر على الحيوان الصامت حتى
حسه ووجدانه ويأبى إلا أن ينظمه فى سلك الجمادات الصم

(١) كنز اللحم اجتمع وصلب (٢) الهينة الصوت الحفى

لأنه صامت لا ينطق وأخرس لا يبين^(١)، ربما كان زقاء الديك، وقوقأة الدجاجة، وصرصرة البازي، وهديل الحمام، وزقزقة العصفور، وثغاء الشاة، ومواة الهرة، وخواء الثور، وحنين النيب^(٢) بكاءً بغير دموع، وشكوى بغير لسان، وربما كان يكتّم ذاك الذي يح في نفسه من الوجد والبرحاء مالو استطاع أن يبين عنه لأبكي العيون دماءً وفجر الصخر عيوناً ثم رفع رأسه إلى وقال: أما سمعت الدجاجات يقان لك شيئاً عند ما أردت ذبحهنّ، قات لا يا مولاي ومتى قلنّ لئامس شيئاً فيقان لي، فنظر إلى نظرة شزراء لا أنسى سمهما الواقع في قلبي ما حييت ثم قال، أما لو أن الله منح ذابح الدجاجة من نور البصيرة ما منحه من نور البصر لسمعها تقوله له

(١) من كلام أبي العلاء في احساس الحيوان بالآلام قوله في إحدى رسائله (وقد علم أن الحيوان كله حساس يقع به الألم) وقوله (ولم يزل من ينتسب إلى الدين يربح في هجر أن اللحوم لأنها لا يتوصل إليها إلا بإيلاف حيوان يفر منه في كل أوان)

(٢) النيب جمع ناب وهي الناقة المسنة

مهلاً رويداً أيها القاتل السفاك لا تدنُ مني ولا تمددْ
يدك إليّ فلا شأن لك معي ولا ترة^(١) لك عندي
أنا صاحبة الحق المطلق في حياتي وأنا لا أريد أن أموت
ولا رغبة لي في فراق الحياة لأن ورائي أفراخاً صغاراً هنّ
إلى حياتي أحوج منك إلى مماتي . وليس من الرأي أن أكل
أمرهنّ إليك من بعدى لأنك شره طماع لا يشبع بطنك
ولا تهداً مُديتك

أنت لا تملك أن تعطيني الحياة فلا تملك أن تسلبني إياها
كل ما تستطيع أن تمنّ به عليّ أنك كنت تطعمني
وتسقينني فهل تعلم أنك ما كنت تطعمني إلاّ فتات مائدتك ولا
تسقينني إلاّ غُسالة يديك وأنت ما كنت تصنع ذلك رحمةً بي
ولا إحساناً إليّ بل لتهيبْ لنفسك ما يسد شهوتك ويطفى
لوعتها، وهل تعلم أنك أنت الذي سجنّتنني في أقفاصك
وحلت بيني وبين رزق الله أطعمه أني ذهبت وأين حللت من

حيث لا يساومني فيه مساوم ولا يحاسبني عليه محاسب
أمن أجل تلك الخُشارة ^(١) القذرة والجرعة الكدرة
تسلبني حياتي وتفجع بي أفرأخي ولا ذنب لي ولا لهنّ عندك
إلاّ أنا . كنا زينة بيتك ولعبة أطفالك وحماة آالك من نبات
الأرض ^(٢) وهوامها ورسل الفجر المنير اليك

لا تظلم السبع بعد اليوم ولا تنقم منه وحشيته وافتراسه
فكلادكما وحش وكلادكما مفترس لا فرق بينك وبينه إلاّ أنه
لا يحسن الذبح والطبخ كما تحسن فهو يبقر البطون بأظافره
وأنت تفرى الأوداج بمُداك ، لا بل إن جريمتك أكبر من
جريمته وعذرك أضعف من عذره لأنّه يفترس ليشبع بطنه
وأنت تفترس لترفّه نفسك ولأنّه يعجز عن الاحتيال لقوته
وأنت على ذلك من القادرين ^(٣)

(١) الخسارة فضالة المائدة (٢) المراد نبات الأرض الحشرات
التي تخرج من بطنها

(٢) فضل أبو العلاء الحيون على الانسان في كثير من كلامه لقوله :
سبت بالكلب فأنكره والكلب خير منك اذ ينبج

استضعفتني فبرزت الىّ فهلاًّ برزت لشبل الأسد، أو
ديسم الدب ، أو فرعل الضب ، أو حرش الحية ، أو هيثم
النسر ، أو ناهض العقاب ؟ ^(١)

ما أخبثك أيها الانسان عاجزاً ، وما أظلمك قادراً ، وما
أشقاك بنفسك وأشتى العالمين بشقائك

ذلك ما كان يسمعه الذابح من ذبيحته لو أن الله وهبه
أذناً كالآذان وبصيرة كالبصائر ولكنّ الناس لا يعلمون
هيه يا صاحب الدجاجات حدثني عنك ألم يكن لك في
جميع ما تنبت الأرض من بقلها ، وقثائها ، وفومها ، وعدسها ،
وبصلها ، منادحٌ لا كرامى والقيام بحقي . وأنت نعلم أنى رجل
سلخت في دنياكم هذه من حياتى الأولى نيفاً وأربعين سنة
لم أذق فيها لحم الحيوان ولا ثماره ولا نتاجه فحمت نفسى
حتى غسل النحل وبيض الدجاج وألبان ذوات الاثداء وأقنعتها

وقوله: أقل منهم سرّاً ومررية ما ركبوا فى السرى وما زنجبوا

وقوله: خير من الظالم الجبار شيمته ظلم وحيف ظلم يربى الذبحا

(١) هذه فروق تتاج تلك الأنواع من الحيوان

بالبلسن طعاماً والبلس حلوى^(١) لأننى كنت أعلم أن النبات
طعامى الذى لا يلائمنى غيره ولا يشبهنى سواد وأن لحم الحيوان
إنما خلق للشفاء الغليظة ، والأنياب العريضة ، والأظفار
الحادة والجلود الزابرة^(٢) ، والأعضاء المتوتبة ، والهلمات
الضخمة ، وكنت أرى أن أكلة اللحوم إنما يخادعون أنفسهم
فيها ويمجترونها إلى طبائهم اجتراراً لأنهم لا يأكلونها إلا
إذا عالجوها بالطبخ والصف^(٣) والتقديد والشى والقلى ومزجوها
بالخضر والتوابل والأبازير والأقزاح^(٤) مزجاً يكاد يخرج
بها عن جوهرها إلى جوهر النبات حتى إذا نزل بهم عارض
مرض نزعوا عنها وبرئوا إلى الله منها وفزعوا إلى النبات فى
طعامهم وشرابهم وعقاقيرهم كأنما يطلبون شفاءهم فى الرجوع

(١) البلسن العدى والبلس التين ومن كلام أبى العلاء :

نقننى بلسن يمارس لى فان أتتى حلاوة فباس

(٢) الثوب المزبر الذى له زئبر وهو ما يظهر من درره (٣) الصف

لشريح اللحم عراضاً (٤) التوابل وما يليها ما يطيب به المطبوع من

الأشياء اليابسة

الى غذائهم الطبيعي الذي خلقوا له
وأعجب ما كنت أعجب له من أمرهم أنهم كانوا ينكرون
على رأيي في ترك ذلك الطعام ويمنعون في مُساءتي عنه
وحجاجي فيه وحمل عليه ويلحون في ذلك إلحاحاً شديداً حتى
ظننت أنهم قاتليّ من دونه ^(١) كأنما يزعمون في ضوضائهم
هذه أنهم انما يأكلون لحم الحيوان بإسم الشريعة الدينية
لا بإسم القرم والجعم ^(٢) أو أن الله تعالى أنزل عليهم قرآناً
ألاّ يقيم لهم يوم القيامة وزناً ولا يقبل منهم صرفاً ولا عدلاً
إلاّ إذا قدموا عليه بيطون بجر ^(٣) مكتظة بلحوم الحيوان

(١) كتب ابن أبي عمران الى أبي العلاء حملة رسائل يسأله فيها عن
سبب اقتناعه عن أكل اللحم ويبيّنه فيها تبكيّاً مؤلماً ويعرض عليه أن
يحمل بعض الأثراء على أن يرسل اليه ما يكفيه مؤونة ذلك احراجاً له
واعنائاً وأبو العلاء يومئذ في أواخر حياته ومنتهى شيخوخته فقد ضعفت
شهوته عن اللحم وغيره ووهب قوته عن المناظرة والجدل حتى قال في
بعض أجوبته عن تلك الرسائل (ولو مثل محضرته السامية لعلم أنه لم يبق
فيه بقية لأن يسأل ولا أن يجيب وقد عجز عن القيام في الصلاة فأنما يصلى
قاعداً والله المستعان) (٢) القرم والحجم شهوة اللحم (٣) بجر جمع
أبجر وهو الممتلىء

تتقدم بين أيديهم في منصرفهم من الحساب لتفتح لهم أبواب الجنان ، وكأنهم فرغوا من أداء ما افترض الله عليهم أن يؤدوه وترك ما أمرهم أن يتركوه فلم يبق بين أيديهم من أبواب العبادة إلا باب التورّع عن أكل اللحم مخافة أن يفتلب المباح بإعراضهم عنه حراماً كما ترك النبي صلى الله عليه وسلم صلاة التراويح بعد أدائها مخافة أن تمقلب سنتها باستمراره عليها فريضة ^(١)

وأحسب أن لو كنت فيهم من أكلة السُّحْتِ أو الميتة والدم ولحم الخنزير أو أموال الناس بالباطل لأوسعوا لي في صدورهم من العذر ما لم يوسعوا في ترك مباح ما تركته نقمة على الشريعة أو تبرماً بها أو تمرداً عليها ولكنتي كنت امرأة جزوعاً يزعجني منظر الشرائع الحيوانية على مائدتي لأنه يذكرني بمنظر الذبيحة وارتباعها وولهاها بين حبل الذابح

(١) من كلام أبي العلاء في الذين يحملون بصغائر الذنوب ويفعلون كبارها : يعيب أناس أن قوما تجردوا لحمامهم نصب العيون الشوازر لقد سعدوا ان كان لم يجر عندهم من الوزر الا تركهم للمآزر

وسكينه وكنتم فقيراً لا أملك في كل عام من الرزق إلا
 نيفاً وعشرين ديناراً لا يتسع مثلها لمثل ما يتسع له عيش
 الناعمين المترفين^(١) وما كنتم أجد السبيل إلى غيرها إلا
 من طريق الكدية والتكفف أى بقبول صلاة الأُمراء
 وصدقات المحسنين . وقد علم الله من شأنى أنى رجل لو
 علمت أنى إن أذلتُ ما صان الله من ماء وجهى على عتبة أمير
 أو قدم وزير ، أمطرت السماء علىَّ ذهباً ، واستحالت الحصباء
 تحت قدمى درّاً ما فعلت ضمناً بنفسى على هذا الموقف
 المستوبل وإيثاراً للرضاء بقضاء الله وقدره فى تسمة أرزاقه
 بين عباده^(٢)

(١) من كلام أبى العلاء فى سبب امتناعه عن أكل اللحم قوله فى بعض
 رسائله (ومما حتى على ترك اللحم أن الذى لى فى السه بنف وعشرون
 ديناراً فإذا أخذ خادمى بعض ما يجب ، بقى ما لا يعجب ، فاقصرت
 على فول ولسن ، وبعض ما لا يعذب فى الألسن) ومن كلامه الدال
 على انه كان فقيراً معوزاً قوله :

واتهامى بالمال أوجب أن يط لب منى ما يقضى التويل
 ويقول الغواة خولك الله كذبتهم لغيرى التخبول
 (٢) كان أبو العلاء غاية فى قناعته وانهة نفسه وقد ظهر ذلك

فلم أرَ خيراً من ترك طعام لو اشتهيتهُ لما قدرت عليه
ولو قدرت عليه لما اشتهيتهُ من حيث لا يكون للتحريم
والتحليل ولا للإيمان والزندقة في ذلك مدخل

في حالة معيسته واعتقاله ببنه وازوائه عن الناس مع رغبة الامراء فيه
والحاح الكبراء عليه في البروز اليهم والكون معهم فصلا عما كان لا يرال
ههنا من ذكر القناعة في شعره كقوله :

الحمد لله قد أصبحت في دعة أَرْضِي القليل ولا أهتم بالقوت
وقوله

من مذهبي أن لا أشد مصة قدحى ولا أصغى لشرب معوج
لكن أقضى مدتي تتقع يعنى وأخرج بالقليل الأروج
هذا ولست أود أنى فأم بالملك في ثوبى أغر متوج
ولما اضطر أن يخرج إلى أسد الدولة صالح وهو بظاهر المعرة ليطلب
منه اطلاق جماعة من الأسرى عنده قبل صالح شفاعته وأطلقهم ولكنه
جزع بعد ذلك لهذه الضراعة جزعا ظهر في قوله :

نفيت في منزلى برهة ستير العيون فقيد الحسد
فلما مضى العمر إلا الأقل وحمل لروحي فراق الجسد
بعث شفيعا إلى صالح وذاك من القوم رأى فسد
فيسمع منى سجع الحما م وأسمع منه زئير الأسد
فلا يعجنى هذا النفا ق فكم بقت محنة ما كسد

وما زال المتورعون من السلف الصالح يتركون ما هو لهم حلال مطلق من لذائذ هذه الحياة وشهواتها ويجزعون من ملامسته والدنو منه جزعهم من اجتراح السيئات ، وانتهاك الحرمات ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع نفسه من غير عوز وكانت عائشة رضى الله عنها تقول إن رسول الله لم يمتلئ قط شبعاً وربما بكيتُ رحمةً له مما أرى به من الجوع فأمسح بطنه ييسدى وأقول نفسى لك الفداء لو تبلّغت من الدنيا بقدر ما يقويك ، فيقول يا عائشة إخواني من أولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أشدّ من هذا فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم ما بهم وأجزل ثوابهم ، وكان يقول شرار أمتي الذين يأكلون مخ الحنطة ^(١) وعلا عمر رضى الله عنه ولدّه عبد الله بن عمر بالدرة ^(٢) إذ دخل عليه فرآه يجمع فى طعامه بين الثريد والشواء ، وكان بعض الصالحين

(١) مخ الحنطة خالصها (٢) الدرة السوط يضرب به وكان في يد عمر بن الخطاب رضى الله عنه درة لا يكاد تفارق يده

يُعد الجمع بين الخبز والملح شهوة فبتجنبها ، وكان بعضهم يعجن دقيقه ويخففه في الشمس ثم يأكله قائلًا كسرة وملح حتى يتهيأ في الآخرة الشواء ، ومنهم من لم يأتدم قط في حياته لا بالجوداب^(١) والكباب ولا بالخل والزيت

فهل كان واحد من هؤلاء بَطْرًا بنعمة الله أو محرماً ما حلل الله ؟ لا فما كل من أبغض حلالاً حرّمه ولا كل من أحب حراماً حلّله فقد اعتقد صاحب أبي حنيفة بخل النبيذ فلما أريد عليه قال لو قطعت إِرْبًا إِرْبًا ما حرّمته ، ولو قطعت إِرْبًا إِرْبًا ما شرّبه ، وعلم النبي صلى الله عليه وسلم بخل الطلاق ثم قال أبغض الحلال إلى الطلاق بل لو تبينت لعلمت أن قاعدة التحريم والتحليل في الشرائع الدينية مصادرة النفوس في ميولها وشهواتها والنفوس لا تنفر إلاّ مما حلّ لها ولا تستهي إلاّ ما حرم عليها

فويل لي من هؤلاء الناس شرّكتهم في دنياهم فقالوا

(١) الجوداب طعام يتخذ من سكر ورر ولحم

شره طماع ، وصدفت لهم عنها فقالوا زنديق ملحد ، فصبر
جميل والله المستعان على ما تصفون^(١)

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى بلغ منه الجهد
أو كاد فتفصد جبينه عرقاً واستسر حديثه حتى ما يكاد يبين
فرثيت له مما به وأمرت برفع المائدة من بين يديه وقدمت له
مقترحه من الطعام فلبثنا نأكل صامتين حتى فرغنا فأردت
أن أرفقه عليه ما ألمّ به من الهم فقلت له يا مولاي إن للحيوان
اليوم شأنًا غير ذلك الشأن الذي تعرفه له من قبل فقد ذهب
كثير من الناس مذهب الرفق به والإحسان إليه واجتمع
في كل مدينة من مدن العالم قوم من الراحمين المحسنين
يأخذون أنفسهم بمناظرة المدارج والسبل والأسواق العامة
فاذا وجدوا من يحمل على دابته فوق ما تحتمل أو يسوطها

(١) من كلام أبي العلاء في عدم رضا الناس عنه حتى في زهده عما
في أيديهم :
حورفت في كل مطلوب هممت به حتى رهدت فما خليت والزهدا

سوطاً غنيماً^(١) رفعوا إلى الحاكم أمره أو رأوا حيواناً هزيراً
أو مريضاً^(٢) حملوه إلى مكان خاص بمعالجة أمراض الحيوان
فعلجوه إن وجدوا إلى الرجاء فيه سبيلاً وإلا قتلوه رحمة به
وإشفافاً عليه

قال لقد أحسنوا في الأولى وأساءوا في الأخرى ومن
لهم بعلم ما استتر وراء حجب الغيب من كوامن الأقدار
في تحديد الآجال، وها نحن زى في كل يوم مريضاً يثل
بعد إشرافه وبكاء الباكيات حوله وصحيحاً يحترم في اجتماع
قوته واستكمال فتوته وغليان ماء الشباب في وجهه كما تحترم
الثمرة الغضة من غصنها الناضر فهلا وكلوه إلى منيته تأتبه
هادئة مطمئنة حبث يسوقها القدر إليه^(٣)

ما أحسب هؤلاء الراحمين الذين تحدثني عنهم إلا

(١) ساط دابته سوطاً أى ضرها بالسوط (٢) المبيض الكبير

(٢) من كلام أبي العلاء في عجز العالم عن ادراك الغيب :

وجدت الغيب تجهله البرابا فما شق هديت وما سطيح

(٤٥ ثالث — النظرات)

مرائين مصانعين ، ولا هذه الرحمة التي ينتحلونها لأفسهم
إلاَّ حباله من الحبال نسيبوها لاصطياد العقول ، واختلال
النفوس ولا أنهم أرادوا بما فعلوا إلاَّ أن يقول الناس عنهم
إنهم رحموا الحيوان فأحرى أن يرحموا الإنسان ، مثلهم كمثل
المرائين في الدين الذين يتورعون عن التمرة حلالاً تذرُّعاً إلى
البدره حراماً

يا بني آدم دعوا النوق في مراحها ، والشاء في زروبها ،
والوحش في كناسه ، والضب في ججره ، والذئب في وجاره ،
والقطا في أفاحيصه ، ولا تزعجوا العصافير في أعشاشها ، ولا
الحمام عن محاضنها ، ولا اليعاسيب عن خلاياها ، ولا الأسماك
عن مسارحها^(١) ، وجنبوها خفاخكم وشباكم ، وقتركم وزباككم^(٢)
ومداكم وشفاركم ، فان لها نفوساً كنفوسكم ، ووجداناً
كوجدانكم ، ورجاء في الحياة كرجائكم ، واعلموا أن الله

(١) هذه فروق أماكن تلك الحيوانات (٢) القتر جمع قتره بصم
القاف وهو الماموس الذي ينيه الصائد ليستتر عن الصيد والزبي جمع زبية
بضم الزاي وهي حفرة تحفر في في الجبل لصيد الاسد

تعالى ما أغرى بعضكم ببعض ولا سلط قوَّيكم على ضعيفكم
ولا أجرى هذه الينابيع من الدماء بين أحيائكم إلا بعد أن
ضربتم^(١) بهذه اللحوم ضراء السباع بفرائسها ، وقطعتم الى
المتعة بهاماشتم من الحلاقيم والغلاصم والأوداج والأباهر^(٢)
فارحموها ترحموا أنفسكم واعصموا دماءها يعصم الله دماءكم ،
إنكم إلى الرحمة محتاجون ، وإلى الله راغبون^(٣)

(١) ضرى الوحش باللحم اعتاده وألفه (٢) الغلاصم جمع غاصمة
وهي اللحمة بين الرأس والعنق والاباهر جمع أبهر وهو عرق يخرج من
القلب الى سائر الشرايين اذا انقطع مات صاحبه (٣) للمعرى كلام كبير
في الفرق بالحيوان والبهائم عن أئذائه ومطارده وذبحه وأكل لحمه والانتفاع
بألبانه وثماره كقوله في النهي عن ضرب الدواب

لقد ساءنى مغدى الفقير بجعله على العير ضرباً ساء ما يتقلد
يحمه مالا يطق فان ونى أحال على دى فترة يتحلد
وقوله يحاطب الحمامة ويؤمنها من غدره وختله
لك النصح منى لا أعاديك خاتلا بمكر ولكنى أعاديك مكرما
اداما حدرت الصقريوماً فحادرى أحا الاس أيا ما وان كان محرما
يصوغ لك الغادى قلادة هالك من الدم تنجى وجدك المتضرما
وقوله فى النهى عن صيد الوحش

لا تطرد الوحش فما يلبث المطرود فى الدنيا ولا الطارد

ثم سكت بعد ذلك سكوت المجهود المتعب وكان الظلام
قد أظلنا بجناحيه فشعرت أن سنة من النوم قد رنقت^(١)
في عينيه فأنسلت من بين يديه وتركته في مضجعه على أن
ألفاد غداً

وقوله في النهي عن تقطيع لحم الحيوان المذبوح وقب اختلاجه وقبل
مفارقته الحياة

روح ذبحك لا يعجله ميتة فتأخذ الحص منه وهو يحتلج

وقوله في الاعتراض على صيد الاسماك

جاروا على حيوان البر ثم عدوا على البحار فقالوا الصدم ما فيها
لم يقع الحى منها ما تقتصه حتى أجار أناس أكل طافها

وقوله يسكى على الطائر المقتول

وانك على طائر رماه فنى لاه فأوهى مهره الكتفا

أو صادفته جباله نصب فظل فيها كأنما كتفا

بكر يبغي المعاش مجتهداً فقص عد الشروف أو تقا

كاه في الحياة ما فرع العصن فغنى عليه أو هتما

(١) يقال ربق النوم في عينيه اذا حالطهما كاه مأخوذ من ترنيق
الطائر أى تحليقه ورفرفته بجناحيه

﴿ اليوم الثالث ﴾

أصبحت في اليوم الثالث فاذا الشيخ قد فارق خلوته الى حديقة المنزل فافترش ترابها ، وتوسد أعشابها ، وأنشأ يردد النظر بين أزهارها وأنوارها ، ويدسم للعصافير تتنقل بين أنجمها^(١) وأشجارها ، ويصنئ إلى سرار الحديث بين حصبائها ومائها ، فعرفت المدخل الى قلبه والوسيلة الى سروره وغبطته فافترحت عليه البروز إلى ضاحية البلد ليرفقه عن نفسه ما ألمَّ بها من الحزن والألم . نخر جئنا يتوكأ على يدي مرة وعلى عصاه أخرى حتى وصلنا إلى وادٍ أفيح يهتز بصنوف الأشجار ، وأفانين الأزهار ، ويتراءى في ألوان من النبات ؛ مشتبهات وغير مشتبهات ، من هائج وعميم ، وبارض وجيم^(٢) ، وكروم

(١) الانجم جمع نجم بفتح النون وهو ما نجم من النبات على غير ساق

(٢) الهائج من النبات الذي اصفر ويبس والعميم منه ما عم الارض والبارض أول ما يبدو من النبات فادا تحرك قليلا فهو الجم

وأعنان ، وسنابل وأعشاب ، وتفيض أرجاؤه بالجداول
والغُدران ، والقنى والخلجان ، مطردات ومنعطفات ،
ومجتمعات ومفترقات ، يفضى أولاها إلى آخرها ، ويتصل
أقصاها بأدناها ، ويمطف كبيرها على صغيرها ، وقويها على
ضعيفها ، فكانها صلال رقصاء قد فرّت من حرّ الظهيرة
إلى هذا الروض الأريض تبترد بين روايته وأكمانه ،
ومصاعده ومنجدراته ، فهي تنقبض وتنبسط ، وتنساب
وتتمعج^(١) ، وتقبل وتدبر ، وتقوم وتقعّد ، وتتواثب وتراجع
وتتواصل ثم تتقاطع ، وكأن حفيف أوراقه ، وخرير مائه ،
وتغريد أطيّاره ، وضجيج نواعيره ، وعجيج سائمه أنعام مختلفات
يتألف من مجموعها لحن بديع يسمعه السامع فيخيل إليه أنه
هابط من أبواب السماء ، أو أن سكان الالمب^(٢) فوق عروشهم
يغنون ، وسكان الأرض بين أيديهم يستمعون

(١) تتممحت الحبة نلوت في سيرها وثبت (٢) الالمب خرافات
اليونان مجمع آلهتهم ويقولون ان لتلك الالهة ساعات يشربون فيها
في محتمهم هذا ويطربون

هنالك وقف الشيخ أمام هذا المشهد المؤثر وقفة الحائر المشدود ، وقد ملكت عليه مشاعره وحيل بينه وبين نفسه فجمد في مكانه كأنه نُصب من الأُنصاب ووقفت وراءه أعجب لجموده وسكونه حتى فنيت كما فنى في مشهده الذى بين يديه فلم أرجع الى نفسى حتى سمعته يقول :

للمليك المذكرات عبيد وكذاك المؤنثات إماء
فالهلل المنيف والبدر والفر قد والصبح والثرى والماء
والثرى والشمس والنار والنثرة والارض والضحى والسماء
هذه كلها لربك ما عا بك فى قول ذلك الحكماء
ثم التفت إلىَّ وقال : كل الناس يطلبون الحقيقة وكلهم عاجزون عنها لأنهم يطلبونها من صحائف التاريخ والمؤرخون يصانعون ويدهنون ، أو من أفواه الفقهاء والفقهاء تجار يرتزقون ، لا هداة يرشدون ، أو من خطرات عقولهم وقد أفسدها عليهم القائلون والكاتبون ^(١) والحقيقة موجودة

(١) كثيراً ما نقيم أبو العلاء على الرواة والقصاص أخارهم التي

ولكنهم لا يعرفونها لأنهم لا يعرفون الطريق إليها ، قلت
وأن تجدها ، قال في هذه الأودية الفيحاء ، تحت تلك القبة
الزرقاء ، بين ذلك الظل والماء

هنا يرى الانسان ربه في الفريسة يلتقي بها غارسها في

يضعونها من عد أنفسهم ويدونونها في كتبهم مصاعة للعامة واستهواء
لقلوبهم وطلباً للربح منهم كقوله

ويقال الكرام قولاً وما في العـصر الا السخوس والاسماء
وأحاديث خبرتها عواة وافترتها للمكسب القدماء
علب المين مند كان على الحاق وماتت بغيظها الحكماء
وقوله في تكذيب ما ورد على ألسنتهم من أخبار المعمرين
في التاريخ القديم

وادعوا للمعمرين أموراً لسب أدري ما هي في المشهور
أتراهم فيما تقضى من الابسام عدوا سيهم بالسهور
وقوله في مكذيب القصص الذين يزعمون أن أول من شاب من
الرجال هو سبنا ابراهيم عليه السلام

ما أقبح المين قلت لم يسب أحد حتى أنى السيب ابراهيم عن أمم
كذبتم ونجوم الليل شاهدة ان المشيب قديماً حل في اللحم
وقوله لعمرى لقد فضح الأولين ما كتبوه وما سطوروا

التربة فاذا هي نبتة زاهرة مستوية على سوقها تعجب الزرّاع ،
ويراه في الحبة الدقيقة في الصرة المستديرة في النواة الصغيرة
التي لا تلبث أن تأخذ مكانها من مغرسها حتى تصير نخلة
سحوقاً تملأ الأرض خيراً بجذوعها وسعفها وجريدها وقنوانها
وعشاكيلها وطلعها وبلحها وبسرّها ، ويره في الكواكب
المائلة في السماء ، والأسمك السابحة في الماء ، والأجواء
المملوءة بالهواء ، والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلّى ، فيمتلئ
قلبه يقيناً صافياً رائقاً لا تعبث به المناظرات ، ولا تشوّه
جماله المجادلات ، ولا يحتاج بعده إلى متكلم يعلمه النظر ،
ولا فقيه يلقنه الجدل ، فلا دليل على الله غيره ، ولا هادي
إليه سواه ^(١)

(١) كان أبو العلاء من أشد الناس بعضاً للمناظرات الدينية لاعتقاده
أنها تورث الاحقاد والاصغان فضلاً عما تلقبه أحياناً من السكوك في نفوس
الضعفاء ، وكان يكره من المتناظرين أن المتنافسة وحب التغلب كثيراً
ما يحملهم على الخروج عن الحق وانكار البدييات كما يظهر ذلك من
(٤٦ لث — النظرات)

هنا يرى الانسان السائمة تأكل العشب والعشب يأكل
التراب والتراب يأكل السائمة فيستحيل الجماد نباتاً والنبات
حيواناً والحيوان جماداً فيعلم أن المواليد الثلاثة مادة واحدة
تتلون ذراتها وتتشكل جواهرها ويعلم أن هذا الانسان
الفاخر بنفسه والمدل بعظمته واقتداره ربما كان بالأمس

مثل قوله .

لولا التافس في الدما لما وصعب كتب التاطر لا المعنى ولا العمد
قد بالغوا في كلام بان رخره يوهى العيون ولم ينب له عمد
وما يزالوا في شأم وفي يمن يستنطون قياساً ماله أمد
فذرهم ودناياهم فقد شغلوا بها ونكفيك منها الواحد الصمد
وقوله :

ملل غدت فرقاً وكل سريعة تهدي لمضمر غيرها أكفارها
وقوله :

علم الفتى النطار ان بصائرا عميت فكم يحفى اليقين وكم يعم
لو قال سيد عضا بعث بملة من عمد ربى قال بعضهم نعم
وقوله :

هذا الفتى أوقع من صخرة يهت من ناظره حيث كان
ويدعى الاخلاص في دينه وهو عن الاحاد في القول كان
يرغم ان العشر ما نصفه حس وان الجسم لا في مكان

صفحة^(١) ملقاة على جانب قبر ، وربما يكون في الغد جلدة
بالية في ذوابة^(٢) نعل^(٣)

هنا يرى الانسان الأرض الصلفاء يمر بها الماء وتلقى
فيها البذور فلا تلبث الشمس أن تجفف ماءها والريح أن

(١) الصفحة الحجر العريض (٢) الدواة من العلم ما أصاب الارض
من المرسل منها على القدم (٣) ردد أبو العلاء هذا المعنى الخاص بتغير المادة
وسكائها كيرا في كلامه في ذلك قوله

مضى الانام فلولا علم حالهم لقلت قول رهير أية سلكوا
في الملك لم يجر حوا عنه ولا انتقلوا منه فكيف اعتقادي أنهم هلكوا
وقوله :

وما يدرك والاسان عمر وقد يدري خلك وهو دار
لعل مفاصل الباء بضحي طلاء للسقبه والحدار
وقوله :

فلا تيس حاراً من النخر عائد الى عنصر للمخار للنفع يضرب
لعل ماء مه يصنع مرة فياً كل فبه من أراد ويشرب
ومحمل من أرض لارض ومادري فواهاً له بعد البلى يتغرب
وقوله في داليته المعروفة :

رب لحد قد صار لحداً مرارا ضاحك من تراحم الاضداد
ودفين على نقايا دفين في طوبل الازمان والآباد

تعصف بذورها فيعلم أن الحقائق الدينية لا يمكن أن تستقر
في قلوب الأشرار إلى أن تبلغ شغافها وأن الناس ما اختلفوا
إلا لأنهم جاحدون ، وإلا اقتتلوا إلا لأنهم ملحدون

هنا يرى الانسان الشمس طالعة من مشرقها مصفرة
اللون متقاربة الخطوات مخافة أن تطير اليها رشاشة سوداء
من مآثم هذا العالم ومخازيه ثم لا تلبث أن تأخذ مكانها من
كبد السماء حتى تنحدر إلى مغربها هاربة فننغمس في ماء
البحر قبل غروبها لتغسل عن جرمها الأبيض المشرق ما ألمَّ
به من تلك الأدران والأحوال ، ويرى الليل مقبلاً يقطب
وجهه ويزوي ما بين حاجبيه ويربّد شيئاً فشيئاً حتى يسودّ
غضباً على هذا المجتمع البشري فيما يقترفه تحت ستاره من
المفاسد والشرور ، ولا يزال مادّاً يديه بالدعاء إلى الله تعالى أن
يعجل أوبته إلى مستقره حتى يستجيب له ويداول بينه وبين
النهار ، ويرى الكواكب قد كمنت وراء ستر الظلام ثم
أطلّت بعيونها على هذا العالم الأرضي مرغمة لتنفس عن رفيقها

الليل بعض ما خالط قلبه من الهمّ والكمد فلا تلبث أجفانها
أن تطرف انفلاقاً وانفتاحاً مخافة أن يصيبها سهم نافذ من
سهام الأشرار التي تتطاير يمنة ويسرة وصعوداً وهبوطاً فلا
يقوم لها شيء إلا أتت عليه

هنا يرى الانسان الحقيقة في هذا العالم عارية الجسم
ويسمع صوتها واضح النبرات من حيث لا يحجب بصره
تكلف المتكلفين ، ولا خداع الخادعين ، ولا يصد سمعه قرع
النواقيس ولا صياح المؤذنين

فقلت حسبك يا مولاي فقد نال منك أجيج هذه
الرمضاء وإني أرى في رأس هذا الوادي رجلاً أحسبه فلاح
هذه الأرض فامض بنا اليه عنه ييسر لنا ظلة نفيء اليها
وجرة باردة نقشأ بها هذه الصارّة ^(١) ، فمشينا اليه حتى بلغناه
فرايناه مكباً على تربته يفلحها ويقلب عاليها سافها وقد
شرست يده وشثنت قدماه وزأبر صدره ^(٢) ، وأفرغ قرص

(١) يقال فتأ القدر اذا سكن غليانها والصارّة العطش (٢) شرست
اليد اذا غلظ ظهرها من برد فتسقق وشثت القدم اذا خسنت وغلظت
وزأبر الثوب اذا خرج له زئبر وهو ما يظهر من درره

الشمس في رأسه جعبة سهامه فتصبب عرقاً حتى سالت منه على قدميه قطرات كقطرات البخار تسيل على جوانب القدر المضطرم خيئناه بتحية حياً بأحسن منها وأفضينا اليه بطلبتنا فأشار بيده إلى كوخه وكان منه على بعد كشب فاذا عريش من عيدان القصب مسجج^(١) قد ارتفع فوقه سقف من جذوع الأشجار واعتمد على أسطوانة^(٢) من اللبن الأسود وامتدت أمامه صفة مستطيلة واستدار به نوى يمنع عنه مسيل الماء ، فدخلناه فلم نر فيه إلا رثة^(٣) من المتاع لا تكاد تزيد على جوالق للخبز اليبس وخلقان من القمص والأبراد وقدر وأتفية وجرة مملوءة ماء وحشية^(٤) مفككة تضرب في جوفها حشوة من الليف اضطراب الجنين في جوف الحامل ، فشربنا حتى ارتوينا وأخذنا من تلك الحشية مضجعنا ومازلنا على حالنا تلك سكوتاً لا نتكلم حتى جاء الرجل وقد مال

(١) يقال مسح الحائط اذا طلاه ببطقه رقيقه من الطين (٢) أسطوانة

بصغير اسطوانة (٣) رثه المتاع بكسر الراء ساقطه (٤) الحشية الفراش المحسو

ميزان النهار يَقْزَلُ^(١) في مشيته ويحمل فأسه على عاتقه ويجر وراءه ولدين صغيرين له بين الثامنة والعاشرة فجلس وجلس ولداه بين يديه وأنشأ يلقي إلينا معاذيره ويتوجع لعجزه عن إكرامنا وإسعافنا بما نحب فعذرنا ثم جرى بينه وبين الشيخ الحديث الآتي : وكنت أترجم بينهما لأنهما لا يكادان يتفاهمان الشيخ - من يملك هذه الأرض

الفلاح - هي لسيدى ومولاي أطال الله بقاءه وأتم عليه نعمته صاحب هذا القصر الذى تراه ، وأشار إلى قصر نخم يرفرف بأجنحته فى هذه البقعة الخضراء ، رفرقة الحمامة البيصاء ، فى القبة الزرقاء

الشيخ - أراك تدعوه وتتمنى له الخير والسعادة فاعلمك سعيد بجواره مقتبض بمكانك منه ولعله يمدك ببره وإحسانه ويفدق عليك من نعمته ما يطلق لسانك بحمده والثناء عليه الفلاح - حسبي من سيدى أن أرى وجهه مرة فى كل

(١) قزل به فرل وهو أقبح العرج

يوم أو يومين ممتطياً فرسه الدهماء في ركب من أصحابه وحاشيته
 ماراً بهذه الأجمات الملتفة يتنزه ويتروح ويطارد الثعالب
 والذئاب مطاردة الشجاع المستقل ثم يعود إلى قصره مسروراً
 مغتبطاً بمصباحه وممساءه

الشيخ - إنما أسألك عن أياديه عندك وصنائعه لديك
 لا عن منازحه وطرائده وملذاته وشهواته

الفلاح - وهل يوجد في باب النعم جليلها ودقيقها نعمة
 أجل قدراً وأسمى قيمة من أن أكون عبداً مملوكاً لسيد كهذا
 السيد رفيع الجاه ، جليل القدر ، واسع النعمة ، تطأطى بين
 يديه رؤوس العظماء ، ويختلف بين حضرته كبار الأمراء

الشيخ - أيها الرجل ما عن هذا أسألك إنما أسألك هل
 يسلم عليك سيدك هذا إذا مرّ ببابك أو يخلو بك أحياناً
 ليتعرف همك وما تهتف به نفسك من رغباتك وحاجاتك

الفلاح - الحق أقول يا سيدي إنى ما سمعت في حياتي
 بأعجب من سؤالك هذا ، ومتى كان السيد يخاطب عبده إلا

بالأمر والنهي أو يرفع إليه طرفه إلا بالنظر الشزر أو يلامس
 يده جسمه إلا للتأديب والتهذيب ، ولقد تمرّ بي وبعيالي
 الليالي ذوات العدد ولا نكاد نجد من الخبز المخشوب
 ما يملأ بطوننا فلا أجد في نفسي من الحزن والألم ما أجد
 من نسيان سيدي إياي بضعة أيام أو إغفاله أمرى ونهي
 وزجرى وتأديبي ، وقد أعدّ لي حفظه الله وأمتغنى بدوام
 رعايته وعنايته عصياً غلاظاً يتمهّدني بها من حين إلى حين
 كلما نسيت أمراً من أوامره أو قصرت في رعاية غرض من
 أغراضه فأغتبط بذلك الاغتباط كماه لأنني أعلم أني منه على
 ذكر^(١) وأنني قد نزلت من نفسه منزلة من لا يهون عليه
 إغفاله وإطراحه وإلقاء حبله على غاربه

الشيخ - وأين أم هذين الولدين

الفلاح - ماتت رحمها الله في سبيل خدمة سيدها فقد

(١) الذكر التذكر

كنا يوماً نمتح^(١) على حافة بئر فزلقت أقدامنا وانبت بنا
 الحبل فـقطنا، أما هي فاستأثر الله بها وأما أنا فاندكسرت
 رجلى وقدر الله لى الحياة فما أسفت على شيء أسفى على أن لم
 أكن قد لحقتُ بها فأكون قد هلكت فى سبيل خدمة
 سيدى كما هلكت ليترحم علىّ كما ترحم عليها ويأمر بدفنى
 فى مقبرة أجداده كما أمر بدفنها

الشيخ - ربما كنتَ قانعاً من إحسان سيدك إليك
 وعطفه عليك بما تعود به على نفسك وعيالك من غلة هذه
 الأرض وثمراتها

الفلاح - لا والله يا سيدى ما أعلمنى نازعت سيدى
 نعمته وسعادته فى قفيز بر، أو حفنة تمر، إلا أن تسقط بين
 يدي تمرّة أعلم أنه لا يأبه لها فتكون قسمة بينى وبين
 ولدى أو أحتطب من أطراف هذا الوادى بضعة أعواد من
 الحطب أشعأها تحت قدرى وأستغفر الله مما سهوت عنه أو
 أخطأت فيه

وهنا رأيت أبا العلاء كأنما يحاول أن يكاتني دمةً
 ترجح في مقاتيه فأشرت اليه بالقيام فقمنا ومشينا صامتين
 لا ينطق ولا أنطق حتى بلغنا المنزل وقد نزل ستر الظلام
 فقلت أرجو يا مولاي أن أكون قد باغتُ ما أردتُ لك
 في مخرجك هذا من السرور والغبطة ، قال ما نفّص علىّ يومى
 إلّا منظر ذلك الرجل الأبله المسكين فى صغر سنه وسقوط
 همته وذلة جانبه ، وما أحسب إلّا أن الظلم قد ألحّ على نفسه
 حتى قتلها وسلبها حسنها ووجدانها ، فأصبح لا يعرف لنفسه
 حياة داتية مستقلة عن حياة ذلك الانسان الذى يسميه سيده^(١)
 فهو لا يفرح إلّا لفرحه ، ولا يفتبط إلّا باغتباطه ، ويرضيه

(١) ما كان أبو العلاء يرى لأحد فضلا على أحد إلا بالفضائل النفسية
 وقد ردد هذا المعنى كثيراً فى كلامه كقوله :

أسران كنب محموداً على خلق ولا أسر بأنى الملك محمود
 وقوله :

وأقصانى عن الرؤساء كوفى وكونهم لحالقنا عبيدا
 وقوله :

وان أفضل من نعظيمهم رجلا صفرا من الحكم التعظيم للحجر

منه كل شيء حتى سوء مجازاته إياه على إخلاصه اليه وتعبُّده
 له بضربه وتعذيبه وتقتير الرزق عليه وكذلك يفعل الظلم في
 نفوس المستضعفين

ثم تركني وانحدر إلى مخدعه وهو يهتف بهذه الكلمات
 يحسن مرأى لبنى آدم وكلهم في الذوق لا يميز
 أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب



الأربعون^(١)

الآن وصلت إلى قِمةِ هَرَمِ الحياة، والآن بدأت أنحدر
في جانبه الآخر، ولا أعلم هل أستطيع أن أهبط بهدوء
وسكون حتى أصل إلى السفح بسلام، أو أعر في طريق
عرة تهوى بي إلى المصرع الأخير هُوِيًّا

سلامٌ عليك أيها الماضي الجميل، لقد كنتَ مَيِّدَانًا
فسيحًا للأمال والأحلام، وكنا نطيرُ في أجوائك البديعةِ
الطلقةِ غادين راثحين طَيْرَانِ الحمام البيضاء، في آفاق السماء،
لا نشكو ولا نتألم، ولا نضجر ولا نسأم، بل لانهتد أن
في العالم همومًا وآلامًا، وكان كلُّ شيء في نظرنا جميلًا حتى
الحاجة والفاقة، واحتمال أعياء الحياة وأثقالها، كان كلُّ

(١) كتب المرحوم المؤلف هذه الرسالة بعد بلوغه الأربعين من
حياته وكأنما كان يتنبأ بدنو أجله . رحمه الله وبرد ثراه

مَنْظَرٌ مِنْ مَنَاظِرِكَ قَدْ لَبِسَ ثَوْبًا قَشِيبًا مِنْ نَسِيجِ الزَّهْرِ
الْأَبْيَضِ فَأَصْبَحَ فِتْنَةً الْأَنْظَارِ وَشَرَكَ الْأَلْبَابِ !!

وَكَانَ يُخَيِّلُ إِلَيْنَا أَنَّ هَذَا الزَّوْرُقَ الْجَمِيلَ الَّذِي يَنْحَدِرُ
بِنَا فِي بُحَيْرَتِكَ الصَّافِيَةِ الرَّائِقَةِ سَيَسْتَمِرُّ فِي طَرِيقِهِ مُطَرِّدًا
مُتَدَفِّعًا لَا يَعْتَرِضُهُ مُعْتَرِضٌ وَلَا يَلْوِي بِهِ عَنْ طَرِيقِهِ لَاوٍ إِلَى
مَا لَا نِهَايَةَ لاطْرَادِهِ وَتَدَفُّعِهِ

وَكَانَ كُلُّ مَا نَعَالِجُ فِيكَ مِنْ آلَامٍ وَهَمُومٍ أَنْ يَكُونَ لَنَا
مَأْرَبَانِ مِنْ مَأْرَبِ الْحَيَاةِ ، فَهَظَفَرْنَا بِأَحَدِهِمَا وَيَفُوتُنَا الْآخَرُ .
أَوْ غَرَضَانِ مِنْ أَغْرَاضِهَا ، فَانْصَلَّ إِلَى الْقَرِيبِ ، وَنَبِيتَ دُونَ
الْبَعِيدِ .

وَكَانَ كُلُّ مَا يَسْتَنْدِرِفُ الدَّمْعَ مِنْ أَعْيُنِنَا هَجْرُ حَبِيبٍ أَوْ
طَلْعَةُ رَقِيبٍ ، أَوْ أَرْقُ لَيْلَةٍ ، أَوْ ضَجْرُ سَاعَةٍ ، أَوْ نَظْرَةُ
شَرَرٍ يَلْقِيهَا عَلَيْنَا بَفِيزٍ ، أَوْ نَفْثَةُ شَرٍّ يَرْمِينَا بِهَا حَقُودٌ ، ثُمَّ
لَا تَلْبَثُ مَسْرَاتُنَا وَمِيَاهُنَا أَنْ تَطْرُدَ تِلْكَ الْآلَامَ أَمَامَهَا كَمَا
يَطْرُدُ النُّهْرُ الْمَتَدَفِّقُ الْأَقْدَارَ وَالْأَكْدَارَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَسْلُمُ

لنا الحياة سائغةً لا كدر فيها ولا تنغيص

سلام عليك أيها الشباب الذاهب ، سلام على دَوْحَتِكَ
الفينانةِ الغنماءِ ، التي كننا نمرح في ظلالها ، مَرَحَ الطِّبَاءِ العُفْرِ
في رملتها الوَعْثاءِ ، ننظر إلى السماء فيُخَيِّلُ إلينا أنها مَغْدَى
ومراحٌ لنا ، وإلى الآفاق البعيدة فيُخَيِّلُ إلينا أنها مَجْرَى
سوابقنا ومَجَرِّ رماحنا ، فكانَ العالم كله مملكتنا الواسعة
العظيمة التي نسيطر عليها ، ونتصرف في أيِّ أقطارها شئنا

أبكيك يا عهدَ الشباب ، لا لأنني تمتعتُ فيكَ بِراحٍ
أو غَزَلٍ ، ولا لأنني ركبْتُ مطيَّتك إلى لهو أو لعب ، ولا
لأنني ذقتُ فيكَ العيشَ باردَ الهواءِ كما يذوقه الناعمون
المترفون بل لأنك كنتَ الشبابَ وكفى !!

أبكيك لأنني كنت أرى في سماءك نجمَ الأمل لا معاً
مُتَلَأِّثاً يؤنسنى منظرُهُ ويطرِبني لألأوه ، وينفدُ إلى أعماق
قلبي شُعاعه المتوهِّج الملتهب ، فلما ذهبتَ ، ذهبَ بذهابك
فأصبحَ منظرُ تلك السماء منظرَ فلاةٍ موحشة مظلمة لا يُضيئها

كوكب . ولا يلمع فيها شمع
 أَجَلَ . لم أتمتع فيك بمتعة من المتع ، ولا بلذة من
 الملاذ ، ولا نلتُ في عهدك مأرباً من مآرب المحدث أو الجاه ،
 ولكنى كنت أؤمل وأرجو . وبذلك الأمل كنت أعيش
 وتحت ظلال ذلك الرجاء كنت أهناً وأنعم

أما اليوم وقد بدأت أنحدر من قمة الحياة إلى جانبها
 الآخر فقد احتجب عني كلُّ شيء ولم يبق بين يديّ مما
 أفكر فيه إلا أن أعدّ معدتي لتلك الساعة الرهيبة التي أنحدر
 فيها إلى قبري

مضى عهدُ الشباب وبدأت أختلفُ إلى الأطباء الثلاثة
 طيب العيون ، وطيب المعدة ، وطيب الأسنان ، وتقاربت
 خطواتي فأصبح فرسخي ميلاً ، وباعى ذراعاً ، ونمى الناعون
 إلى كثيرٍ من أصحابي وأترابي . أى إنهم نعموا إلى نفسى
 ورأيتُ أصدقائى الذين نشأت معهم فى طريقى فأنكرتُ
 استحالة حالهم ، واغبرار وجوههم ، وتجمُّد خدودهم ، وايبضاض

شعورهم ، فعلمتُ أننى أولهم وانهم يُنكرون منى ما أنكر
منهم ودعالى الداعون بالقوّة والنشاطِ ، وطولِ البقاء ، وحسنِ
الختام ، أى إنَّ قوتى فى هُبُوط ، ونشاطى فى اضْمِحلال ،
وسلامتى فى خطَر ، وحياتى على وَشْك الانحدار إلى مغْرِبها ،
ومرَّرتُ بمجامع الشبان الحافلة بالقوّة والنشاط والمرح
والسرور فخيَّل إلىَّ أننى غريبٌ عنهم لا صلةَ لى بهم ولا
شأن لى معهم ، وأننى أعيش فى عالم غير العالم الذى يعيشون
فيه وانتقلت من النظر فى شأن نفسى ، وشأن مستقبلى إلى
النظر فى شأن أولادى ، وشأن مستقبلهم ، لأنَّ مستقبلى
أصبح ماضياً وغداً أصبح أمس لا رجعةَ له إلى الأبد وسمعت
كلمة « الجدّ » يَهْتَفُ بها أحفادى الصغار ، فلم أنكرها ولم
أبتئس كأنى معترف أنها الكلمةُ التى يجب أن أسمعها .
ونصحنى الناصحون بالاقتصاد والتدبير إبقاءً على مصلحة
أولادى الفقراء ، كأنهم يقولون لى إنك مُوشِك أن ترحلَ

فَاعْدَ لِمَنْ وَرَاءَكَ مِنْ أَهْلِكَ وَبَنِيكَ مَا يُغْنِيهِمْ عَنْكَ يَوْمَ
يَفْقَدُونَ وَجْهَكَ ، وَهَدَأَتْ نَفْسِي بَعْدَ ثَوْرَتِهَا وَجَمَاحِهَا ،
فَأَصْبَحْتُ سَمَحًا كَرِيمًا ، عَفُوًّا غَفُورًا ، لَا أَبْغِضُ أَحَدًا ، وَلَا
أُحْقِدُ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا أَقَابِلُ ذَنْبًا بِعُقُوبَةٍ ، وَلَا إِسَاءَةً بِمِثْلِهَا ،
كَأَنِّي أَقُولُ فِي نَفْسِي . مَالِي وَلِلْعَالَمِ وَلِمَا يَحْوِيهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ،
وَأَنَا مَفَارِقُهُ وَشِيكَاءُ ، إِنْ لَمْ يَكُنِ الْيَوْمَ فَعْدًا ، وَأَخَذْتُ أَتَحَدَّثُ
عَنِ الْمَاضِي أَكْثَرَ مِمَّا أَتَحَدَّثُ عَنِ الْحَاضِرِ . لَا لِأَنَّ الْأَوَّلَ
أَجْمَلُ مِنَ الثَّانِي ، بَلْ لِأَنَّ الشَّبِيهَةَ أَجْمَلُ مِنَ الشَّيْخُوخَةِ ،
وَذَكَرْتُ الْجُلُوسَةَ الْبَسِيطَةَ الَّتِي كُنْتُ أَجْلِسُهَا أَيَّامَ الطَّلَبِ
فِي غُرْفَتِي الْعَادِيَةِ الصَّغِيرَةِ بَيْنَ زَمَلَانِي الْفُقَرَاءِ الْبُسْطَاءِ ،
فَبِكَيْتُهَا وَرَثَيْتُهَا وَلَمْ تُنْسِنِي إِيَّاهَا جَلَسَتِي الْيَوْمَ فِي مَنْزِلِي
الْأُنَيْتِ الْجَمِيلِ بَيْنَ خَيْرِ النَّاسِ أَدَبًا وَفَضْلًا وَمَجْدًا وَشَرَفًا ،
لَأَنَّ الْأَوَّلَى كَانَتْ فِي سَمَاءِ الْأَحْلَامِ الْحُلُوةِ اللَّذِيذَةِ ، أَمَا الثَّانِيَةُ
فَفِي أَرْضِ الْحَقِيقَةِ الْمَرَّةِ الْمُؤَلِّمَةِ ، وَكُنْتُ أَنْعَمُ فِي صَبَإٍ بِكَثِيرٍ
مِنَ الْمَلَاذِّ الْوَهْمِيَةِ الْكَاذِبَةِ ، فَكُنْتُ أَجِدُ فِي نَفْسِي غِبْطَةً

عظمى حينما أجلس لمطالعة قصة ألف ليلة وليلة ، أو سيرة
سيف ابن ذى يزن ، أو حروب عنتره ، أو وقائع أبي زيد ،
أو أساطير الجن والشياطين ، وحين آوى إلى مضجى فأرى
فى منامى رؤى بديعة يجتمع لى فيها جميع ما أحب وأشتهى من
مطامع الحياة وما ربها ، وملاذ العيش ومباهجه ، وحين اختلف
إلى مقابر الصالحين ومزارات الأولياء وأقف موقف الضراعة
أمام حلقات أبوابهم ، فأشعر بسكينة فى قلبى يبعثها الأمل
ويُزجىها الرجاء ، والآن وقد حُرمت ذلك كله منذ الساعة
التي عرفت فيها أن أساطير الأولين أكاذيب وأباطيل ،
وأن الرؤى والأحلام هوس وجنون ، وأن الأولياء
والصالحين أحياء أكانوا أم أمواتاً ، فى شاغلٍ بأنفسهم عن
غيرهم لا يستطيعون نفعاً ولا ضرّاً ، أى اننى شقيتُ حين
علمتُ ، وكنت سعيداً قبل أن أعلم ، وكان كلُّ ما أفكر
فيه أن أشيّد لى بيتاً جميلاً أعيش فيه عيش السعداء الآمنين
فى مدينة الأحياء . فأصبحت وكل ما أفكر فيه الآن أن

أبني لى قبراً بسيطاً يضم رُفاتي فى مدينة الأموات، وكنت
أدهشُ لبلاغة البليغ، ودَلالة الخطيب، وبراعة الشاعر،
وقدرة الكاتب الصائغ، ونبوغ المبتكر، وأطرب لكل
عظيمٍ وجليلٍ مما أرى ومما أسمع، فأصبحت لا أدهش لشيء
ولا أعجبُ من شيء لأنَّ مرآةَ نفسى قد صدَّت فلا ينطبعُ
فيها غيرُ الكوكب الفخم العظيم، وأين ذلك الكوكبُ فيما
يقع عليه نظرى من كواكب السماء ونجومها

ما أنا بأسف على الموتِ يوم يأتينى، فالموتُ غايةُ كل
حيٍّ، ولكننى أرى أمامى عالماً مجهولاً لا أعلم ما يكون
حظىَّ منه وأتركُ ورأى أطفالاً صغاراً لا أعلم كيف يعيشون
من بعدى ولولا ما أمامى ومن ورأى ما باليت أسقطتُ على
الموت أم سقط الموتُ علىَّ !!

ليكنْ ما أَراده الله أما ما أمامى فالله يعلم أنى ما أَلَمْتُ
فى حياتى بمعصيةٍ إلاَّ وترددتُ فيها قبل الإلمام بها، ثم
ندِمْتُ عليها بعد وقوعها، ولا شككتُ يوماً من الأيام

فِي آيَاتِ اللَّهِ وَكِتَابِهِ ، وَلَا فِي مَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ ، وَلَا فِي قَضَائِهِ
 وَقَدَرِهِ ، وَلَا أَذْعَنَتْ لِسُلْطَانٍ غَيْرِ سُلْطَانِهِ ، وَلَا لِعَظَمَةٍ غَيْرِ
 عَظَمَتِهِ ، وَمَا أَحْسَبُ أَنَّهُ يَحَاسِبُنِي حَسَابًا عَسِيرًا عَلَى مَا فَرَطْتُ
 فِي جَنْبِهِ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَأَمَّا مَنْ وَرَأَى فَاللَّهُ الَّذِي يَتَوَلَّى السَّاعَةَ
 فِي مَرْتَعَاهَا ، وَالْقَطَاةَ فِي أَفْجُوصِهَا ، وَالْعُصْفُورَ فِي عُشِّهِ ،
 وَالْفَرَخَ فِي وَكْرِهِ ، سَيَتَوَلَّى هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالَ الْمَسَاكِينَ
 وَسَيَبْسُطُ عَلَيْهِمْ ظِلَّ رَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ

وداعاً يا عهد الشباب ، فقد ودّعتُ بودّاعك الحياة ،
 وما الحياةُ إلا تلك الخفقات التي يخفقها القلبُ في مَطْلَعِ
 العُمُرِ فاذا هَدَأَتْ فَقَدْ هَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ ، وَانْقَضَى كُلُّ شَيْءٍ
 يَا عَهْدَ الشَّبَابِ وَكُنْتَ تَنْدَى
 عَلَى أَفْيَاءِ سَرَحَتِكَ السَّلَامُ

—**—

(تم الجزء الثالث من النظرات)

﴿ فهرس الجزء الثالث من النظرات ﴾

صفحة	صفحة
البيان ٣	١٩١ اللفظ والمعنى
١٦ الناشئ الفقير	١٩٨ الآداب العامة
٣٥ قتيلة الجوع	٢٠٨ المؤتمر الاسلامى
٣٩ الأدب الكاذب	٢١٨ فى أكواخ الفقراء
٤٤ إيفون الصغيرة	٢٣٢ الضمير
٥٢ الملاعب الهزلية	٢٣٧ مدرسة الغرام
٦٦ الشيخ على يوسف	٢٤٣ أمس واليوم
٧٥ العظمة	٢٥٩ المرقص
٨٤ الانتقاد	٢٦٥ الماضى والحاضر
٨٩ يوم العيد	٢٧٥ الشيخوخة المتردة
٩٤ من الشيوخ إلى الشبان	١٨٢ عجائز بوشنج
١٠٣ الموتى	٢٨٨ الأجل
١١١ الزهرة الذابلة	٢٩٩ الرسائل
١١٩ الوجهاء	٣٠٩ الكلمات
١٣١ جرجى زيدان	٣٢٤ الفتاة والبيت
١٤٦ احترام المرأة	٣٢٧ البعث
١٥٣ الانتقام	٣٥٧ الأربعون
١٨٨ الخطبة الصامتة	﴿ تم الفهرس ﴾

